الشيخ والأمير

جولات بين المفاهيم والمصطلحات

بقلم

دكتور/ أحمد عبد الرحمن



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الشيخ والأمير .. جولات بين المفاهيم والمصطلحات

المؤلف : د. أحمد عبد الرحمن

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٤٣١٢م

الترقيم الدولي:٣-٠٣٠-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

(الكمية خمسمائة نسخة)

الطبعة الأولى ٢٠١٨

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

إهداء

إلى هذا الدين القيم الذى صرت به إنسانا..

إلى أمى رحمها الله برا وإحسانا .

إلى أخى رحمه الله إقرارا وعرفانا .

إلى وطنى الذى يعيش داخلى لحما ودما ووجدانا .

إلى أبنائى .. وليد وعبدالله .. وكل أبنائى .....

أنا ماضيكم ... وأنتم غدى .. وغدا تشرق الشمس

المؤلف

المقدمة
سنوات خداعات

الحمد لله المستحق الحمد ، وأ شهد ألا اله الا الله ، وأ شهد أن محمدا ر سول الله ، حامل لواء المجد ، اللهم صل و سلم ، وزد وبارك على عبدك ونبيك ور سولك محمد وعلى آله و صحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وارحم اللهم علماءنا المخلصين ، وقاداتنا المصلحين ، واهد شبابنا أجمعين ، واحفظ بلاد المسلمين ، وارفع راية الحق والدين ، وابسط سلامك في العالمين ، وانشر ضياءك في الخافقين ، دلنا عليك ، وقدنا إليك ، وهبنا الكرامة بين يديك ، فاياك نعبد ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجوا رحمتك ، ورحمتك وسعت كل شيء ، ونخشى عذابك ، وعذابك تصيب به من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت أرحم الراحمين ، ربنا : إياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .....وبعد

فمما لا شك فيه أن عصرنا هذا هو عصر الفتن السيا سية والاقتصادية والفكرية، عصر غربة وانحراف عن هدى الشريعة الإ سلامية في الكثير من الأمور، عصر الفو ضى الفكرية والدعوية القائمة على غير أ ساس ، أو على أسس هشة ضعيفة ، عصر الميل مع الأهواء الجامحة ، والشهوات الطاغية ، عصر كثرت فيه الفتاوى الكاسدة ، وعلت فيه الآراء الفا سدة ، عصر تبجح فيه المبطلون ، فتطاولوا على الإ سلام وعلى المسلمين ، عصر هاج فيه شباب طائشون ، وتصدر فيه رؤوس جاهلون ، وثارت ثائرة فريق مغرض ، وعجزت أجهزة تلوى وتعرض، وعلت صرخات ترغى وتزبد ، وعرضت أدوية وعلاجات لاتشفى وإنما تمرض .

إنه عصر الشذوذ الفكرى ، وفلب المفاهيم ، واعلاء الآراء الفجة اللامتأنية ولا الأصيلة ، التى تشوه حقائق الإ سلام ، وتؤيد دعاوى خصومه ، فيقولها أ صحابها زورا ، ويتيهون بها غرورا، فيحلون قومهم بوارا وثبورا .

إنه عصر الافتئات والتطاول على أصحاب الفتوى الأثبات ، والتنقص للعلماء الثقات ، المشهود لهم بالعلم والحكمة والبصيرة عند حلول الملمات ونزول الواقعات .

إنه عصر السنوات الخداعات ، يصدق فيه الكاذب ، ويكذب فيه الصادق ، ويؤتمن فيه الخائن ، ويخون فيه الأمين ، وينطق فيه الرويبضة ، الرجل التافه يتكلم في أمر العامة ، فهذا يفتى بالقتل والحرق ، وذاك يحلل ويحرم بغير حق ، وثالث يتصدر على جهل ليحرز السبق .

عصر ظلمت فيه المفاهيم ، وساء فيه التعليم ، وتسلق فيه على حساب الإسلام كل مخادع ولئيم ، واجترأ عليه كل أفاك أثيم ، وتكالب ضد هذا الدين كل شيطان رجيم ، من عدو ظاهر أو متستر ذميم ، ووقفت أمتي حيرى تتساءل : حتى متى ؟ وإلى متى ؟ ولماذا ؟

وقفت الأمة تتطلع للاستقرار في ديارها ، والعصمة لدمائها ، والحفاظ على أعراضها ، والحماية والتنمية لمقدراتها ، والتوجيه الصحيح والاستفادة بشبابها ، والوحدة لصفوفها ، ، والحضور الدائم لعلمائها ، والسداد والتوفيق لرؤسائها .

وقفت تنشد كرامة الإنسان ، وسلامة الأوطان ، واستنارة الأذهان ، وإسباغ الأمان ، ورفعة الإسلام والإيمان ، وجاء الجواب :

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ ، ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ ، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ ، إنه هدى الله ، يرشد العقول والأذهان ، يطهر القلوب والوجدان ، ويضبط الجوارح والأركان ، فمتى صادفت أتباعه ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ ، فصاحب الهدى سبحانه هو ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ ، هداهم من ضلالة ، وبصرهم من عمى ، وأنقذهم من غواية ، يسير أحدهم يشهد حاله ومقاله ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ، دائما ترى ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ..

وقفت الأمة فرأت هوة سحيقة تحول دونها وبلوغ هذه الغاية العظيمة ، رأت مفاهيم محرفة ، وعقولا مشوشة ، وعيونا مضطربة ، ونفوسا واجفة ، وبلاد الإسلام ترجفها الراجفة ، تتبعها الرادفة ، عراقا يحترق ، وشاما يمزق ، وليبيا تسرق ، وصنعاء دماؤها تتدفق ، وصومال وأفغانستان وسودان شمسها لاتشرق ، وبلاد الحرمين الخطر حولها محدق ، وأرض الكنانة كل يوم تختنق ، والحزن مطبق مطبق ، رباه أما لهذا الليل من آخر ؟

لقد أصاب التحريف كثيرا من مفاهيم الإسلام ، فساءت لذلك الأفهام ، وحاد السلوك والعمل عن الطريق الصحيح ، إذ كيف يهتدى من ساء فهمه ، أو يرشد من انحرف فكره ؟ انه يتوجه وراء بوصلة أخطأت في تحديد جهتها ، فسار صاحبها في غير الطريق ، وواصل السير في همة وعزيمة ، وكلما قطع شوطا ازداد انحرافا وبعدا ، فلا هو يصل منزله وغايته ولاهو يوفر قوته وطاقته ، وإذا به ينتقل من عناء إلى عناء ، ومن بلاء إلى بلاء ، ومتى جئت تعدل له بوصلته هاج وماج وثار وصال ، يتهمك بالتآمر عليه والكيد له ، أو يصفك

ربما بالفاسق الزنديق ، أو على الأقل يسمك بالجهل بالطريق ، وانعدام الخبرة ، ومجافاة التدقيق والتحقيق ، ولا تعجب سيدى متى رأيت سيء الفهم بالنصح يضيق ، فهو بالعجب والغرور حقيق، وبالجرأة والطيش يليق .

لقد أساء نفر ليس بالقليل الفهم للعديد من المصطلحات الشرعية مثل (الإله – الرب – العبادة – الدين – التشريع – الطاعة) وغيرها، وأصدروا في ترويج فهمهم هذا كتبا ومؤلفات ، وأساءوا فهم الحاكمية ، وجردوها من ضوابطها الشرعية ، فكفروا بذلك الكثيرين من الأمة والشعوب الإسلامية ، تارة بزعم أنها نازعت الله تعالى في صفاته ، أو بزعم استحلالها المحرمات وجحدها الواجبات ، أو بزعم شكها في الثوابت والمسلمات ، وخلاصة رأيهم أن الأمة صارت كافرة ، وأن المجتمعات ارتدت جاهلية كالجاهلية الأولى أو أشد ، ثم رتبوا على ذلك أن شكلوا جماعات موازية للمجتمع المسلم ، واتخذوا لهم أمراء وقادة بدلا من الحكام والحكومات القائمة في بلادهم ، أعطوهم البيعة ، ودانوا لهم بالطاعة ، وجندوا أجنحة عسكرية مناهضة لجيوش دولهم ، وأجهزة استخباراتية تتجسس لمصلحتهم على شرطة دولهم وأمنهم ، ونظموا في الخفاء صفوفهم وأعدوا العدة لإعلان الجهاد والحرب ضد هذه الحكومات والبراءة والمنابذة لتلك المجتمعات ، بدعوى نصرة الإسلام وتحكيم القرآن ، وأعملت هذه التنظيمات السيف في صدور الأمة ، ومزقتها مزقا ، متناسين أو متجاهلين أنهم يحققون هدف خصوم الإسلام ، وينفذون أجندة أعداء الأمة ، الذين يمدونهم بالسلاح والمعلومات والمال ، ويوفرون لهم المأوى ويدربون لهم الرجال ، حتى غدوا ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، فإذا ما أتمت هذه الجماعات مهمتها الموكولة إليها لاقدر الله ، تخلص منها أولئك الذين استخدموهم ، وتنكروا لهم فقتلوهم أو سجنوهم ، فتطوى صفحتهم وقد خربت الديار ، وعم الدمار ، فلاهم أبقوا دول الإسلام على ما كانت عليه ، ولاهم أقاموا دولتهم التى عاشوا بها يحلمون ، ومن أجلها يقتلون ويحرقون ، وإنما غاية ما قدموه أن تركوا الأمة مثخنة في جراحها ، غارقة في دمائها ، محرومة من خيراتها ، وقد تمكن منها عدوها ، يهتك العرض ، وينهب الأرض، ويمنع السنة والفرض ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

فى تصورى لم يحظ كتاب من الشهرة والانتشار ، بمثل ماحظى به كتاب «المصطلحات الأربعة للمودودى» ، و« معالم فى الطريق لسيد قطب» ، لقد زاعا زيوعا لا نظير له بين شباب الجماعات الإسلامية وقادتها ، حتى أصبحا مرجعية كبرى ، ودستورا لأفكار ومباديء هذه الجماعات ، وقامت هذه الجماعات على تنوعها وانتشارها بتدريس هذين الكتابين لأفرادها وللمجتمعات المحيطة بها ، وعقدت مجالس للشرح

والتدريس فى كل الأقطار الإسلامية تقريبا لهذين الكتابين ، وكان أول مايتلقاه السالك لدرب هذه الجماعات دروسا فى «المصطلحات الأربعة ، ومعالم فى الطريق » ، لقد كانا يباعان بأقل الأسعار أمام أكبر المساجد ، وفى المكتبات ، ويوزعان كهدايا فى كل المسابقات تقريبا ، وكانا يطبعان طبعات شعبية وأخرى فاخرة ليصلا إلى أيد كافة المستويات الثقافية والشبابية ، وتتسابق اتحادات الطلاب فى الجامعات فى إصدار الكتابين أو أحدهما على الأقل ، ليوزعا مجانا على الطلاب ، ويتم شرحهما فى المعسكرات والرحلات، ولا أنسى وأنا فى حوالى التاسعة عشرة من عمرى وقد عقد درس أسبوعى فى أحد المساجد المجاورة للجامعة لشرح كتاب المصطلحات الأربعة ، وتدريسه للطلاب ، وبرغم صغر حجم الكتاب حيث لايكاد يجاوز المائة صفحة، إلا أن الشارح ظل طوال سنة ونصف تقريبا يتناول هذا الكتاب بالتدريس والشرح بصورة أسبوعية ثابتة لايكاد يتخلف عن الدرس مرة واحدة ، أى ما يقارب الثمانين حلقة ، والشباب يجلسون مشدوهين مبهورين ، فى صمت وسكينة كأن على رؤوسهم الطير ، وكنا ساعتها نعتقد أن مايقوله الشارح إنما هو« تنزيل من التنزيل» ، لقد كان الكتاب من المسلمات التى آمنا بها صغارا ، حتى غدا فى نفوسنا لايقبل الرد ولا المناقشة ، إنها قضية الحاكمية والإلوهية والربوبية والعبادة والدين، وهل يجادل فى هذه المسلمات مجادل ؟ أو يناقش فى شأنها مناقش ؟ وهل يختلف مسلم فى أصول هذا الدين ومحاوره الرئيسية لفهم القرآن ومقاصد التشريع ؟ والتقينا كبار الأمراء ، وتذكرت قول الشاعر :

لا يغرنك ما منت وماوعدت فما مواعيد عرقوب إلا الأباطيل

لقد سيقت إلينا هذه المفاهيم مغلوطة ، وتلقيناها عن غير أهلها ، وعلى غير حقيقتها فى الشريعة الغراء ، لقد أخذناها عن الأمراء الذين لايعلمون ، أولئك الذين انحرفوا وحرفوا ، الذين يتلون كتاب الله يحسبونه لهم وهو عليهم .

لقد حرص نبى الإسلام من اليوم الأول لدعوته على تصحيح المفاهيم والأفكار لأصحابه ، ومات وهو يوصيهم بتصحيح فكرهم وفهمهم ، « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى » الحديث في الصحيح ، كما حذر من افتراق أمته وضمن النجاة لمن تمسك بمنهجه ومنهج صحابته رضوان الله عليهم بقوله « كلهم في النار إلا واحدة ، قيل من هم يا رسول الله؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

مضى النبى ﷺ إلى ربه ، وخلفه أصحابه من بعده ، فحافظوا على نقاء الإسلام وسلامته ، وتصدوا لموجة التحريف التى حاول أصحابها تغيير وتشويه حقائق هذا الدين ، فتصدى أبو بكر للمرتدين ومانعى الزكاة ، ووقف عمر في وجه من استحل الخمر متأولا حتى رده عن تأويله ، وجاهد ابن عمر في وجه القدرية قائلا: «

لن يقبل الله منهم صــر فا ولا عدلا حتى يؤمنوا بالقدر » ، ووقف جابر ضــد دعاة التكفير، و حدثهم بأحاديث الشفاعة ، وأن العصاة من أمة محمد لايخلدون في النار ، وثبت عثمان في وجه الخارجين على الأمة حتى قتلوه ، وهو معتصم بمصحفه ، متمسك بسنته ، قابض على دينه ، وصابر على ﷺ في قتاله ضد الخوارج الذين زعموا تمسكهم بحاكمية الله ، بينما هم يخالفونها هوى وضلالا ، قال لهم على : « الحكم لله كلمة حق يراد بها الباطل » ، وناظر ابن عباس مع أمير المؤمنين ضدهم ، فاهتدى به من اهتدى، وتمادى في ضلاله من تمادى ، ، كما وقف على في وجه الغلاة الذين ألَّهوه وزعموا ربوبيته ، ولماظهرت المعتزلة تصــدى لهم الحسن البصرى وأصحابه وعزلوهم عن مجلسهم ، وفى فتنة خلق القرآن قام أحمد بن حنبل ، يزود وينافح ، وهكذا كلما ظهرت بدعة قامت في مواجهتها سنة ، وناهضها علماء السنة ، ولازال الضلال يتوالد والحق يتصدى له، يصحح ما حرف وبدل ، ويقوم ما اعوج ، ويرشد من ضل ، ويحذر العامة من كساد الأفهام وفساد الأفكار ، حرصا على الأمة ، وحدبا على أبنائها ، وهكذا في كل عصر ومصر كلما ظهر صاحب هوى وداعية ضلال ، قطعه الله بلسان الحجة وبيان المحجة وسيف الحق والعدل ، وهذا زماننا هاجت فيه الأهواء وماجت ، وعلت فيه جماعات الضلال و سادت، وانتشرت فيه تنظيمات الأهواء وزادت ، وتزلزلت الأرض تحت أقدام المسلمين ومادت ، زاغت الأفكار ، وطغت الأبصار، وحرفت المفاهيم ، فجاء هذا الكتاب ، نظمته على شكل مناظرات بين طرفين ، لتصـحيح بعض المفاهيم المحرفة ،جاء هذا الكتاب يقارع الحجة بالحجة ، يرد الشبهة بالعلم ، يقمع البدعة بالسنة ، يبدد الهوى بالشريعة ، يكشف الدعاوى بالحقيقة ، و يزيح ظلمة الدجى بشــمس الضــحى ، إنها جولات من الحوارات ، وســلســلة من المناظرات ، مجالس من السجالات ، دارت بين أحد الشيوخ ، وواحد من الأمراء ، الشيخ يمثل لسان العلم والفقه والحكمة وسلامة التفكير ، والأمير يمثل جماعات العنف والطيش والتكفير، يدلى الأمير بشــبهته ، فيدمغها الشــيخ بحجته ، يتكلم الأمير برأيه أو برأى من سواه ، فيرده الشيخ إلى كتاب الله وسنة نبيه ومصطفاه ، يتشبث الأمير برأى غير المتخصصين ، فيجيبه الشيخ بفهم العلماء الراسخين ، جملة من المناقشات سقتها بتجرد ، ونقلتها بأمانة، علقت عليها في النذر اليسير ، ووسمتها:

« الشيخ والأمير»
جولات بين المفاهيم والمصطلحات

تهدف إلى تفكيك الفكر التكفيرى ونقض أ صوله ، ونـ سف قواعده وحـ صونه ، لقد جاء هذا الكتاب في مقدمة وبابين ، ثم خاتمة على النحو التالى : المقدمة بعنوان « سنوات خداعات » .

الباب الأول : **محاور لفهم القرآن** : عالجت فيه مـ صطلحات« الاله – الرب – العبادة – الدين» كمحاور أ سا سية لفهم القرآن الكريم ، .وذكرت ما وقع فيه المودودى من أخطاء ، وما ترتب على أخطائه من خلل فى فكر بعض رموز العمل الإسلامى المعاصر وجاء فى أربعة فصول .

الفصـــل الأول : الإله والإلوهية ، تعرضـــت فيه لمعنى الإله والإلوهية عند المودودى وســيد قطب ، وجليت مواطن الخطأ فى فهم هذا المصطلح ، وما ترتب على هذه الأخطاء من آثار وأضرار .

الفصل الثانى : **الرب والربوبية** عرضت فيه لمفهوم كلمة الرب ومعنى الربوبية ، وكذلك دور المودودى و سيد قطب فى تفسير هذا المـصطلح ، ومدى ارتباط الربوبية بالحاكمية ، والشبهات التى تثار فى هذا الشأن والردود عليها ..

الفصل الثالث : **العبادة** بينت فيه معنى العبادة الصحيح والأ سا سى ، وناقشت فكر المودودى حول هذا المصـطلح ، وأزلت ماعلاه من غبار التحريف والغلو ، ورددت المصـطلح إلى مفهومه الأصـيل لدى علماء الإسلام وفقهاء الشريعة.

أما الفـصل الرابع : فقد جاء عر ضا وبيانا لمـصطلح الدين ، ودار فى الأ ساس حول تفنيد فكر المودودى ومفهومه لهذا المـصطلح ، والوقوف على ماورد فى تفـسيره لهذا المـصطلح من أخطاء ، و نقلت نقولا مطولة عن العلماء والفقهاء القدامى منهم والمعاصـرين ، رجاء ربط الماضـى بالحاضـر، ورد الجديد إلى القديم، والجمع بين التراث والمعاصرة رغبة فى توضيح الفكرة وإزالة الشبهة ...

أما الباب الثانى فيحمل عنوان : التشريع والطاعة وجاء فى فصول ثلاثة :

عالجت فيه مفهوم التشـريع وأقسـامه وأحكامه ، ومفهوم الطاعة وأنواعها وأحكامها ، وبينت الممنوع منها والمشروع ، كما فرقت بين الطاعة والعبادة . .

وجاءت الخاتمة : داعية لضرورة الفهم الصحيح عن الله ورسوله ، والرجوع إلى العلماء المشهود لهم بالتقوى والفقه فى الدين ، مع استعراض لبعض صور مواجهة الانحراف والتحريف عبر تاريخ الأمة الطويل ، والله الهادى إلى سواء السبيل ، ثم أردفت بعد ذلك بقائمة لبعض المراجع ، وفهارس الموضوعات .

أما إنها بضاعة العاجز الضعيف الذى لايملك شيئا يقدمه لدينه ووطنه وأمته ، لكنها محاولة لانقاذ شباب فى عمر الزهور يقصف عوده قبل استوائه على سوقه ، بسبب « جهل الأمراء ، وغلبة الأهواء ، وكيد الأعداء ، وغيبة العلماء » . .

لقد كتبت هذا الكتاب نصرة للدين ، صيانة للأمة ، حماية للوطن ، وحفظا للشباب والأجيال ، فما كان فيه من صواب فمحض فضل من الله ومنة ، وماكان فيه من خطأ أو خلل فمحض نقص منى وعجز ، وأنا عن كل خطأ تائب ، إلى الله والى الحق راجع ، ووالله ما كتبت فيه إلا ما استقرت عليه نفسى ، وانطوى عليه ضميرى ، وانعقد عليه قلبى ، وإنى لأتعبد الله تعالى وحده بكل ماجاء فيه علانيتى وسرى ، أقوله أمام الخلق ، وفى خلوتى مع الحق ، وأصل هذا الكتاب فصول من كتاب كبير أسميته « الشيخ والأمير » ، وهو سفر يناهز الألف صفحة ، ولما كان لاصبر للقارئ اليوم على مثل هذه المطولات نصحنى بعض الأساتذة والزملاء بتقسيمه إلى عدة كتب ، تيسيرا على القارئ ، وتشجيعا للطالب ، فأخرجت هذا الكتاب من المؤلف الأصلى وقدمته للقارئ ، فى هذا الثوب ، ليكون الجزء الأول من هذه السلسلة ، على أن تتبعه أجزاء بإذن الله تعالى ، ولاعتب علي من خالفنى فى مضمون هذا الكتاب ولا تثريب ، مادام الحكم بيننا القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم هدى العلماء الربانيين من السابقين واللاحقين ، وإنما يلاقى المرء ربه بما عمل وبما اعتقد ، لا بما عمل الآخرون أو اعتقدوه ، و ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ، وأتمثل قول موسى عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ ، وأرجوا الله أن ينادى علينا يوم القيامة :

﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وآخر دعوانا «أن الحمد لله رب العالمين» ...

د / أحمد عبدالرحمن

القاهرة – ربيع الأول ١٤٣٩ هـ/ نوفمبر ٢٠١٧ م

٠١٠٦١٠٤٨٩٩٠

الباب الأول
محاور لفهم القرآن
الإله - الرب - العبادة - الدين

قال الأمير : إن هذه الكلمات الأربعة كانت واضــحة المعانى محددة المفهوم لدى الناس في الجزيرة وقت نزول القرآن حتى أن جميعهم كان يعلم معناها ويفهم مقصــودها ، ومن قبلها منهم إنما فعل ذلك عن علم بما تحمله من معانى وبما تؤدى إليه من تكاليف ، وبما يتطلبه هذا القبول من التزامات ، كذلك من رفضــها فقد رفضــها عن علم وفهم وإدراك لمعانيها ومراميها ، لأنهم جميعا كانوا عربا يعرفون لغة الضــاد بل يتقنون معرفتها .

ثم مع تطاول الأيام وتغير الأحداث أصبحت معانى هذه الكلمات غير واضحة عند الكثير من المسلمين ، فتراهم يرددونها ولايفهمون معانيها ويتمســكون بها ولا يدركون مراميها ، يقولون لا إله إلا الله ، وهم منغمســون في نواقضــها ، إنهم بحاجة إلى تجديد شــهادة أن لا إله إلا الله ، لا لأنهم لايقولونها ولكن لأنهم لايفهمونها ، ولا يدركون معناها ، برغم ترديدهم لها ليل نهار ، وبالتالى فما أكثر من يأتون بنواقضــها ويخرجون منها .

يجب ألا نكتفى من الناس في هذه الأيام بأن ينطقوا بلا إله إلا الله ، بل لابد من اختبارهم حتى نقف على حقيقة مايقصدون بها ، وبعد الوقوف على صحة معتقدهم يمكننا عندها أن نشهد لهم بالإ سلام ونقول حقا أنهم مسلمون ، أما قبل أن نتأكد من صحة معتقدهم فلا وألف لا .

إننا لابد أن نبين للناس معانى هذه المصــطلحات ماذا تعنى كلمة إله ؟ ماهو المقصــود بكلمة رب ؟ ما معنى لفظة الدين ؟ وماهو المفهوم الصحيح للعبادة ؟

يقول المودودى وهو أمير الجماعة الإسلامية في باكستان حول هذا المعنى :

« الإله والرب والدين والعبادة : هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآني وقوامه، والقطب الذي تدور حوله دعوة القرآن فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد والرب الفرد الصمد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا يشاركه في إلوهيته ولا في ربوبيته أحد.

فيجب على الإنسان أن يرضى به إلهًا وأن يتخذه دون سواه ربًا، ويكفر بإلوهية غيره ويجحد ربوبية من سواه، وأن يعبده وحده ، ولا يعبد أحدًا غيره ، ويخلص دينه لله تعالى ، ويرفض كل دين غير دينه سبحا نه، كما ورد في التنزيل : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٩٢] ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤] ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف :١١٠] ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل ٣٦] ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران :٨٣] ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر :١١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران :٥١].

هذه الآي المعدودة إنما سردناها مثالا وأنموذجًا، وإلا فمن قرأ القرآن وتتبع آياته، فإنه يحس لأول وهلة أن كل ما نزل به القرآن الكريم من الهدي والإرشاد لا يدور إلا حول هذه المصطلحات الأربعة، وليس موضوع الكتاب – القرآن – وفكرته الأساسية إلا: أن الله هو الرب والإله. وأنه لا رب ولا إله إلا هو. فإياه ينبغي أن يعبد الإنسان. وله وحده ينبغي أن يخلص الدين.».

ثم يقول المودودى موضحا أهمية هذه المصطلحات الأربعة :

« ومن الظاهر البين أنه لابد لمن أراد أن يدرس القرآن ويسبر غور معانيه ، أن يتفهم المعاني الصحيحة لكل من هذه الكلمات الأربع ويتلقى مفهومها الكامل الشامل ، فإذا كان الإنسان لا يعرف ما الإله، وما معنى الرب، وما العبادة، وما تطلق عليه كلمة الدين ، فلا جرم أن القرآن كله سيعود في نظره كلامًا مهملا لا يفهم من معانيه شيء ، فلا يقدر أن يعرف حقيقة التوحيد، أو يتفطن إلى ماهية الشرك ، ولا يستطيع أن يخص عبادته بالله سبحانه ، أويخلص دينه له .وكذلك إذا كان مفهوم تلك المصطلحات غامضًا متشابهًا في ذهن الرجل ، وكانت معرفته بمعانيها ناقصة فلا شك أنه يلتبس عليه كل ما جاء به القرآن من الهدى والإرشاد، وتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة مع كونه مؤمنًا بالقرآن .فإنه لن ينفك يلهج بكلمة لا إله إلا الله ويتخذ مع ذلك آلهة متعددة من دون الله ، ولن يبرح يعلن أنه لا رب إلا الله ثم يكون مطيعًا لأرباب من دون الله في واقع الأمر ، إنه يجهر بكل صدق وإخلاص بأنه لا يعبد إلا الله تعالى ولا يخضع إلا له، ولكنه مع ذلك يكون عاكفًا على عبادة آلهة كثيرة من دون الله، وكذلك يصرح بكل شدة وقوة أنه في حظيرة دين الله وكنفه ، وإن قام أحد يعزوه إلى دين آخر غير الإسلام هجم عليه وناصبه الحرب؛ ولكنه

يبقى مع ذلك متعلقًا بأذيال متعددة، ولا شك أنه لا يدعو أحدًا غير الله تعالى ولا يسميه بالإله أو الرب بلسانه، لكن تكون له آلهة كثيرة وأرباب متعددة من حيث المعا ني التي وضعت لها هاتان الكلمتان، والمسكين لا يشعر أ صلا أنه قد أ شرك بالله آلهة وأربابًا أخرى، وإن نبهته إلى أنه عابد لغير الله ومقترفٌ للشرك في الدين، لانقض عليك يخمش وجهك، إلا أنه يكون عابدًا لغير الله حقًا، وداخلاً في غير دينه بدون ريب من حيث مغزى (العبادة و الدين) ، وهو لا يدري مع كل ذلك أن الأعمال التي يرتكبها هي في حقيقة الأمر عبادة لغير الله ، وأن الحالة التي قد سقط فيها هي نفس الأمر دين ما أنزل الله به من سلطان» .

ويوضح المودودى السبب الحقيقي لهذا الفهم الخاطئ فيقول :

« يدلنا النظر في عصر الجاهلية وما تبعه من عصور الإسلام أنه لما أنزل القرآن في العرب وعرض على الناطقين بالضاد كان حينئذ يعرف كل امرئٍ منهم ما معنى الإله ، وما المراد بالرب ، لأن كلمتي (الإله و الرب) كانتا مستعملتين في كلامهم منذ قبل ، وكانوا يحيطون علمًا بجميع المعاني التي تطلقان عليها، ومن ثم إذا قيل لهم :لا اله إلا الله ولا رب سواه ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته ، أدركوا ما تدعوا إليه تمامًا، وتبين لهم من غير ما لبس ولا إبهام أي شيء هو الذي قد نفاه القائل ، ومنع غير الله أن يو صف به ؛ وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى، فالذين كفروا إنما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعي عليه كفره بإلوهية غير الله وربوبيته، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيدة من الأخذ به أو الانسلاخ عنه ، وكذلك كانت كلمتا (العبادة و الدين) شائعتين في لغتهم وكانوا يعلمون ما البعد، وما الحال التي بعبر عنها بالعبودية ، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم العبادة ، وما مغزى الدين ، وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة؟ ومن ثم لما قيل لهم : ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وادخلوا في دين الله منقطعين عن الأديان كلها ، ما أخطأوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن ، وما إن قرعت كلماتها أسماعهم حتى تبينوا أي نوع من التغيير في نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة الصحيحة لجميع تلك الكلمات، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن، ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصليةحتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع - الإله والرب والدين والعبادة - عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معان ضيقة محدودة؛ بمدلولات غامضة مبهمة .وذلك لسببين اثنين:

الأول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة،

والثاني : أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشؤوا فيه، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات الإله (و) الرب (و) العبادة (و) الدين ما كان شائعًا في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن . ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون في العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن في معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعاني التي فهمها المتأخرون من المسلمين بدلا من معانيها اللغوية الأصلية .ودونك من ذلك أمثلة: –

إن كلمة الإله جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان . وكلمة الرب جعلوها مترادفة مع الذي يربي وينشئ ، وللذات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم ، وكلمة العبادة حددوها في معاني التأله والتنسك والخضوع والصلاة بين يدي الله ، وكلمة الدين جعلوها نظيرًا لكلمة النحلة ، وكلمة الطاغوت فسروها بالصنم أو الشيطان.

فكانت النتيجة أن تعذر على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي والمقصد الجوهري من دعوة القرآن فإذا دعاهم القرآن ألا يتخذوا من دون الله إلهًا ، ظنوا أنهم وّفوا مطالبة القرآن حقها لما تركوا الأصنام واعتزلوا الأوثان؛ والحال أنهم لا يزالون متشبثين بكل ما يسعه ويحيط به مفهوم الإله ما عدا الأوثان والأصنام، وهم لا يشعرون أنهم بعملهم ذلك قد اتخذوا غير الله إلهاً ، وإذا ناداهم القرآن أن الله تعالى هو الرب فلا تتخذوا من دونه ربًا، قالوا ها نحن أولاء لا نعتقد أحدًا من دون الله مربيًا لنا ومتعهدًا لأمرنا، وبذلك قد كملت عقيدتنا في باب التوحيد، والواقع أنه قد أذعن أكثرهم لربوبية غير الله من حيث المعاني الأخرى التي تطلق عليها كلمة الرب غير هذا المعنى– المربي - ، وإذا خاطبهم القرآن أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، قالوا : لا نعبد الأوثان، ونبغض الشيطان ونلعنه ولا نخشع إلا لله، فقد امتثلنا هذا الأمر القرآني أيضًا امتثالاً ، والحال أنهم لا يزالون متمسكين بأذيال الطواغيت الأخرى غير الأصنام المنحوتة من الأحجار، وقد خصوا سائر ضروب العبادة – اللهم إلا التأله -لغير الله، وقل مثل ذلك في (الدين) فإنه لا يفهم الناس من معنى إخلاص الدين لله تعالى غير أن ينتحل المرء ما يسمونه الديانة الإسلامية ، وألا يبقى في ملة الهنادك أو اليهود أو النصارى ، ومن هنا يزعم كل من هو معدود من أهل الديانة الإسلامية أنه قد أخلص دينه لله، والحق أن أغلبيتهم ممن لم يخلصوا دينهم لله تعالى من حيث المعاني الواسعة التي تشتمل عليها كلمة الدين ».

أما عن نتائج هذا الفهم الخاطئ لتلك المصطلحات فيقول المودودى وغيره :

« من الحق الذي لا مراء فيه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل ، وذلك من أكبر الأسباب التي قد تطرق لأجلها الوهن والضعف إلى عقائدهم وأعمالهم على رغم قبولهم دين الإسلام وكونهم في عداد المسلمين ، ومن أجل ذلك كله يجدر بنا أن نفصل معاني تلك المصطلحات الأربعة ونشرحها شرحًا كاملاً ، ليتبين غرض القرآن الحقيقي وتعاليمه الأساسية....». المودودى – المصطلحات الأربعة .

هكذا تكلم الرجل موضحا أن معانى هذه الكلمات قد غابت عن الأمة هذه الأيام ، وأن عرب الجاهلية كانوا أعرف بمعانيها من مسلمة اليوم ، وأن معانى ومحاور القرآن الأساسية قد غابت عن الناس بسبب جهلهم بمفهوم تلك المصطلحات ، التى يجب بيان وتجلية معانيها الكاملة الصحيحة.

لقد أكثر القطبان « سيد ومحمد » الكلام حول نفس المعنى فيقول سيد : «....فقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى كلمة اله ،ومعنى لا إله إلا الله ،...... ولم يكن يغيب عن العرب – وهم يعرفون لغتهم جيدا المدلول الحقيقى لدعوة لا إله إلا الله ،- ماذا تعنى هذه الدعوة بالنسبة لأو ضاعهم وريا ساتهم و سلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة – أو هذه الثورة – ذلك الاستقبال العنيف وحاربوها هذه الحرب التى يعرفها الخاص والعام » . معالم في الطريق .

... ويقول الأستاذ محمد قطب في كتابه التربية الإسلامية ج ٢ ما نصه : « لقد كان الجهد الذى بذله الرسول ﷺ مع المشركين في مكة يؤيده الوحى – منصبا كله على إقناعهم بأنه لا إله إلا الله ، ولكنه لم يبذل جهدا على الإطلاق في إقناعهم بعد أن آمنوا بتحكيم شريعة الله ، ولا بأن تحكيم شريعة الله هو مقتضى الإيمان بلا إله إلا الله ، لأن هذه كما قلنا كانت بديهية في حسهم لاتحتاج إلى بيان ، وكذلك لم يبذل جهدا في إقناع المنافقين بأن التحاكم إلى شريعة الله هو مقتضى لا إله إلا الله ، إنما كان يبتدأهم ليكشفهم ....أما هذه الأجيال القائمة التى تربت في ظل المخطط الصليبى الصهيونى لمحاربة الإسلام فهى في حاجة إلى جهد ضخم لا ستيعاب هذه الحقيقة التى لم يكن المسلمون بحاجة فيها لكلمة واحدة خلال القرون ،...» ويقول أيضا : « لقد عملت ظروف كثيرة في القرنين الأخيرين خاصة ... على تجهيل المسلمين بحقيقة لا إله إلا الله ، وفصلها كاملا عن قضية الحكم بما أنزل الله ، لأن المخططين كانوا يعتزمون قتل الإسلام بتنحيته تدريجيا عن حكم الحياة الواقعية للناس ....، والحادث الآن في الأجيال القائمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقى

للا إله إلا الله » . هكذا يؤكد محمد قطب ما أكده المودودى ، وما أكده أخوه سيد من أن العرب عند نزول القرآن فيهم : كانوا يعلمون جيدا معنى لا إله إلا الله ، بل ويدركون مقتضياتها ، حتى حدث التجهيل والانحراف الذى هو جاهلية أ شد من الجاهلية الأولى ، تلك الحالة التى يحياها المسلمون اليوم من الجهل بلا إله إلا الله . وبناءا على هذا يقسم محمد قطب في واقعنا المعاصر الناس إلى ثلاثة أقسام فيقول « أنه لايمكن في الحقيقة إصدار حكم واحد يشمل المجتمع كله فالناس في هذا المجتمع فئات كثيرة ، منهم كما قلنا كافرون بلا شبهة ......ومنهم مسلمون بلا شبهة ....ومنهم كتلة كبيرة غير متميزة السمات لاتتخذ موقفا حاسما لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ....» .

هكذا أجمل الأمير حديثه عن هذه المصطلحات الأربعة كيف كانت واضحة ، ماذا أصابها من تحريف وتجهيل في أذهان وعقول وقلوب الأمة على الرغم من أنها هى المدخل لفهم دعوة القرآن ، وهى المحور الذى تدور حوله رسالته ، والقطب الذى تقوم عليه دعوة الإسلام ، ثم أراد أن يشرح معانى هذه المصطلحات كلا على حدة ، لكن :

استأذن الشيخ الأمير في الحديث قبل أن يشرع في الشرح فقال :

أولا : لقد أحسنت عرض فكرتك ، وأبدعت في سرد دعوتك ، مستشهدا لها بكلام الكتاب ونصوص الدعاة ، لكن كما علمنا وتعلمنا أن ليس قولا معصوما الا نصوص الوحيين ، وليس رأيا حاز الهداية بيقين سوى إجماع المؤمنين ، ولذلك يقول القرآن الكريم ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ .، ويقول الرسول ﷺ في الحديث الوارد بالصحيحين « لن تجتمع أمتى إلا على هدى » ، ويقول القرآن مزكيا حال جماعة الصحابة ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ ، ويقول داعيا الناس للاقتداء بهم ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ [البقرة] – ، وقال سبحانه : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء] ، – فلابد من الرجوع إلى نصوص الوحى المعصومة ، والوقوف على تفسيراتها وتطبيقاتها من حال الأمة في زمانها الأول ، زمن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، ومن تبعهم بإحسان ، وبذلك تتجلى المعانى وتنضبط المفاهيم ، وتتحرر لدينا المصطلحات .

ثانيا : أما قولك : « يدلنا النظر في ع صر الجاهلية وما تبعه من ع صور الإ سلام أنه لما أنزل القرآن في العرب وعرض على الناطقين بالضاد كان حينئذ يعرف كل امرئٍ منهم ما معنى الإله، وما المراد با الرب ، لأن كلمتي – الإله (و) الرب – كانتا مستعملتين في كلامهم منذ قبل، وكانوا يحيطون علمًا بجميع المعاني التي تطلقان عليها .ومن ثم إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ولا رب سواه ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته، أدركوا ما تدعوا إليه تمامًا وتبين لهم من غير مالبس ولا إبهام أي شيء هو الذي قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به؛ وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى، فالذين كفروا إنما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعي عليه كفره بإلوهية غير الله وربوبيته، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيدة الأخذ به أو الانسلاخ عنه. وكذلك كانت كلمتا العبادة (و) الدين شائعتين في لغتهم وكانوا يعلمون ما البعد، وما الحال التي بعبر عنها بالعبودية، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم العبادة وما مغزى الدين وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة؟ ومن ثم لما قيل لهم ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وادخلوا في دين الله منقطعين عن الأديان كلها ما أخطأوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن .وما إن قرعت كلماتها أسماعهم حتى تبينوا أي نوع من التغييرفي نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة؟ » ، فهذا مالا نسلم لك به ولنا عليه عدة ملاحظات نذكرها على النحو التالى :

الملاحظة الأولى : هذا الكلام غير صحيح فى ذاته وذلك لعدة أمور :

١– إن القائلين بهذا الافتراض لم يدللوا على صحته بنص ثابت لا من القرآن ولا من السنة ، ولانقلوا عليه إجماعا بل ولا رأى فقيه أو خبير بتلك المسائل ، إنما هو مجرد افتراض فرضوه يحتاج لإثباته الحجة والدليل ، وهذا مالم يقدمه أصحاب هذا القول ، والقرآن الكريم يقول: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

٢– إن الذين كانوا بالحجاز والجزيرة فى هذا الوقت لم يكونوا جميعهم من العرب الخلص ، بل كان منهم م ستعربين وأرقاء وم ستجلبين من نواحى شتى ، كان فيهم الروم والفرس والحبش ، وبلا شك فهم جميعا لم يكونوا يتقنون لغة العرب ، و قد تو جه الرسول الكريم بدعو ته إليهم جميعا ، بل لقد بين القرآن أنهم كانوا يلحنون ويلحدون فى ألفاظ القرآن والعربية ، قال تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ ، وقالوا ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ ﴾، وكلنا يعرف بلالا و صهيبا و سلمان وغيرهم من غير العرب الذين تواجدوا بالجزيرة وقت نزول الوحى وبدء الرسالة ..

٣– من المؤكد الذى لامرية فيه أن العرب الخلص أنفسهم لم يكونوا على درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة والفهم لمعانى ومصطلحات العربية ، فضلا عن فهمهم معانى ومصطلحات القر آن ، بل كان فيهم

٤- السفيه والأبله والأغتر ، ومن لاعلم له بشيء ولا دراية ، فكيف نقول بأن كل واحد منهم كان يعرف ويفهم لغة الضاد ومعانى ومقاصد القرآن ؟ هذا تمحل يناقض العقل فضلا عن مخالفته الواقع كما نرى

٥- قولك « كل أحد منهم كان يعرف أو يفهم معانى ومقاصد القرآن» ، من أين لك بهذا الحصر الذى عبرت عنه بكلمة كل ؟ فمن الذى قام بحصرهم وإحصائهم ، ووقف على حقيقة كل فرد منهم ليجزم بهذا الجزم ؟ وهل هذا الذى أحصاهم ووقف على حقيقة معرفتهم وفهمهم كان هو نفسه محيطا بمعانى العربية، ومدركا لكافة ألفاظ ومقاصد القرآن حتى يعطيهم شهادة خبرة بهذا الفهم وتلك المعرفة ؟ أم أنه شهد لهم بحسب علمه وعلى قدر معرفته ، فيظل قوله هذا مجرد ظن وتخمين ؟

٦- إن الشيوع مهما بلغ واشتد معناه لايصل أبدا إلى درجة القطع بأن كل واحد منهم كان محيطا وعارفا بمعانى اللغة وبمقاصد القرآن ومصطلحاته ، وإنما هذه الأحكام تبنى على الأعم الأغلب ، وليست تعنى تمام الحصر وشموله حتى يقال فيها « كل واحد كان يعلم ».

٧- لقد ثبت من خلال واقع الصحابة ، وفى حضرة النبى ﷺ مايخالف هذا الذى تقوله ، حيث جهل العديد من العرب بل من الصحابة بعض المعانى العربية والمصطلحات القرآنية ، وتصرفوا على خلاف مقاصد القرآن ومفهوم الدين الصحيح، بل ومفهوم اللغة التى تزعم أنهم جميعا كانوا خبيرين بها . فهذا عدى بن حاتم - وهو من هو- يجهل معنى العبادة حتى يبينها له رسول الله ﷺ ، ففى الحديث الحسن عند الترمذى أنه دخل على النبى ﷺ وفى عنقه صليب ، والرسول ﷺ يقرأ قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾- التوبة - فانتفض عدى ، وقال :

يارسول الله : ما عبدناهم ، فقال له النبى ﷺ : « ألم يحلوا لكم الحرام فتستحلونه ، ويحرموا عليكم الحلال فتحرمونه ؟» قال بلى ، قال ﷺ « فتلك عبادتهم »، فهذا عدى وكان من أشهر وأشرف العرب جهل معنى العبادة والربوبية، ولقد اورد ابن كثير والقرطبى وابن حزم ، و الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتاب التوحيد، و الشاطبى فى كتابه الاعتصام عن أبى واقد الليثى ﷺ قال : خرجنا مع ر سول الله ﷺ فى سفر قِبَلَ خيبر ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط ، فقلنا يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال ﷺ : الله أكبر، كما قالت بنو إسرائيل ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾، لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لودخلوا فى جحر ضب لاتبعتموهم ، قلنا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ .- فهؤلاء جمع من الصحابة وبمحضر من النبى ﷺ جهلوا معنى قولهم : « اجعل لنا ذات أنواط » ، كما جهلوا سنن من كان قبلهم حتى سألوا عنها

قائلين : « اليهود والنصارى » ؟ فكيف يقال بأن كل واحد منهم كان يعرف معانى العربية ومصطلحات القرآن ؟ وقد روى ابن الأنبارى عن ابن عباس ﷺ قال : « ماكنت أدرى مافاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال احدهما : انا فطرتها ، أنا ابتدأتها » . هل يخفى مثل هذا المعنى على ابن عباس ثم يقال « لقد كان كل واحد منهم يعلم ويفهم اللغة والقرآن ؟ ، روى البخاري في صحيحه (٤٤٩٥) بإسناده إلى هشام بن عروة، عن أبيه أنَّه قال: ((قلت لعائشة زوج النَّبيِّ ﷺ وأنا يومئذ حديث السنِّ: أرأيتِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾، فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوَّف بهما، فقالت عائشة: كلاَّ! لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما، إنَّما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يُهلُّون لِمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرَّجون أن يطوَّفوا بين الصفا والمروة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾.

وعروة بن الزبير من خيار التابعين، وهو أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة في عصر التابعين، قد مهَّد لعُذره في خطئه في الفهم بكونه في ذلك الوقت الذي سأل فيه حديثَ السنِّ، وهو واضحٌ في أنَّ حداثةَ السنِّ مظنَّةٌ سوء الفهم .

نكتفى بهذا الذى ذكرنا، ولو ذهبنا نستقصى الحالات والمواقف التى جهل فيها الكثير من العرب ، والعديد من الصحابة بعضا من معانى اللغة العربية ، والعديد من مصطلحات القرآن لعجزنا عن حصرها، ويكفى أى منصف الرجوع إلى كتب التفسير والفقه ومعاجم اللغة ليقف على حقيقة ماذكرنا والحمد لله .

الملاحظة الثانية : هذا الذى ذكرت من كون الجميع كانوا عالمين وعارفين لو صح هذا الافتراض، وهو لايصح يقينا لما كان فيه حجة للقائلين به ، وتوضيح المسألة على هذا النحو :

أولا : هذه الفهوم التى كانت سائدة عند العرب وقت نزول القرآن ، وتلقوا مصطلحاته على أساسها من اين استقوها ؟ ومن أين تعلموها ؟ أليسوا قد استقوها وتعلموها من المجتمع الجاهلى ؟ الذى جاء الإسلام – على حد قولكم – ليعلن عليه الانقلاب والثورة فى معتقداته ، ومفاهيمه ، وتصوراته، وأخلاقه، وكل شئون حياته ، فكيف نجعل هذه المفاهيم ، حكما علينا فى محاولاتنا لفهم معانى ومقاصد القرآن، دون الالتفات إلى مايعنيه المصطلح الشرعى ؟ ، كيف نقف عندها فلا يزاد عليها ولاينقص منها ؟ وكيف لانلتفت للاعتبارات القرآنية وكيف نحاكم القرآن إليها وهو أصل العربية وصحيحها وضابطها ؟.كيف نهمل المعانى الشرعية ، ونقدم عليها المعانى اللغوية التى تعارف عليها القوم الذين لايبعد عليهم الخطأ والغفلة ؟

ثانيا : هل جاء القرآن موافقا ومقرا لكل مفاهيم الجاهلية ؟ أم أنه جاء بمفهوم محدد ومقصد متميز سواءا وافق فى ذلك مفاهيم العرب قبله أم خالفها ؟ إن قلتم جاء الإسـلام موافقا لكل مفاهيم وأعراف الجاهلية سـألناكم فلماذا جاء مادام سـيقر كل ماعندهم ؟، فضـلا أنكم بجوابكم هذا قد خالفتم مذهبكم الداعى إلى الثورة على كل شـىء جاهلى ، وقررتم بأن هذا هو الإسـلام ، ومما لاشـك فيه أن القرآن جاء بمفهوم متميز مستقل ، وتعامل مع مفاهيم وأعراف العرب بطرق عديدة ، لقد وجد القرآن لدى العرب وقت نزوله مفاهيم وقيما صـحيحة فأقرها ونماها ، وصـادف مفاهيم وأعرافا ناقصـة فكملها وجلاها ، وواجه مفاهيم ضـالة وخاطئة فحاربها وألغاها ، وكانت هناك مفاهيم بها شـىء من الانحراف فقومها وهداها ، ونزل القرآن يقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء] .

لقد نزل القرآن ومفهوم الزواج عند العرب قد شـابه وداخله الكثير من الانحراف ، وكانت صـور متنوعة تحدد علاقة الرجل بالمرأة ، فألغى كل تلك الصـور، وأبقى صـورة واحدة ، هى نكاح الناس اليوم من المهر والصداق والبناء بعد ذلك .

كما نزل القرآن والخمر من مفاخر ومآثر العرب ، وكانوا ينشدون فيها الأ شعار ، فأعلن الحرب على هذا المفهوم، وألغاه تماما بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة]، ونزل القرآن ونصرة العصبية مفهوم شائع وعرف ذائع يتنادون به « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » ، فقومه الإسلام ، ووضح الرسول ﷺ كيف ننصره ظالما بقوله : « أن تأخذ على يديه فتمنعه عن ظلمه فذاك نصرك له » .

وجاء القرآن ومفهوم الصلاة عند العرب يعنى الصلة والدعاء ، فخصه فى الشرع بأعمال مخصوصة بنية مخصوصة ، هى صلاة المسلمين اليوم ، فمن أقام العلاقات مع الآخرين وتواصل معهم ، لانقول فى الإسلام أنه قد صلى ، ومن دعا و سأل لانقول بأنه صلى بالمعنى المقصود فى الشرع .إنما الصلاة فى الإ سلام أعمال وأقوال مخصوصة بنية مخصوصة .

لقد نزل القرآن والعرب يعظمون البيت ، ويحجون إليه، لكنهم يطوفون به عراة، يجتمع فى الموسـم المشـركون والأحناف ، ويشـهده كذلك المسـلمون الجدد، فألغى حج المشـركين ، ومنع طواف العراة ، وأبقى على الحج شعيرة للمسلمين الموحدين ، وقال ﷺ خذوا عنى مناسككم » ..

هكذا جاء الإسلام وتعامل مع مفاهيم وأعراف وعادات الجاهلية ، فعلى أى أساس تقولون : بأن العرب حال نزول القرآن كانوا يفهمون ويدركون مقاصد ومعانى التنزيل ، أو أنهم كانوا أقوم قيلا منا ؟.

نخلص مما سبق بحقيقتين الأولى : أن العرب لم يكونوا كلهم عارفين بمقاصد ومصطلحات القرآن، فضلا عن كون كل واحد منهم كان عارفا بهذه المصطلحات، ومحيطا بتلك اللغة .

الثانية : هذه المصطلحات أو اللغة التى كانوا يفهمونها ليست بذاتها صالحة لتكون حجة على تفسير وفهم القرآن إلا ما وافق عليه القرآن وأقره ، أو سكت عنه حيث لا يتعارض معه ، أما ما رفضه القرآن أو عدل فيه أو صححه فليس حجة فى فهم مصطلحات هذا الدين ولا الوقوف على مقاصده ،لأن القرآن لم يعتبره ، بل ربما جاء بخلافه فكيف نعتبره نحن ؟ ، والرسول ﷺ يقول : « ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع » ..

ثم قال الشيخ : أما الملاحظة الثالثة فتدور حول قولك أيها الأمير : « ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصلية حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معان ضيقة محدودة ؛ بمدلولات غامضة مبهمة . وذلك لسببين اثنين:

الأول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة،

والثاني : أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات الإله (و)الرب (و) العبادة (و) الدين ما كان شائعًا في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن. ...... فكانت النتيجة أن تعذر على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي والمقصد الجوهري من دعوة القرآن. .....الخ.

فلنا كذلك معه وقفات: -

الأولى : هذا القول كسابقه افتراض بلاحجة ، وقول مرسل بغير دليل ، فلا يعول عليه ولايلتفت إليه في تقرير أحكام للأمة أو عليها .

الثانية : هل من المعقول أو المقبول القول بأن العرب وهم قبائل شتى متفرقة ومختلفة ومتناحرة ، لكل منها لهجتها ، لاتجمعهم رئاسة واحدة ، ولا معتقدات موحدة ، وكانوا أمة أمية بنص القرآن ، قل من يعرف فيهم الكتابة والقراءة ، ليس لهم كتاب ، ولا إحاطة لهم بعلم، هل من المنطق القول بأنهم كانوا أكثر علما

باللغة قبل ووقت نزول القرآن منهم بعد نزوله ؟ فلماذا أنز ل القرآن إذن مادامت ستضيق معارفهم وتنحسرأ وتنكمش المفاهيم لديهم بعد نزوله ؟ كيف يكون معنى - الإله والرب والدين والعبادة - واضحا عندهم قبل نزول القرآن وحال نزوله ، ثم بعد ذلك تختفى هذه المعانى ، أو تضيق عن كامل مفاهيمها ؟ كيف بعدما اشتمل القرآن على مئات الآيات التى توضح هذه المفاهيم، وتجليها بأجلى بيان ؟ كيف نقول بأن المسلمين فيما بعد العصر الزاهر صاروا أقل علما بمعانى القرآن من العرب في الجاهلية ؟ وها هى الآيات التى تتعرض لمفاهيم الألوهية والربوبية والدين والعبادة ، يزخر بها القرآن ، ويكفينا أن نفتح المصحف على سورة الأنعام أو الروم أو النمل أو القصص ، أو العنكبوت ، أو لقمان ، أو الرعد ، أوالرحمن أو أى سورة في القرآن ، لنرى هل يحتاج المرء بعد ذلك إلى بيان ؟. فهل كان العرب قبل نزول الوحى أعلم وأعرف باللغة ومعانيها منهم بعد نزوله ؟ ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ .

الثالثة : هذا الكتاب - القرآن - واضح ميسر لالبس فيه ، محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، تنزيل من حكيم حميد .ولو قرأ المرء سورة الإخلاص ، وسورة المعوذتين لاستبان له مقصود القرآن منهما على سبيل الإجمال، وكذلك لو قرأ فاتحة الكتاب ، إنها مسألة لاتحتاج كثير مجهود وإنما عظمة هذا الكتاب أنه ميسر للذكر والفهم ، ولكن : ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ ؟ والقرآن الكريم والسنة المطهرة محفوظان بحفظ الله تعالى ، يكفى أن يسمعه من لايتقن العربية إلا إحدى لهجاتها فيفهمه ، ويلم بمجمل مقاصده ، وتستنير بنوره بصيرته على الإجمال، وان جهل بعد ذلك بعض الفواصل بين الأحكام الواردة فيه . فيرجع فيها إلى أهل الذكر والمتخصصين ، وماعمل المفسرين وعلماء ا لقرآن إلا الجمع والتوفيق بين نصوصه ، وتوضيح لبعض غوامضه ، وذكر لأسباب وتاريخ نزوله، فيتضح بذلك المعنى المقصود للقارئ، وليس في كلامى هذا مدعاة للاستهانة بالقرآن أو الاجتراء عليه ، أو الإزراء على العلماء والمفسرين ، وإنما هو منهاة عن اتهام الأمة بجهل قرآنها حتى يقال بأنها صارت أجهل به من أهل الجاهلية ، أ وأن أبناءها يقولون ما لا يعلمون ، ويرددون ما لا يفهمون، كما يقول أصحابك ، وقد ذكرت لك بعض السور التى توضح ماقلناه بفضل الله تعالى .

قال الشيخ : الملاحظة الرابعة وتدور حول قولك بعدم الإقرار بالإسلام لمن ينطق بالشهادتين هذه الأيام نظرا لتفشى الجهل بمعنى لا إله إلا الله، وكذلك جهل الناس بمدلول هذه المصطلحات الأربعة- الإله – الرب – الدين- والعبادة . فهذا أيضا مما يحتاج إلى بيان وتوضيح نوجزه في الآتى :

أولا : أ حيلك إلى مبحث في كتاب « نظرات في التفكير والتكفير» لمؤلفه دكتور أحمد عبد الرحمن حيث يقول تحت عنوان : الإ سلام يثبت للشخص بمجرد الشهادتين دون زيادة عليهما : « ...أن الله لا يطلب من العبد حتى نحكم بإ سلامه إلا الشّهادتين، فإذا نطق بهما صار مسلمًا.. ثم نطالبه بعد ذلك بتكاليف الإسلام، لكنه أصبح مسلمًا من لحظة نطقه الشّهادتين أو أى كلمة فى معناهما وعلى ذلك أدلة كثيرة ثبتت عن رسول الله ﷺ منها :

١ – حديث معاوية بن الحكم السّلمى ..حين لطم جارية له ، فسألها النّبى ﷺ قائلاً أين الله ؟ قالت : فى السّماء ، فسألها : ومن أنا؟ قالت : أنت رسول الله، فقال لمعاوية: أعتقها فإنها مؤمنة مسلمة ،».

إن الرّسول ﷺ لم يطلب منها أكثر من الشّهادتين ولم يختبرها بأكثر من ذلك، فلما أقرت بهما شهد لها الرّسولﷺ بالإيمان.

٢– حديث عند مسلم وفيه : أن الرّسول خرج فى غزوة فلحقه رجل يريد أن يقاتل معه ، فسأله النّبى : تشهد ألا إله إلا الله وأنى ر سول الل ؟ قال الرّجل لا ، فقال : ارجع فإنى لا أستعين بمشرك .ثم لحقه الرّجل ثانية فطلب الطّلب ذاته وأعاد عليه النّبى السّؤال « تشهد ألا إله إلا الله وأنى ر سول الله» ؟ قال الرّجل : نعم ، فقال له : الحق بإخوانك فذهب الرّجل يجاهد مع المسلمين . لم يطلب منه النّبى أكثر من الشّهادتين كما ترى.

قال الإمام ابن رجب الحنبلى : ومن المعلوم بالضرورة أن النّبى كان يقبل ممن جاءه يريد الدّخول فى الإسلام الشّهادتين فقط ، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلمًا، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال لا إله إلا الله لما رفع عليه السّيف واشتد نكيره عليه . وفى الحديث : «أُمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله .فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإ سلام وحسابهم على الله تعالى ». قال النّووى معلقًا عليه «وفيه صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد ونفسه ولو كان عند السّيف» ، أى : لو رفعت عليه السّيف فنطق بالشّهادتين لم يجزلك قتله ولا أخذ ماله. ، ويوضح ابن تيمية هذه الحقيقة فيقول أيضًا فى ذلك : «وقد علم بالاضطرار من دين الرّسول ، واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًّا، والمباح دمه وماله معصومَ الدّم والمال ..ثم إن كان ذلك من قلبه، أى إن كان صادقًا فى قوله، فقد دخل فى الإيمان، أى فهو مؤمن حقًا ..وإن قال بلسانه دون قلبه، أى لم يكن صادقًا فيها، فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان» .. أى : هو مسلم فى الظّاهر، ولنا ظاهره والله يتولى سريرته، ليس لنا أن نكفّره.

هذه هى شريعة الله لا تطلب من أحد لدخول الإ سلام والحكم له به إلا الـّشهادتين، أما الاختبارات والبدع والخزعبلات التى يقوم بها بعض الجماعات فليســت من الإســلام فى شــيء ، كما أن تكفير المسلمين الذين يصلون ويصومون ويحجون البيت ويقرأون القرآن لمجرد بعض المعاصى والذنوب، أو الاختلاف فى رأى ليس من الإسلام فى شىء.

إن الإ سلام يثبت للـشخص بمجرد إتيانه بالـّشهادتين أو ما فى معناهما، مما يدل على سعة رحمة الله بخلقه وتيـسيره عليهم، والقبول بأقل ما يقدمونه من أعمال ، ولكن أليـست هناك شروط ذكرها العلماء حتى ينتفع الإنسان بكلمة لا إله إلا الله؟ أم أن كل من قال لا إله إلا الله يصير مؤمنًا ينتفع بها؟ أليس معنى ذلك أن الإيمان مجرد كلمة ، وهذا خلاف الـّصحيح من أن الإيمان قول وعمل واعتقاد؟ فكيف نكتفى من الشّخص بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله فقط؟

هذا سؤال حسن ..وللجواب عليه نقول : قد ا شترط العلماء لكلمة لا إله إلا الله شروطًا سبعة حتى تكون صحيحة نافعة لأصحابها تمام النّفع، وهى كالتّالى :

١– العلم بمعناها :أى يعلم أنه لا يستحق أحد أن يُعبَد إلا الله تعالى وحده لا شريك له، قال تعالى لنبيه :﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد:١٩].

٢– اليقين الذى ليس فيه شك :لأن الإيمان يعنى اليقين فإذا وُجد الـّشك زال اليقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾[الحجرات].

٣– القبول :أى يقبلها ولا يردها ولا يرفضها لأن الإسلام يعنى الاستسلام لله وفى الحديث : فإن قَبِلوا منك فَكُفّ عنهم.(البخارى ومسلم)

٤– الانقياد لها : فلا يتمرد عليها ولا يتحرج منها، إذ كيف يقول لا إله إلا الله ثم هو يتبرم بها ويتحرج منها؟.

٥– الـصّدق المنافى للكذب :أى أن يكون صادقًا فى قوله ، يوافق قلبُه لسانَه، قال تعالى :﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾[المائدة:١١٩].

٦– الإخلاص المُنافى للشرك : لأنه كيف يوحد الله وفى الوقت نفسه يشرك معه غيره ، وفى الحديث :« مَن مات يشرك بالله شيئًا دخل النّار».

٧- المحبة :التى تنافى كراهية الإ سلام وكراهية الرّ سول وكراهية المؤمنين بـسبب إيمانهم، فلا بد أن يذوق قلبُه الحُبّ لله وأوليائه ورسالاته، كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٥].

هذه سبعة شروط ، ذكر تها لكَ مختصرةً جدًا، وكلها لها أدلتها الصّحيحة من القرآن والسُّنَّة. ولكن هذه الشّـروط لازمة لقبول الشّـهادة عند الله فى الآخرة، أى ليكون الإيمان صـحيحًا فى الآخرة؛ ليكون الشّخص مؤمنًا حقًا عند الله تعالى، ولا علاقة لها بأحكامنًا فى الدّنيا، وليس لنا أن نختبر النّاس فيها. إننا فى الدّنيا لا سلطان لنا على قلوب النّاس ونواياهم وليس لنا أن نختبرهم لنعرف صدقهم من كذبهم، ولكن نحن لنا الظّاهر والله يتولى السرائر.

من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن مسلم عندنا ..أمّا قلبُه فالله وحده يعلم ما فيه إذا كان صادقًا أو كاذبًا، محبًّا أو كارهًا، عالمًا أو جاهلاً ..هذه كلها لا يعلمها إلا الله .أمّا نحن فلنا الظّاهر فقط . وكما قلنا لقد كان المنافقون يُصلّون مع ر سول الله ، يـشهدون بألـسنتهم وظاهرهم بالإ سلام، ولكنهم يكفرون بقلوبهم وسرائرهم، ولم يعاملهم الرّسول معاملة الكفار، ولا فتَّش وراءهم ولا اختبرهم وإنَّمَا قَبِلَ منهم الظّاهر ، وترك سرائرهم إلى الله تعالى، واعتبرهم أصحابَه، كما فى الصّحيح» : « لا يتحدث النّاس أن محمدًا يقتل أصحابه » . مسلم

أمّا نحن فنرى مَن يفتش عن أســرار النّاس ويتلمس خفاياهم وخطاياهم، بل أحيانًا يجرى لهم الامتحانات والاختبارات حتى يشهد لهم بالإسلام ، إننا بذلك ننسب إلى الإسلام ما ليس منه، ونقول على الله ما لم يقله، ونفعل ما لم يفعله الرّسول ﷺ. .

إن الإسلام يَثْبُت للشخص بمجرد الشّهادتين، وشروط لا إله إلا الله السّبع هذه إِنَّمَا هى شروط لصحة الإيمان عند الله وفى الآخرة .أما فى الدّنيا فليس لنا أن نبحث عنها أو نفتش فيها، كما سبق بيانه«. انتهى من كتاب » نظرات فى التفكير والتكفير»، وأنا هنا أزيدك .

إن الرسول ﷺ وبخ أسامة بن زيد وعنفه عندما قتل رجلا نطق بالشهادتين ظنا منه انه قالها فرارا من القتل ، ورغم وجود هذه الشــبهة نجد النبى ﷺ يعنف حبه وابن حبه ، ويعصــم دم الرجل بمجرد النطق بكلمة التوحيد ،.وهذا الحديث ذكره البخارى فى صحيحه .

وكما عند البخارى أيضـــا عن المقداد بن عمرو أنه قال يا رســـول الله : « أرأيت إن لقيت رجلا من المشركين فاقتتلنا فضرب إحدى يدى بالسيف ، ثم لاذ منى بشجرة فقال آمنت بالله ، أفأقتله يار سول الله ؟ قال لاتقتله ، قال يا ر سول الله إنما ضرب إحدى يدى بالسيف ؟ قال لاتقتله ، فان قتلته فانه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وانك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال ».

وفى الحديث الذى ورد فى الصحيحين أن الرسول ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى » أنظر قوله « عصموا منى دماءهم ...»، وقد انعقد الإجماع أن من يعصم دمه وماله بالشهادتين هو المسلم ، أما غير المسلم فيعصم بالعقود ســـواء عقد أمان أو عقد ذمة . وقد ســـبق نقل ابن تيمية اتفاق العلماء على اعتبار الشـــهادتين كافيتين للحكم لصاحبهما بالإسلام .

ثانيا : من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الر سول ﷺ مر سل للناس كافة ،عربهم وعجمهم، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ ، ومن البدهى أنه لا يتساوى العجمى والعربى فى فهم اللغة ومعرفة معانى الشـــهادتين ، وقد بلغهم جميعا ﷺ ، ولم يســـأل أحدا منهم عن فهمه لكلمة التوحيد وقت إبلاغه، أو مدى معرفته بمعانى الإســـلام ، لكنه بلغهم جميعا ، وقبل منهم جميعا إســـلامهم ، وإلا فخبرنى بالامتحان الذى أجراه ﷺ لبلال الحبشـى، أو لصـهيب الرومى ، أو لسـلمان الفارسـى ، ولم يجره لغيره من العرب الخلص ، مع أن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا من العرب ، ووارد أنهم لم يكونوا يتقنون العربية كأهلها؟

ثالثا : لقد فتح المسلمون بلاد العجم سواء من فارس أو الروم ، وتتابعت فتوحاتهم فى بلاد البربر شمالى إفريقيا، ودخلوا غرب أوربا ، فهل كانت هذه البلدان تعرف تماما معنى «لا إله إلا الله» ؟ أو تفهم مصطلحات القرآن ؟ إن قال أحد نعم فقد كذب ، وان قال لا قلنا له : فكيف قبل منهم المسلمون الإسلام والشهادتين رغم احتمال عدم فهمهم الكامل لمعناهما .

رابعا : القول بعدم الإقرار بإســـلام ناطق الشـــهادتين فى هذه الأيام إنما هو مترتب على أصـــل خاطىء من الاعتقاد بأن معانى الشهادتين، ومصطلحات القرآن لم تعد واضحة ومفهومة لدى الناس، وإنما غابت عنهم ، حتى صـــاروا إلى حالة هم أقل فيها من عرب الجاهلية ، وبالتالى لا اعتبار لشـــهادتهم بالتوحيد ، وقد بينا خطأ هذا الافتراض من قبل ، وأنه مجاف للواقع مجانب للحقيقة ، فلا زالت معانى التوحيد ومفاهيم القرآن واضحة معلومة عند أغلب المسلمين حتى وان جهلوا بعض التفصيلات التى تختلف من شخص لآخر،

ومن مجتمع لآخر، ومن زمان إلى زمان .تحقيقا لقوله سبحانه ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِى عِلۡمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، وكما هو معلوم فمابنى على باطل فهو باطل .

هكذا تكلم الشيخ ثم توجه بسؤاله للأمير الجالس فى صمت ، وقد امتقع لونه، وجعل يبلع ريقه ، وينظر إلى الشيخ فى غضب والشيخ يقول له :

ماهى تلك المعانى وهذه المفاهيم التى غابت عن أمة الإسلام وهى تقرأ كتابها وسنة نبيها ليل نهار ، والتى تفزع إلى العلماء والفقهاء فى كل نازلة ، مما ترتب على غياب هذه المفاهيم جهل الأمة بمعانى التوحيد ومقاصد ومحاور القرآن ، وتلبست بالشرك أو الكفر وهى لاتدرى كما تقول أنت أيها الأمير؟

الفصل الأول
الإله والإلوهية

قال الأمير : إن كثيرا من المفاهيم قد غابت عن الأمة ، ولم تعد معانيها واضــحة فى عقول وقلوب الأجيال ، ليس مفهوما واحدا ولا اثنين ولا ثلاثة مفاهيم، لكننا نبدأ بأمهات هذه المفاهيم ، وكبرى المصطلحات وهى – الإله والرب والدين والعبادة ، هذه الأربعة هى الأســاس ، وعليها يقوم بناء القرآن الكريم ، وهى الأم ومنها تتولد سائر المفاهيم وكافة المعانى ، وهاأنا أعر ضها لك مو ضحا معانيها، ومبينا كيف غابت من الأمة ، م ستدلا على كل مصــطلح منها بمعاجم اللغة وآيات القران الكريم ، لتعلم أيها الشــيخ إن ماقلته ليس اجتهادا منى، وإنما هو قول يؤيده صحيح اللغة ، وصريح القرآن، وأول ما أعرض له مصطلح الإله .

قال الأمير : **التحقيق اللغوي**

مادة كلمة الإله :(الهمزة واللام والهاء، وقد جاء في معاجم اللغة من هذه المادة مايأتي بيانه فيما يلي:

ألهت إلى فلان : سـكنت إليه ، أله الرجل يأله : إذا فزع من أمرٍ نزل به فألهه أي أجاره ، أَلِه الرجلُ إلى الرجل : اتجه إليه لشدة شوقه إليه. ، أله الفصيل : إذا ولع بأمه ، أله آلهة وأُلوهة :عبد ، وقيل الإله مشتق من لاه يليه ليهًا: أي احتجب، ويتبين من التأمل في هذه المعاني المناســبة التي جعلت «أله يأله الهة» تستعمل بمعنى العبادة– أي التأله – الإله بمعنى المعبود:

١- أن أول ما ينشأ في ذهن الإنسان من الحافز على العبادة والتأله يكون مأتاه احتياج المرء وافتقاره ، وما كان الإنسان ليخطر بباله أن يعبد أحدًا ما لم يظن فيه أنه قادرعلى أن يسد خلته، وأن ينصره على النوائب ، ويؤويه عند الآفات، وعلى أن يسكن من روعه في حال القلق والاضطراب.

٢- وكذلك اعتقاد المرء أن أحدًا ما قاض للحاجات ، ومجيب للدعوات ، يستلزم أن يعده أعلى منه منزلة ، وأسمى مكانة ، وألا يعترف بعلوه في المنزلة فحسب ، بل أن يعترف كذلك بعلوه وغلبته في القوة والأيد.

٣- ومن الحق كذلك أن ما تقضى به حاجات المرء غالبًا حسب قانون الأسباب والمسببات في هذه الدنيا ، ويقع جل عمله في قضاء الحاجات تحت سمع المرء وبصره ، وفي حدود لا تخرج من دائرة علمه ، لا ينشئ في نفس المرء شيئًا من النزوع إلى عبادته أبدًا، خذ لذلك مثلا : أن رجلاً يحتاج إلى مال ينفقه في بعض حاجته ، فيأتي رجلاً آخر يطلب منه عملاً أو وظيفة ، فيجيبه الرجل إلى طلبه ويقلده عملاً ، ثم

يأجره على عمله ، فإن الرجل لا يخطر له ببال أصلاً – فضلاً عن أن يعتقد – أن الرجل يستحق العبادة من قبله ، لما علم بل رأى بأ م عينه كل المنهاج الذي بلغ به غايته ، وعرف الطريقة التي اتخذها الرجل لقضاء حاجته ، فإن تصور العبادة لا يمكن أن يخطر ببال المرء إلا إذا كان شخص المعبود وقوته من وراء حجاب الغيب، وكانت مقدرته على قضاء الحوائج تحت أ ستار الخفاء ، من ها هنا قد اختيرت للمعبود كلمة تتضمن معاني الاحتجاب ، والحيرة، والوله، مع اشتمالها على معنى الرفعة والعلو.

٤- ورابع الأربعة أنه من الأمور الطبيعية التي لا مندوحة عنها أن يتجه الإنسان في شوق وولع إلى من يظن فيه أنه قادر على أن يقضي حاجته إذا احتاج، وعلى أن يؤويه إذا نابته النوائب ، ويهدئ أعصابه عند القلق.

فتبين من ذلك كله أن التصورات التي قد أطلقت من أجلها كلمة الإله على المعبود هي : قضاء الحاجة ، والإجارة ، والتهدئة ، والتعالي ، والهيمنة ، وتملك القوى التي يرجى بها أن يكون المعبود قاضيًا للحاجات ، مجيرًا في النوازل ، وأن يكون متواريًا عن الأنظار ، يكاد يكون سرًا من الأسرار لا يدركه الناس ، وأن يفزع إليه الإنسان ويولع به.

تصور الإله عند أهل الجاهلية :

و يكمل الأمير حديثه فيقول : يجمل بنا بعد هذا البحث اللغوي أن ننظر ماذا كانت تصورات العرب والأمم القديمة في باب الإلوهية التي جاء القرآن بإبطالها.

يقول سبحانه وتعالى:

١) ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم :٨١].

٢) ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [يس :٧٤]، يتبين من هاتين الآيتين الكريمتين أن الذين كان يحسبهم أهل الجاهلية آلهة لأنفسهم كانوا يظنون بهم أ نهم أولياؤهم وحماتهم في النوائب والشدائد وأنهم يكونون بمأمن من الخوف والنقض إذا احتموا بجوارهم.

٣) ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود ١٠١].

٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل :٢٠].

٥) ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [القصص :٨٨].

٦) ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [يونس :٦٦]. وتتجلى من هذه الآيات بضعة أمور.

أحدها : أن الذين كان أهل الجاهلية يتخذونهم آلهة لهم كانوا يدعونهم عند الشدائد ويستغيثون بهم.

والثاني : أن آلهتهم أولئك لم يكونوا من الجن أو الملائكة أو الأصنام فحسب بل كانوا كذلك أفرادًا من البشر قد ماتوا من قبل، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ دلالة واضحة .

والثالث : أنهم كانوا يزعمون أن آلهتهم هذه يسمعون دعاءهم ، ويقدرون على نصرهم . ولابد للقارئ في هذا المقام من أن يكون على ذكر من مفهوم الدعاء ، ومن وضعية النصرة التي يرجوها الإنسان من الإله ، فالمرء إذا كان أصابه العطش مثلا فدعا خادمه ، وأمره بإحضار الماء ، أو إذا أصيب بمرض فدعا الطبيب لمداواته ، لا يصح أن يطلق على طلب الرجل للخادم أو للطبيب حكم «الدعاء» ، كذلك ليس من معناه أن الرجل قد اتخذ الخادم أو الطبيب إلهًا له ، وذلك أن كل مافعله الرجل جار على قانون العلل والأسباب ولا يخرج عن دائرة حكمه .ولكنه إذا استغاث بولي أو وثن – وقد أجهده العطش أو المرض– بدلا من أن يدعو الخادم أو الطبيب ، فلا شك أنه دعاه لتفريج الكربة واتخذه إلهاً .لأنه دعا وليًا قد ثوى في قبر يبعد عنه بمئات من الأميال ، فكأنه يراه سميعًا بصيرًا، ويزعم أن له نوعًا من السلطة ، ومما ينبغي أن يلاحظ في هذا المقام أن كلمة الإله جاء استعمالها في القرآن بمعنيين اثنين، أحدهما : المعبود الذي يعبده الناس في الواقع ، حقاً كان ذلك المعبود أم باطلاً ،

وثانيهما : المعبود الذي يستحق في حقيقة الأمر أن يعبد ، وفي هذه الآية : ﴿ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝١٤ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ [الرعد:١٣– ١٥] ، قد استعملت كلمة الإله (في الموضعين منها بهذين المعنيين المختلفين على عالم الأسباب مما يجعله قادرًا على أن يقوم بإبلاغه الماء أو شفائه من المرض ، وكذلك إذا دعا وثنًا في مثل هذه الحال يلتمس منه الماء أو الشفاء ، فكأنه يعتقد أن الوثن حكمه نافذ على الماء أو الصحة أو المرض، مما يقدر به أن يتصرف في الأسباب لقضاء حاجته تصرفًا غيبيًا خارجًا عن قوانين الطبيعة

.

يقول الأمير : و صفوة القول أن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرع إليه هو لا جرم تصـور كونه مالكًا للسـلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة.

٧) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحقاف :٢٧].

٨) ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يس :٢٢].

٩) ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر :٣].

١٠) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس : ١٨].

فيتجلى من هذه الآيات الكريمة أمور عديدة منها :

أن أهل الجاهلية ما كانوا يعتقدون في آلهتهم أن الإلوهية قد توزعت فيما بينهم، فليس فوقهم إله قاهر، بل كان لديهم تصور واضح لإله قاهر كانوا يعبرون عنه بكلمة الله في لغتهم ، وكانت عقيدتهم الحقيقة في شأن سائر الآلهة أن لهم شيئًا من التدخل والنفوذ في إلوهية ذلك الإله الأعلى ، وأن كلمتهم تُتلقى عنده بالقبول وأنه يمكن أن تتحقق أمانينا بواسطتهم ونستدر النفع ونتجنب المضار باستشفاعهم ، ولمثل هذه الظنون كانوا يتخذونهم أيضًا آلهة مع الله تعالى .ومن هنا يتبين أن الإنسان إن اتخذ أحدًا شافعًا له عند الله ثم أصبح يدعوه ويستعين به ويقوم بآداب التبجيل والتعظيم ويقدم له القربات والنذور، فكل ذلك على ما اصطلح عليه أهل الجاهلية اتخاذه إياه إلهًا .

١١) ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١].

١٢) ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ [الأنعام :٨٠].

١٣) ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود :٥٤] ويتضح من هذه الآيات الحكيمة، أن أهل

الجاهلية كانوا يخافون من قبل آلهتهم أنهم إن أ سخطوا آلهتهم على أنفسهم لسبب من الأ سباب أو حرموا عنايتهم بهم وعطفهم عليهم نابتهم نوائب المرض والقحط والنقص في الأنفس والأموال ونزلت بهم نوازل أخرى.

١٤) ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [التوبة :٣١].

١٥) ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان :٤٣].

١٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ ﴾ [الأنعام :١٣٧].

١٧) ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[الشورى :٢١].

وفي الآيات يقف المتأمل على معنى آخر لكلمة الإله يختلف كل الاختلاف عن كل ما تقدم ذكره من معانيها ، فليس ههنا شيء من تصور السلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة ، فالذي اّتخذ إلهًا هواه إما واحد من البشـر ، أو نفس الإنسـان نفسـه ، ولم يتخذ ذلك إلهًا من حيث أن الناس يدعونه أو يعتقدون فيه أنه يضرهم وينفعهم ، أو أنه يستجار به ، بل قد اتخذوه إلهًا من حيث تلقوا أمره شرعًا لهم، وائتمروا بأمره وانتهوا عما نهى عنه ، واتبعوه فيما حلله وحرمه ،. وزعموا أن له الحق في أن يأمر وينهى بنفسه ، وليس فوقه سلطة قاهرة يحتاج إلى الرجوع والاستناد إليها ، فالآية الأولى تبين لنا كيف اتخذت اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابًا وآلهة من دون الله ، كما بين ذلك الحديث النبوي الشـريف فيما رواه الإمام الترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم ﷺ «أنه دخل على ر سول الله صلى الله عليه وآله و سلم وفي عنقه صـليب من ذهب وهو يقرأ هذه الآية، قال، فقلت : إنهم لم يعبدوهم، فقال :بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»..

وأما الآية الثانية فمعناها واضح كل الوضوح، وذلك أن من يتبع هوى النفس ويرى أمره فوق كل أمر فقد اتخذ نفسه إلهًا له في واقع الأمر.

أما الآيتان التاليتان بعدهما فإنه وإن وردت فيهما كلمة الشـركاء (مكان) الإله فالمراد بالشـرك هو الإشراك بالله تعالى في الإلوهية .ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على أن الذين يرون أن ما وضعه رجل أو طائفة من الناس من قانون أو شرعة أو رسم هو قانون شرعي من غير أن يستند إلى أمر من الله تعالى، فهم يشركون ذلك الشارع بالله تعالى في الإلوهية.

ملاك الأمر في باب الإلوهية :

يقول الأمير : إن جميع ما تقدم ذكره من المعاني المختلفة لكلمة الإله يوجد فيما بينها ارتباط منطقي لا يخفى على المتأمل المستبصر . فالذي يتخذ كائنًا ما وليًا له ونصيرًا وكاشفًا عنه السوء ، وقاضيًا لحاجته ومستجيبًا لدعائه وقادرًا على أن ينفعه ويضره ، كل ذلك بالمعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، يكون السبب لاعتقاده ذلك ظنه فيه أن له نوعًا من أنواع السلطة على نظام هذا العالم ، وكذلك من يخاف أحدًا ويتقيه ويرى أن سخطه يجر عليه الضرر ومرضاته تجلب له المنفعة ، لا يكون مصدر اعتقاده ذلك وعمله إلا ما يكون في ذهنه من تصور أن له نوعًا من السلطة على هذا الكون.

ثم إن الذي يدعو غير الله ويفزع إليه في حاجاته بعد إيمانه بالله العلي الأعلى، فلا يبعثه على ذلك إلا اعتقاده فيه أن له شركافي ناحية من نواحي السلطة الإلوهية ، وعلى غرار ذلك من يتخذ حكم أحد من دون الله قانونًا ويتلقى أوامره ونواهيه شريعة متبعة فإنه أيضًا يعترف بسلطته القاهر ة.

فخلا صة القول : أن أ صل الإلوهية وجوهرها هو السلطة سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الإنسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والإذعان .

استدلال القرآن :

يكمل الأمير حديثه حول مفهوم كلمة الإله ، وأن جوهر الإلوهية هو السلطة فيقول : هذا هو تصور السلطة الذي يجعله القرآن الكريم أساسًا يأتي به من البراهين والحجج على إنكار إلوهية غير ا لله ، وإثبات الإلوهية لله تعالى وحده، فالذي يستدل به القرآن في هذا الشأن هو أنه لا يملك جميع السلطات والصلاحيات في السماوات والأرض إلا ا لله ، فالخلق مختص به ، والنعمة كلها بيده ، والأمر له وحده ، والقوة والحول في قبضته ، وكل ما في السماوات والأرض قانت له ، ومطيع لأمره طوعاً وكرهًا، ولا سلطة لأحد سواه ولا ينفذ فيها الحكم لأحد غيره ، وما من أحد دونه يعرف أسرار الخلق والنظم والتدبير، أو يشاركه في صلاحيات حكمه . ومن ثم لا إله في حقيقة الأمر إلا هو، وإذ لم يكن في الحقيقة إله آخر من دون الله ، فكل ما تأتونه من الأفعال معتقدين غيره إلهًا فهو باطل من أ سا سه ، سواء أكان ذلك دعاءكم إياه واستجارتكم له ، أم كان خوفكم إياه ورجاءكم منه ، أم كان اتخاذكم إياه شافعًا لدى الله ، أم كان إطاعتكم له وامتثالكم لأمره ؛ فإن هذه الأواصر والعلاقات التي قد عقدتموها مع غير الله ، يجب أن تكون مختصة بالله سبحانه لأنه هو الذي يملك السلطة دون غيره. وأما الأسلوب الذي يستدل به القرآن الكريم في هذا الباب ، فدونك بيانه في كلامه البليغ المعجز :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٨٤]. ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣] ، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [الأنعام: ٤٦]، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص].

- ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر :٥].

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر :٦].

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل:٦٠] .

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان :٢].

ففي جميع هذه الآيات وغيرها لا تجد إلا فكرة رئيسية واحدة ألا وهي أن كلا من الإلوهية والسلطة تستلزم الأخرى وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح .

فالذي لا سلطة له لا يمكن أن يكون إلهًا ، ولا ينبغي أن يتخذ إلها ، وأما من يملك السلطة فهو الذي يجوز أن يكون إلها ، وهو وحده ينبغي أن يتخذ إلهًا، ذلك لأن جميع حاجات المرء التي تتعلق بالإله أو التي يضطر المرء لأجلها أن يتخذ أحدًا إلهًا له لا يمكن قضاء شيء منها من دون وجود السلطة ، ولذلك لا معنى لإلوهية من لا سلطة له ، فإن ذلك أيضًا مخالف للحقيقة، ومن النفخ في الرماد أن يرجع إليه المرء ، ويرجو منه شيئًا. والأسلوب الذي يستدل به القرآن واضعًا بين يد يه هذه الفكرة الرئيسية ، يمكن القارئ أن يفهم مقدماته ونتائجه حق الفهم بالترتيب الآتي :

١- إن أعمال قضاء الحاجة وكشف الضرر والإجارة والتوفيق والنصر والرقابة والحماية وإجابة الدعوات التي قد تهاونتم بها و صغرتم من شأنها ما هي بأعمال هينة في حقيقة الأمر، بل الحق أن صلتها وثيقة بالقوى والسلطات التي تتولى أمر الخلق والتدبير في هذا الكون ، فإنكم إن تأملتم في المنهاج الذي تقضى به حوائجكم التافهة الحقيرة ، عرفتم أن قضاءها مستحيل من غير أن تتحرك لأجله عوامل لا تحصى في ملكوت الأرض والسماء.

خذوا لذلك مثلا كأسًا من الماء تشربونها أو حبة من القمح تأكلونها فما أدراكم إذ تعمل كل من الشمس والأرض والرياح والبحار قبل أن تتهيأ لكم هذه وتصل إلى أيديكم ، فالحق أنه لا تتطلب إجابة دعائكم وقضاء حاجتكم وما إليها من الشؤون سلطة هينة ، بل يتطلب ذلك سلطة يقتضيها ويستلزمها خلق السماوات والأرض ، وتحريك السيارات ، وتصريف الرياح وإنزال الأمطار ، وبكلمة موجزة يقتضيها ويتطلبها تدبير نظام هذا الكون بأسره .

٢- وهذه السلطة غير قابلة للتجزئة ، فلا يمكن أبدًا أن تكون السلطة في أمر الخلق بيد وفي أمر الرزق بيد أخرى، وأن تكون الشمس مسخرة لهذا وتكون الأرض مذللة لذا ك ، كما لا يمكن أن يكون الإنشاء في يد والمرض والشفاء في يد أخرى ، والموت والحياة بيد ثالثة .فإنه لو كان الأمر كذلك ما أمكن لنظام هذا الكون أن تقوم له قائمة ، فما لابد منه أن تكون جميع السلطات والصلاحيات بيد حاكم واحد يرجع إليه كل ما في السماوات والأر ض ، فإ ن نظام هذا العالم يقتضي أن يكون الأمر كذلك وهو في الواقع كذلك.

٣- وإذ كانت السلطة كلها بيد الحاكم الواحد ولم يكن لأحد غيره نقير منها ولاقطمير، فالإلوهية أيضًا مخصو صة به لا محالة ، وخالصة له دون غيره ولا شريك له فيه فلا يملك أحد من دونه أن يغيثك أو يستجيب دعاءك أو يجيرك أو يكون حاميًا لك ونصيرًا أوليًا ووكيلا ً ، أو يملك لك شيئًا من النفع أو

الضـرر ، إذًا لا إله لكم غير الله بمعنى من تلك المعاني التي قد تخطر ببالكم ، حتى إنه لا يمكن أن يكون أحدً إلهًا لكم بأن له دالة عند حاكم هذا الكون وتتقبل شفاعته لديه ، لمكانه من التقرب عند ه ، كلا بل ليس في وسع أحد أن يتصدى لأمر من أمور حكمه وتدبيره ، ولا يستطيع أحد أن يتدخل في شيء من شؤونه ، وكذلك قبول الشفاعة أو رفضها متوقف على مشيئته وإرادته ، وليس لأحد من القوة والنفوذ ما يجعل شفاعته مقبولة لديه.

٤ - وما يقتضيه توحد السلطة العليا أن يكون جميع ضروب الحكم والأمر راجعة إلى مسيطر قاهر واحد ، و أّ لا ينتقل منه جزء من الحكم إلى غير ه ، فإنه إذا لم يكن الخلق إلا له ولم يكن له شريك فيه ، وإذا كان هو الذي يرزق الناس ولم تكن لأحد من دونه يد في الأمر، إذا كان هو القائم بتدبير نظام هذا الكون وتسيير شؤونه ، ولم يكن له في ذلك شريك ، فما يتطلبه العقل ألاَّ يكون الحكم والأمر والتشريع إلا بيده كذلك ، ولا مبرر لأن يكون أحد شريكًا له في هذه الناحية أيضا ، وكما أّنه من الخطأ أن يكون أحد غيره مجيبًا لدعوة الداعي وقا ضيًا لحاجة المحتاج ، ومجيرًا للمضطر في دائرة ملكوته في السموات والأرض ، فمن الخطأ والباطل كذلك أن يكون أحد غيره حاكمًا مستقلا بنفسه ، وآمرًا مستبداً بحكمه ، وشارعًا مطلق اليد في تشريعه .

إن الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتسخير الشمس والقمر، وتكوير الليل والنهار والقضاء والقدر، والحكم والملك ، والأمر والتشريع ..كل أولئك وجوه مختلفة للسلطة الواحدة ، ومظاهر شتى للحكم الواحد، والحكم والسلطة لا يقبل شيء منهما التجزئة والتقسيم البتة ، فالذي يعتقد أمر كائن ما من دون الله مما يجب إطاعته والإذعان له بغير سلطان من عند الله ، فإنه يأتي من الشرك بمثل ما يأتي به الذي يدعو غير الله ويسـألـه ، وكذلك الذي يدعي أنه مالك الملك ، والمسـيطر القاهر، والحاكم المطلق بالمعاني السـياسـية فإن دعواه هذه كدعوى الإلوهية ممن ينادي بالنا س : «إني وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم»، و يريد بكل ذلك المعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية .

ألم تر أنه بينما جاء في القرآن أن الله تعالى لا شريك له في الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم ، جاء معه أن الله له الحكم وله الملك ليس له شريك في الملك ، مما يدل دلالة واضحة على أن الإلوهية تشتمل على معاني الحكم والملك أيضًا ، وأنه مما يستلزمه توحيد الإله ألا يشرك بالله تعالى في هذه المعاني كذلك ، وقد فصل القول في ذلك أكثر مما تقدم فيما يلي من الآيات : -

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس:١]، وقد صرح القرآن بالأمر بأكثر من كل ما سبق في سورة غافر حيث جاء : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦]، أي يوم يكون الناس قد انقشعت الحجب عنهم، ولا يخفى على الله خافية من أمرهم، ينادي المنادي :لمن الملك اليوم؟ ولا يكون الجواب إلا أن الملك لله الذي غلبت سلطته جميع الخلق، وأحسن ما يفسر هذه الآية ما رواه الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – عن عبد الله بن عمر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله ﷺ يقو ل : هكذا بيده ويحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب نفسه، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا العزيز، أنا الكريم،) فرجف .برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرن به .

هكذا عرض الأمير لمعنى كلمة الإله عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك عرض لمعنى الإله فى القرآن كما يراه ثم قال :

« ننتهى من ذلك أن الإلوهية تعنى الحاكمية ، وأن الإله تعنى الحاكم ، سـواءا بمعنى الحاكم الكونى ، أو الحاكم السياسى .» ، ولقد أوضـح سـيد قطب ذلك قائلا فى معالمه « إن السـمة الأولى المميزة لطبيعة المجتمع المســلم هى أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده فى أمره كله ، هذه العبودية التى تميزها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا ر سول الله ، وتتمثل هذه العبودية فى التصور الاعتقادى ، كما تتمثل فى الشـعائر التعبدية ، كما تتمثل فى الشـرائع القانونية سـواء . فليس عبدا لله وحده من لايعتقد بوحدانية الله سـبحانه ، ...... وليس عبدا لله وحده من يتقدم بالشـعائر التعبدية لأحد غير الله معه أو من دونه .... وليس عبدا لله وحده من يتلقى الشـرائع القانونية من أحد سـوى الله ، عن الطريق الذى بلغنا الله به ، وهو ر سول الله ﷺ . ويؤكد الأ ستاذ محمد قطب ذات المفهوم فيقول فى واقعنا المعا صر : « ..... أن منهج الله ليس هو الذى يحكم حياة الناس ، وأن الأمر يحتاج إلى دعوة الناس إلى الإسـلام من جديد ، لا لأنهم يرفضون فى هذه المرة أن ينطقوا بأفواههم بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، كما كان الناس يرفضون نطقها فى الغربة الأولى ، ولكن لأنهم فى هذه المرة يرفضون المقتضى الرئيسى لـــ«لا إله إلا الله »، وهو تحكيم شريعة الله ، والامتثال لمنهج الله ، وإن كان ألف مليون من المحيط إلى المحيط ينطقون بأفواههم كل يوم لاإله إلا الله محمد رسول الله » .

ثم قال الأمير معقبا بعد ذلك : وبالنظر فى الآيات والنقول السابقة يتبين لنا عدة أمور :

أولا – أن الإله هو الحاكم والملك .

ثانيا : أن الإلوهية والسلطة وجهان لعملة واحدة لاينفك أحدهما عن الآ خر بل كل منهما مستلزم لصاحبه وكلاهما روح للآخر .

ثالثا – أن الحكم بمعنييه الكونى والشرعى لايقبل الشركة ولا التقسيم .

رابعا : أن أخص خصائص الألوهية هى الحاكمية والسلطة، وهما الهدف الأساس من الرسالة ومن الإلوهية .

- سكت الأمير بعدما باح بكل مالديه من من معانى حول م صطلح الإله ، وبرغم حديثه الطويل الذى كان من الممكن اختصاره فى أقل من ذلك بكثير ، إلا أن الشيخ كما علمنا دائما لم يقاطعه ، ولم يظهر ملالة من حديثه ، ولم يبد عزوفا عنه، وهكذا ورثة الأنبياء ، تعلموا من سيدهم ﷺ الذى لم يقاطع متحدثا قط حتى ينتهى ، ولم يعرض عن أحد بوجهه حتى يكون هو الذى ينصرف ، وما صافح أحدا قط فنزع يده حتى ينزع الرجل يده ، فما أشد حاجتنا اليوم لأخلاق النبوة ، وصبر وسعة قلوب العلماء الصادقين تنهد الشيخ وقال : هنيئا لك أيها الأمير، وأشهد بأنك بارع فى عرض فكرتك ، بليغ فى سرد قضيتك ، قادر على تملك قلوب مستمعيك ؟ إنك حقا كذلك ، ولكن لنتذكر ما اتفقنا عليه ألا وهو « أن مرجعنا ومردنا فى الفهم والتفسير والتقرير إنما هو الوحى قرآنا و سنة ، نفهمهما بفهم علماء الأمة من الصحابة والتابعين ، ومن كان على دربهم فى كل عصر ومصر» ، وأبدا لن تضيع الحقائق الإسلامية فى زحمة التنميقات والتزويقات اللغوية ، وإنّ حسن الأداء لايعنى حتما صحة القضية ولا سلامة المنطق الذى عر ضت من خلاله ، فلقد قال ﷺ « فلعل أحدكم ألحن بحجته من أخيه فأقضى له ، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه فإنما أقضى له بقطعة من النار » . ولئن نقلت أيها الأمير عن المودودى فى مصطلحاته الأربعة ، أو عن غيره من الكتاب والمفكرين فإن الحق قديم ، والحق لايعرف بالر جال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله ، وأقوال الر جال يحتج لها ولايحتج بها ، فقول الر جل مهما بلغ لايكون بذا ته دليلا، ولاتكون آراء الر جال حجة على غيرهم ، والا فخبرنى من أعطى هذا الحق لفريق دون آخر ؟ ولماذا لايكون قول الثانى حجة على الأول ؟ و لذلك فقد حسم القرآن هذه القضية كما سبق أن ذكرنا بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ ، ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ .

- والآن لى معك وقفات حول مصطلح الإله ، وكيفية تناولك إياه ، ومارتبت عليه من نتائج وأحكام ، فاسمع منى ، واعقل عنى ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . .

الوقفة الأولى – الله أو الإله :

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره : « الله علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ – الحشر – ، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » ...وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ، ولهذا لايعرف فى كلام العرب له اشتقاق ، وقد نقله القرطبى عن جماعة من العلماء منهم الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى ، وغيرهم ، وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة ، قال الخطابى ألا ترى أنك تقول يا الله ولا تقول يا الرحمن ؟ ، فلولا أنه من أصل الكامة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام ، وقيل إنه مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج :

لله در الغانيات المده سبحن واسترجعن من تألهى

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله من أله يأله الآلهة ، وتألها ، كما روى عن ابن عباس أنه قرأ قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ قال: –

عبادتك ، كان يعبد ولايعبد ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقد استدل بعضهم على كونه مشتقا بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾، ونقل سيبويه أن أصله إلاه ، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة ...مثل الناس أصلها أناس ، وقيل أصل الكلمة لاه ، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه قال الشاعر :

لاه ابن عمك لاأفضلت فى حسب عنى ولا أ نت د يانى فتخزونى

وقال الكسائى والفراء : أصله الإله ، حذفت الهمزة وادغموا اللام الأولى فى الثانية ، كما قال « لكنا هو الله ربى » أى لكن أنا ، وقد قرأها كذلك الحسن ، قال القرطبى ثم قيل هو مشتق من وله ، إذا تحير ، والوله ذهاب العقل ، .... فالله تعالى يحير أولئك فى الفكر فى حقائق صفاته ، فعلى هذا يكون ولاه ، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا فى وشاح أشاح ووسادة أسادة ، وقال الرازى : هو مشتق من ألهت إلى فلان أى سكنت اليه ، فالعقول لاتسكن إلا إلى ذكره ، والأرواح لاتفرح إلا بمعرفته لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره .

قال تعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ، قال : وقيل من لاه يلوه ، إذا احتجب ، وقيل : اشتقاقه من أله الفصيل أولع بأمه ، والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه فى كل الأحوال ، قال : وقيل مشتق من أله الرجل يأله ، إذا فزع من أمر نزل به ، فألهه أى أجاره ، فالمجير لجميع الخلائق هو الله سبحانه ، لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ، وهو المنعم لقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وهو المطعم لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، وهو الموجد لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وقد اختار الرازى أنه اسم غير مشتق البتة ، قال : وهو قول الخليل و سيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء ، ثم أخذ يستند أنه لو كان مشتقا لاشترك فى معناه كثيرون ، و.... أن بقية الأسماء تذكر صفات له ... وحكى الرازى عن بعضهم : أن اسم الله تعالى عبرانى ثم ضعفه ، ثم قال الرازى : واعلم أن الخلائق قسمان ، واصلون إلى ساحل بحر المعرفة ، ومحرومون قد بقوا فى ظلمات الحيرة وتيه الجهالة ، فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم ، وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور ، وفسحة الكبرياء والجلال ، فتاهوا فى ميادين الصمدية ، وبادوا فى عرصة الفردانية فثبت أن الخلائق كلهم والهون فى معرفته ، وروى عن الخليل : لأن الخلق يألهون إليه بالفتح والكسر ، وقيل انه مشتق من الارتفاع ، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع لاها ، وقيل أنه مشتق من أله الرجل إذا تعبد وتأله تنسك ، ...« انتهى كلام الإمام ابن كثير، وقريبا منه ذكره الأصفهانى فى مفردات القرآن .وبالنظر فيما ذكرته أنت أيها الأمير فى تعريف كلمة الإله فى اللغة ، وكذلك ما نقلته لك عن ابن كثير والأصفهانى وغيرهما تتجلى أمامنا عدة فوائد :

الأولى : اختلاف العلماء فى لفظ الجلالة هل هو اسم جامد غير مشتق عن غيره ، أم أنه مشتق من لفظ آخر على فريقين كما ذكرنا .

الثانية : الذين قالوا باشتقاقه اختلفوا فيما بينهم حول مصدره على آراء عدة كما تقدم .

الثالثة : لايوجد فيما ذكرته أنت ، ولافيما ذكرته أنا تعريف واحد عن علماء اللغة يقول بأن كلمة «الله» أو كلمة « الإله» معناها الحاكم ، أو صاحب السلطان، أقول هذا مع معرفتى التامة بأن الله هو الحكم

ويحكم وله الحكم والسلطان والسيادة ، لكن لفظ الجلالة « الله» ، وكذلك كلمة « إله» ليس من معانيها الحاكم ولاذو السلطة . فالاحتجاج باللغة على هذا المعنى غير صحيح ، لأن كلمة «إله» بمعنى حاكم أو ذو سلطان لم ترد فى معاجم اللغة ولا قواميسها ، رغم أن الله هو الحكم وله السلطان الكامل ، لكن اللغة لاتفيد هذا المعنى ، وارجع إلى كل معانى اللغة تجدها جميعها تدور حول التعلق به ، والولع والشوق واللجوء إليه ، وإغاثته لمن يأتيه ، وتأله القلوب له ، وتعبد الإنسان له سبحانه وتعالى ، وقد حارت فى ذاته و صفاته عقولهم ، وا ستراحت بذكره قلوبهم ، وأنه سبحانه سر مكنون ، تعالى عن خلقه ، وعن العقول والظنون ، مما يحمل القلوب على شـدة حبه وتعظيمه ، والاسـتسـلام له ودوام الفزع إليه ، أين كلمة حاكم ؟ أين كلمة سـلطة أو سـلطان ؟ لاوجود لها فى تعريف «الإله لغة » كما رأيت ، قال ابن القيم «واسـم «الله» دال على كونه مألوها معبودا ، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضـوعا ، وفزعا إليه فى الحوائج والنوائب ». انتهى من مدارج السالكين ..

كذا أقوال أهل العلم والتفسير لمعنى كلمة « الإله» لم يذكروا فيها الحاكم ولا الحاكمية - قال ابن عباس :« الله : ذو الإلوهية والمعبودية على خلقه أجمعين ومنه قوله في ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ ويذرك وإلاهتك أي عبادتك ، وهو قول مجاهد أيضا ».أ.هـ تفسير الطبري ١ / ٤١ - ووافق الطبري رحمه الله ابن عباس على ذلك التفسير للفظ الإله فقال: «فالإله : هو المعبود وهو الله سبحانه وتعالى».اهـ - وقال عكرمة عند تفسير قوله تـعـالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ قـال : « أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده مايهواه ويستحسنه، فإذا استحسن شيئا وهويه اتخذه إلها».أ.هـ - وكذا قال فيها ابن جرير : (أفرأيت يا محمد من اتخذ معبوده هواه ، فيعبد ماهوى من شئ دون إله الحق) .أ.هـ ، ومما قاله الإمامان ابن تيمية وابن القيم فى تعريف الإله :

« قال ابن تيمية بأن الإله : (هو المألوه ، والمألوه هو الذي يسـتحق أن يعبد ، وكونه يسـتحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع).اهـ. مجموع الفتاوي ١٠/ ٢٤٩ - وقال رحمه الله : « الإله الذي تألهه القلوب وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليها في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه تطمئن بذكره وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت – لا إله إلا الله – أصدق الكلام ».اهـ [الفتاوى ١٣/ ٢٠١].

وقال رحمه الله : (إذ الإله : هو الذي يؤله فيعبد محبة وإجلالا وإنابة وإجلالا وإكراما ، والرب : هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها) .أ.هـــــ - و قال ابن القيم : (الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالا وإنابة وإكراما وتعظيما وذلا وخضوعا وخوفا ورجاء وتوكلا).اه مدارج

السـالكين - ٣/٤٦٠وقال : الإلهية التي دعت الرسـل أممهم إلى توحيد الرب بها هي العبادة والتأليه ، ومن لوازمها توحيد الربوبية الذي أقر به المشـركون فاحتج الله عليهم به ، فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلوهية) .أ.هـ [إغاثة اللهفان ٢/١٣٥].

هذه بعض أقوال الإمامين وغيرهما فى تفسـير معنى «الإله» ، توضـح بجلاء أنه المسـتحق للعبادة لما فيه من صفات الكمال ونعوت الجلال سبحانه وتعالى ، وليس فيها أن الإله معناها الحاكم ولا صاحب السلطان .

الرابعة – حول قولهم بأنه مشـتق واختلافهم فى مادة اشـتقاقه : يقول العلامة ابن القيم رحمه الله « أظهر الألفاظ لفظ الله ، وقد اختلف الناس فيه أعظم الاختلاف هل هو مشـتق أم لا؟ ..... إن جميع أهل الأرض علمائهم وجهالهم ومن يعرف الا شتقاق ومن لايعرفه وعربهم وعجمهم يعلمون أن الله ا سم لرب العالمين، خالق السموات والأرض ، الذى يحى ويميت ، وهو رب كل شىء ومليكه ، فهم لايختلفون أن هذا الا سم يراد به هذا المسـمى ، وهو أظهر عندهم وأعرف وأشـهر من كل اسـم وضـع لكل مسـمى ، وان كان الناس متنازعين فى اشـتقاقه فليس ذلك بنزاع منهم فى معناه ، إنما هو نزاع فى وجه دلالة اللفظ على ذلك المعنى مع اتفاقهم على أن المعنى واحد ، وهذا القدر لايخرج اللفظ عن افادته للسامع اليقين بمسماه . ....زعم السهيلى وشيخه ابن العربى أن اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يلزمه مادة يشتق منها ، واسم الله قديم والقديم لامادة له فيستحيل الا شتقاق ، ولا ريب أنه ان أريد بالا شتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أ صل آخر فهو باطل ، ولكن الذين قالوا بالاشـتقاق لم يريدوا هذا ولا ألم بقلوبهم ، وإنما أرادوا أنه دال على صـفة الإلهية كسـائر أ سمائه الحسنى ...فهذة الأ سماء مشتقة من مصادرها بلا شك ، وهى قديمة والقديم لامادة له ، فما كان جوابكم عن هذه الأسـماء فهو جواب القائلين باشـتقاق اسـم الله .ثم الجواب عن الجميع أننا لانعنى بالاشـتقاق إلا أنها ملاقية لمصـادرها فى اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من الأصـل ، وتسـمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلا وفرعا ليس معناه أن أحدهما تولد من الأخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة ، ......فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادى ، وإنما هو اشتقاق تلازم سمى المتضمن بالكسر مشتقا، والمتضمن بالفتح مشتقا منه ولامحذور فى ا شتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى .» انتهى من بدائع الفوائد .

الخامسة : الناظر فيما ذكره صاحب هذا الفكر وفى تعليقاته يجده قد وقع فى عدة أخطاء :

١- أنه ساوى بين الأصل ومقتضاه ، أى بين المعنى الأصلى وبين مايقتضيه هذا المعنى ، أو بين المعنى وبين لوازمه ، . وهذا بلا شك خطأ فادح ، فالعلماء قاطبة يفرقون بين الأصل والفرع ، و بين المعنى الأصلى و مقتضاه ،. كما يفرقون بين دلالة المنطوق ودلالة المفهوم فيقدمون الأولى على الثانية .

٢- صاحب هذا الكلام أحل المعنى الاقتضائى محل المعنى الأصلى ، وو ضع المعنى اللزومى مو ضع المعنى الأساسى ، أى أنه جعل الفرع مكان الأصل .

٣- قدم المقتضى كمعنى أساسى ، وجعل المعنى الأصلى فرعا عليه وتابعا له، مما أدى به إلى الانحراف عن مقاصد المصطلح وغاية المفهوم العظمى للألوهية والإله ، فأصبح مقصد القرآن من هذا المصطلح فى ناحية ، و صار ماقصده صاحب هذا الفكر بتقديمه الفرع على الأصل ، واحلاله المقتضى محل الأساس فى ناحية أخرى ، فانحرف بذلك عن بو صلة القرآن ووجهته وان كانت نيته حسنه وقصده فى ذاته صحيحا فى بيان مفهوم الإله أو مصطلح الإلهية ، لكن ليس كل من أراد الحق يدركه ، فلربما ينحرف عن الطريق فيضل عن الهدف ، وتفصيل هذه الثلاثة على النحو التالى :

الأولى : تسويته بين المعنى الأصلى ومقتضاه :

لكى تتضح أمامنا الصورة وتتجلى الحقائق أكثر لابد أن نقف على المعنى الاصطلاحى لكلمة «إله» ، وما هو مدلولها الأساسى ومفهومها الأصلى ، وبالنظر فى كتابات فقهاء وعلماء الإسلام نجد مثلا الإمام ابن تيمية يعرف الإله قائلا : « هو الذى يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ». وقد تقدم كلامه وكذلك كلام ابن القيم الذى فيه: « واسم الله دال على كونه مألوها معبودا ، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا ، وفزعا إليه فى الحوائج والنوائب » ويقول أيضا رحمه الله « فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية ، وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالله الحق ، وصار من أغنى العباد ....» ، وقال الإمام ابن رجب الحنبلى : «الإله هو الذى يطاع فلايعصى هيبة له وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاءا وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاءا له ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل » . بل إن المودودى نفسه فى ثنايا كلامه يعترف بالمعنى الأصلى لكلمة « إله وإلوهية » فيقول فى مصطلحاته الأربعة :

« ...ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللا بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه ، وكان قلبه مفعما بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه فانه يبالغ فى تمجيده وتعظيمه ، ويتفنن فى إبداء الشكر على آلائه وفى أداء شعائره التعبدية ، وكل ذلك اسمه التأله والتنسك » .انظر كيف سمى هذه المعانى بالتأله والتنسك تتضح لك الصورة .

من هذه الأقوال يتجلى أمامنا المعنى الحقيقى الأول والأصيل لكلمة «الإله» و«التأله » ، وهومن تعلق القلب به سبحانه ، وكمال حبه والشوق والافتقار إليه ، والذل بين يديه ، ويوضح وحيد الدين خان هذا المعنى فيقول : « ...وبالتحليل المذكور يتضح الأمر على أن كلمة «الإله» تدل على تأله الإنسان لله واحتياجه إليه»، وبالرجوع إلى تعريف كلمة « الإله» لغة ، وضم ذلك إلى تعريفات علماء الاصطلاح يتبين بجلاء أن كلمة « الإله والتأله» فى معناها الأ صلى هى حالة تقوم بقلب العبد تجاه خالقه سبحانه ، يحس فيها بالافتقار والشوق إليه ، ويشعر بالانكسار والحب له ، فيشتد تألهه أى تعلقه بسيده سبحانه وتعالى .هذا هو المعنى الرئيسى والأ ساس لكلمة « اله» وكلمة « إلهية وتأله» ، وليس فيها أن الإله تعنى المهيمن ولا المسيطر ولا صاحب السلطان ، إنما تأتى هذه المعانى تابعة للمعنى الأصلى حيث لا يتعلق القلب ولا يتوجه إلا إلى إله قادر ،عليم مالك مسيطر، له سلطة إنفاذ ما يريد . لكن هذه كلها ليست من معانى الإله ، وإنما هى مقتضيات الألوهيته ، حيث أن العاجز لا يكون إلها ، وقد عاب الله أصنام المشركين لأنها عاجزة لاتستحق أن تعبد وتكون آلهة ، لكن أؤكد أن المألوه هو« من تعلقت به القلوب وعظمته النفوس ، والإله هو من تألهه القلوب وتحبه وتفتقر إليه وتذل له»، لعلك تسأل مادام الإله لابد أن يكون مهيمنا صاحب سلطة فما هو وجه الاعتراض ؟ وأكرر ليس الاعتراض على كون الله صاحب سلطة أو هيمنة ، لكن الاعتراض على اعتبار ذلك هو المعنى الأ ساسى لكلمة « إله» مع أن معاجم اللغة وفقهاء الإسلام لم يعرفوا الإله بأنه صاحب السلطة أو الهيمنة ، لكنهم قالوا : «الإله هو من تعلقت به القلوب محبة وتعظيما، ذلا له وشوقا إليه » ، ثم ترتب على ذلك ولزم منه أن يكون مهيمنا صاحب سلطة يقدر بها على إجارة وإغاثة وإعانة من يرجوه ويدعوه ، فالسلطة والهيمنة معنى تبعى ، وليست معنى أصليا لكلمة «إله» كما ترى . وهذه التفرقة بين المعنى الأصلى وبين مايقتضيه الإسم يترتب عليها سلوك معين وشعور محدد لدى الأفراد ، فالعبد لايسعه بحال من الأحوال أن ينصرف قلبه عن حب معبوده وتعظيمه والشوق إليه والذل والافتقار إليه ، هذا شعور لابد أن يكون ملازما للإنسان فى كل الأوقات ، وفى كل الأحوال ، لأنه ممكن غير متعذر بحال ، فهو مطلوب من المرء فى كل أحواله ، وأوقاته وأماكنه ، بينما المعنى التبعى أو الاقتضائى ليس ممكنا ولا مطلوبا فى كل حال ، بل هو مقيد بقيود ومحدد بضوابط ، ففى نفس اللحظة التى لا يسع المرء الخروج عن هيمنة الله الكونية وسلطته

الكونية ، قد يعجز عن الخضــوع والتنفيذ لســلطته الشــرعية لأى ســبب أو عارض يعرض له ، وبالتالى الفرض التبعى أو الاقتضائى يخضع لمدى قدرة المرء و سعته التى قال عنها القرآن بو ضوح : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، ولا تكليف مع العجز ، بينما المعنى الأصــلى لكلمة «الإله » الذى هو كله قائم فى القلب فلا يسع المرء تركه مهما كانت الظروف .، فظهر بذلك الفارق بين المعنى الأصلى والمعنى الاقتضائى التبعى .، يقول وحيد الدين خان معلقا على كلام المودودى : « فالهيمنة وتملك القوى والســلطة هى من مقتضــيات الإله الحقيقى ، وليســت من المعنى اللغوى ، أى أن « إله »لغة لاتعنى المهيمن ومالك القوى والسلطة ، بل يأتى هذا المعنى باعتبار أنه لايستحق الإلوهية إلا صاحب السلطة ذو القوة المتين ، ولكن هذا الفكر – فكر المودودى – لايقبل صورة القوة والسلطة باعتبارها من مقتضيات الأصل ، فسوى بين الأصل ومقتضاه ، ووضعهما فى قائمة واحدة » .

ترى ماذا قال المودودى حتى يرد عليه وحيد الدين بهذا الرد ؟ بالرجوع قليلا للوراء نجد كلام المودودى الذى ذكرته أيها الأمير مستشهدا به ، فيقول بعدما ذكر تعريفات الإله فى اللغة والتى ليس فيها معنى المهيمن ولاصاحب السلطة ، ثم ذهب يستخلص منها أن السر وراء تعلق الإنسان ولجوئه إلى ربه وتألهه له هو اعتقاده بأن له الهيمنة والقدرة والسلطة على تلبية حاجته ، ورغم أن هذا ا ستنتاج صحيح لكن أكرر ليس هو المعنى الأصــلى لكلمة « الإله» ، نجد المودودى يســوى بين المعنى الأصــلى والمعنى الاســتنتاجى التبعى فيقول « فتبين من ذلك كله أن التصورات التي قد أطلقت من أجلها كلمة الإله على المعبود هي : قضاء الحاجة، والإجارة والتهدئة ، والتعالي والهيمنة ، وتملك القوى التي يرجى بها أن يكون المعبود قا ضيًا للحاجات مجيرًا في النوازل ، وأن يكون متواريًا عن الأنظار، يكاد يكون سرًا من الأسرار لا يدركه الناس، وأن يفزع إليه الإنســان ويولع به » ، . أرأيت كيف جمع المعانى اللغوية كلها برغم مابينها من فروق ، وكذلك المعنى الا ستنتاجى الاقتضائى وجعلها كلها دليلا على الهيمنة والسلطة ، ثم جعل الأخيرة تعريفا لكلمة الإله .؟ . لقد أخر عنصر الحب والشوق والتوجه ، وقدم جانب الخضوع والسلطة وإيصال خدماته إلى البشر ، أى أنه أدخل المعنى التبعى الاقتضائى الاستنتاجى فى المعنى الأصلى الأساسى الاصطلاحى الذى أخره فى عبارته ، وجعل كلمة «الاله» تعنى « الهيمنة والسلطة والتأله ». برغم أن الهيمنة والسلطة ليست من المعنى الأصلى للكلمة.وإنما هى معنى اقتضــائى ، ، غيرأن الأســتاذ المودودى وضــع المعنيين فى جملة واحدة ، وجعلهما معنى واحدا لكلمة « الإله » ، وكأنهما على رتبة واحدة ، وهذا غير صحيح

الثانية : وضعه المعنى الفرعى الاقتضائى مكان المعنى الأصلى واستبداله به : يقول وحيد الدين فى تعقيبه على صاحب المصطلحات الأربعة : « وهو لم يكتف بإدخال تصور القوة والهيمنة والغلبة فى معنى الإله ، بل هدفه أن يحل المقتضى محل الأصل ، فغير المعنى الأصلى وحل السلطة والقوة محل الأصل ، ثم راح يرتب المقتضيات حول هذا المعنى الرئيسى » ، أى الذى أضافه ، وهو تصور الإله بمعنى «القوة والغلبة والسلطة » بينما المعنى الحقيقى للإله التأله والإجارة ، والمعانى الأخرى متعلقة به » ، هكذا يذكر وحيد الدين ، ولكن هل هذا صحيح ؟ هل أحل المودودى الفرع محل الأصل ؟ وهل وضع المعنى الاقتضائى موضع المعنى الحقيقى وا ستبدله به ؟ لنرجع سويا إلى ماذكره المودودى تحت عنوان ملاك الأمر حيث يقول : « إن جميع ما تقدم ذكره من المعاني المختلفة لكلمة الإله يوجد فيما بينها ارتباط منطقي لا يخفى على المتأمل المستبصر . فالذي يتخذ كائنًا ما وليًا له ونصيرًا وكاشفًا عنه السوء، وقاضيًا لحاجته ومستجيبًا لدعائه وقادرًا على أن ينفعه ويضره ، كل ذلك بالمعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، يكون السبب لاعتقاده ذلك ظنه فيه أن له نوعًا من أنواع السلطة على نظام هذا العالم ، وكذلك من يخاف أحدًا ويتقيه ويرى أن سخطه يجر عليه الضرر ومرضاته تجلب له المنفعة ، لا يكون مصدر اعتقاده ذلك وعمله إلا ما يكون في ذهنه من تصور أن له نوعًا من السلطة على هذا الكون. . ثم أن الذي يدعو غير الله ويفزع إليه في حاجاته بعد إيمانه بالله العلي الأعلى ، فلا يبعثه على ذلك إلا اعتقاده فيه أن له شركافي ناحية من نواحي السلطة الإلوهية ، وعلى غرار ذلك من يتخذ حكم أحد من دون الله قانونًا ويتلقى أوامره ونواهيه شريعة متبعة فإنه أيضًا يعترف بسلطته القاهرة ثم يقول : « فخلاصة القول أن أصل الإلوهية وجوهرها هو السلطة سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الإنسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها ، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والإذعان . « أنظر إلى خلاصة القول عنده » أن أصل الألوهية وجوهرها هو السلطة » ، لترى كيف نحى المعنى الأصلى لكلمة « اله» الذى هو التأله والافتقار والحب والشوق والتعظيم ، وكلها معان قلبية تربط المرء بربه إلى جعل السلطة هى الأصل والجوهر ، أى أن المعنى الأول الذى هو الأصل والأساس صار هو المعنى الثانى التابع وأصبحت السلطة هى جوهر الإلوهية وأصلها ، فماذا تبقى من معنى الإلوهية إذا ذهبت السلطة بالأصل والجوهر ؟ .ولاحظ أنه ذكر السلطة بشقيها ، السلطة الكونية فى عالم ما وراء الطبيعة ، والسلطة الدينية التى يخضع لها الإنسان ويطيع إرشاداتها أى السلطة السياسية أو القانونية ، وهذا له مزيد بيان بعد .
والغريب أن الأستاذ المودودى يذكر العديد من الآيات ليدلل بها على نظرية السلطة هذه ثم يعقب تعقيبا

خطيرا يقول فيه « ففى هذه الآيات من أولها إلى آخرها. لا تجد إلا فكرة رئيســية واحدة ألا وهى أن كلا من الألوهية والســلطة تســتلزم الأخرى وأنه لافرق بينهما من حيث المعنى والروح » ، هكذا عنده الألوهية هى السلطة ، والسلطة هى الألوهية معنى وروحا ..

ولكن لننظر إلى هذا التقرير الذى يقرره الأســتاذ بأن جميع الآيات تفيد أنه لافرق بين الإلوهية والســلطة لامن حيث المعنى ولامن حيث الروح لنرى هل هذا الكلام صحيح أم لا ؟ وبالطبع لن نقف مع كل الآيات وحسبنا أن نعرض لبعضها، ومايسرى على البعض ينسحب على الكل ، وإذا بطل زعمه فى بعضها فقد سقطت حجته فيها كلها حيث قال « من أولها إلى آخرها .....» . ونقف أول مانقف مع آية فاطر التى اســتدل بها الأ ستاذ على أن الإلوهية والسلطة لافرق بينهما لافى الروح ولافى الجوهر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣] ، هذه الآية ا ستدل بها المودودى كما ذكرت لاثبات أنه لافرق بين الألوهية والحاكمية لا من حيث المعنى ولامن حيث الروح ، فماذا يقول المفسرون عنها ؟ يقول الشيخ السعدى فى تفسيرها : « يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم ، وهذا شامل تذكرها بالقلب اعترافا وباللسان ثناءا وبالجوارح انقيادا ،فان ذكره تعالى داع لشكره ، ثم نبههم على أ صول النعم وهى الخلق والرزق ، فقال ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق الا الله نتج من ذلك أن كان ذلك دليلا على ألوهيته وعبوديته ......« انظر إلى قول الســعدى » « ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله نتج من ذلك أن كان ذلك دليلا على ألوهيته وعبوديته ....» لتعلم أن الله ذكر سلطة الخلق والرزق اللتين هما أ صلا نعمه ذكرهما كدليل على ألوهيته وليس كمعنى من معانى الألوهية ، فالسلطة هنا ذكرت كمقتضى ودليل على إلوهية الله ، وليست كمعنى لكلمة إله كما يريد المودودى أن يثبتها . ويقول الأســتاذ وحيد الدين حول آية فاطر الســابقة : « ولم ترد فى هذه الآية وآيات أخرى مثلها ذكر السلطة مع الإلوهية باعتبارهما شيئا واحدا لافرق بينهما ، بل ذكرت الـسلطة كدليل على إلوهية الإله الحقيقية ، ولم يرد أن معنى الإلوهية هو الـسلطة والـسيطرة ، فلم تدعون إلها من لايتـصف بهذه الـصفة ؟ ولكن كما ذكرنا فان التأله لايكون إلا إلى ذات تـسيطر على عالم الأ سباب ، وهذا التـصرف بيده سبحانه وتعالى ، فهو الأحق أن يدعى إلها ، وبعبارة أخرى فإن ماذكر كان باعتبار الحاجة ، لا باعتبار الســلطة .» . ماقولك أيها الأمير فيما بينه العلماء أن الســلطة ليســت من معانى الإلوهية الأســاسـية ، وإنما هى من دواعيها ومقتـضياتها حتى لوكانت سلطة عالم ما وراء الطبيعة ؟ لكن الأ ستاذ المودودى لايقنع بذلك فحسب بل يضيف السلطة السيا سية والمدنية فيدخلها كمعنى أصلى لكلمة الإله أو الإلوهية وقد نقلنا قوله « فخلاصة القول أن أصل الإلوهية وجوهرها هو السلطة سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن

حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الإنسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والإذعان ». أنظر كيف جعل السلطة السياسية التى هى الطاعة ، هى المعنى الأصلى للإلوهية بالرغم أن السلطة كلها الكونية والشرعية هى معنى اقتضائى وليست معنى أصليا للإلوهية والإله ؟ وقال إن السلطة لاتقبل التجزئة ولا الشركة. فكانه يقول : « الإلوهية هى السلطة ، والسلطة هى أصل الإلوهية وجوهرها ، ولافارق بين السلطة والإلوهية ، لافى المعنى ولافى الجوهر ، ولافى الروح ، والسلطة تشمل ما وراء الطبيعة ومايلزم الإنسان طاعته واتباع إرشاداته ، وهذه السلطة الأخيرة هى جوهر ومعنى الإلوهية ، والآيات كلها تدل على ذلك ، فاجعلوا هدفكم الأول والأساسى والأصيل تحقيق السلطة السياسية التى تخضع الإنسان فى شؤون حياته » هذه هى خلاصة الفكرة لدى الأستاذ الذى تحتج أيها الأمير بكلامه ، ولنعرض لآيات أخرى مما يستدل بها على نفس المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص] ، استدل بها الأستاذ على أن الإلوهية معناها السلطة السياسية والحكم ، ولننظر نحن في كلام الفقهاء وعلماء التفسير لنعرف أحقا مايقول ؟

نقل وحيد الدين عدة تفسيرات للعلماء حول هذه الآية منها : أن الحكم هنا بمعنى القضاء والفصل ، فينقل قول الطبرى :

« وله الحكم » وله القضاء بين خلقه « وفى روح المعانى للألوسى : « أى القضاء النافذ في كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره » وفى الكشاف « القضاء بين عباده » .كما نقل عن ابن عباس ﷺ قوله فيها « يحكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاوة » ثم قال وحيد الدين : « والرأى الثانى أى قول ابن عباس هو الراجح» ، . فالحكم في الآيات كما ترى يدور بين القضاء وبين الفصل بين خلقه في الآخرة ، فريق في الجنة وفريق في السعير، أين هى السلطة السياسية والحكم السياسى في الآيات ؟ ، لكن أيها الأمير لاتعجل فلسوف أذكر لك ما يسرك حول هذه الآيات حيث يقول العلامة السعدى في تفسيرها : « هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات ، ونفوذ مشيئته بجميع البريات ....وأنه هو الحاكم في الدارين : في الدنيا بالحكم القدرى الذى أثره جميع ما خلق وذرأ ، والحكم الدينى الذى أثره جميع الشرائع والأوامر والنواهى ، وفى الآخرة يحكم بحكمه القدرى والجزائى ....» فقد صرح السعدى بشمول الآية للحكم الدينى في الدنيا ،

ونحن لا نختلف في أن الله هو الذى يحكم في الدنيا قدرا وشــرعا ، وكذلك في الآخرة ، لكننا نناقش هل كلمة الإله والإلوهية هل في معناها الأصــلى الحكم والســلطة ؟ أم أن هذا معنى اقتضــائى تبعى ؟ نحن لا نختلف أبدا معاذ الله حول حاكمية الله القدرية والشرعية . وبذكر رأى السعدى تكون الآية قد ورد فيها ثلاثة مذاهب : الأول بمعنى القضــاء بين عباده ، والثانى: بمعنى الفصــل بين العصــاة والأبرار، والثالث : بمعنى الحكم الكونى وال شرعى في الدنيا ، هذه ثلاثة آراء فلماذا نأخذ أحدها ونجعله الأ ساس في بحثنا ونبنى عليه مع أنه ليس هو المعنى الأساس ولا الأصيل لكلمة اله أو ألوهية؟

قد يقول قائل أليس القضــاء بين الناس يكون بتفويض من الحاكم ؟ ونقول نعم لاشــك في ذلك ، فيحتج هو بهذا الجواب على أن الحكم هو أســاس القضــاء فلا داعى لتفســير الآية بالقضــاء ، ونقول له : هذا الكلام حجة عليك وليس حجة لك ، لأن الفصل بين الناس إنما جاء تبعا للحكم وليس مساويا له ، وكذلك الحكم جاء تبعا للإلوهية وليس مســاويا لها ، فضــلا أن يكون هو الأصــل والجوهر أ والســابق عليها ، فليس الإله بمعنى الحاكم ، ولا الإلوهية معناها الحاكمية ، . وان كان الحكم والحاكمية مترتبين على الإله والإلوهية ، ولازمين من لوازمهما .

هذان مو ضعان ضربناهما لندلل على عدم صحة ماذهب إليه الأ ستاذ المودودى من « جعله الإله بمعنى الحاكم» ، واســتدلاله بالآيات كما رأينا ، غير أن الأســتاذ يصــر على إكمال نظرته الغريبة على تفســير القرآن حتى النهاية ، فيعرض لمواضع أخرى يراها من أوضح المواضع التى تؤيد فكرته وهى كالتالى :

قوله تعالى :﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] و - قوله تعالى : ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣﴾ [الناس] ، وقد صرح القرآن بالأمر بأكثر من كل ما سبق في سورة غافر . حيث جاء قوله تعالى:﴿ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦] ، هذه المواضع الثلاث يراها المودودى تساند فكرته في جعل السلطة والحكم هى جوهر الإلوهية وأصلها وأساسها ، ولكن بالنظر الدقيق فيها لا نجد ذلك ففى الآية الأولى :

« قل اللهم مالك الملك ...» آل عمران ، لاتتحدث عن الحكم ولا السلطة على أنها بمعنى الإلوهية ، إنما تقرر أن الله هو مالك الملك في الدنيا ، ونحن لا نعترض على ذلك ، وتقرر أن الله هو واهب الملك للملوك من البشر ، ولا اعتراض على ذلك أيضا ، كما تقرر أن الله يسلب ملكه الذى وهبه متى شاء ، وهذا حق

لاخلاف فيه ، ذلك لأنه على كل شيء قدير ، لكن الآية لم تذكر أن الملك هدف أساسي يجب أن تسعى اليه الأمة ، لأنه ليس كما يتصور الأستاذ أنه جوهر الإلوهية ولا يختلف عنها معنى ولا روحا ، بل على العكس هى تقرر أن الملك هبة من الله ، فلا ينبغى أن ننشغل بطلبه في الأساس ، إنما الواجب أن نحقق معانى الإلوهية والتعبد لله على كل المستويات ، وفى كل الأصعدة ، وساعتها سيؤتينا الله الملك ، وليس الملك والسلطة والحكم والحاكمية – بمعنى الحكومة الإسلامية- معنى أساسيا ولا أصليا للإله ولا الإلوهية فتبين الفارق . –

- أما سورة الناس التى ذكرها فهى تتحدث عن الوسواس الخناس ، أى مخلوق يقوم بأعمال خفية ويخنس عند ذكر الله ، فهى كلها تتعلق بجانب القلوب والنفوس والأرواح ، فتقرر السورة بأن أعمال الوسوسة والخداع المستترة والخفية لا ينجيك منها إلا الله ، فاستعيذوا به سبحانه ، والاستعاذة هى الاحتماء والتعوذ بالله واللجوء إليه ، والله رب الناس وإلههم ومالكهم فلن يغلبه أحد ولا يشذ عن قدرته شاذ سواءا من الجن أو الإنس أو غيرهم ، فما علاقة ذلك بالحاكمية والسلطة السياسية والمدنية التى هى الوجه الأخر للإلوهية وجوهرها كما يرى الأستاذ ويقرر؟

- وبقيت أمامنا آية غافر ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ ، والآية تصور مشهدا من مشاهد القيامة حيث يجتمع الخلق جميعا لاتخفى منهم خافية ، ولقد جاءوا فرادى كما خلقهم الله أول مرة ، ليس معهم شيء ولا ملك ولا سلطة فيسألهم الله ويقررهم ، لمن الملك اليوم ؟ أى لمن الملك الحقيقى ؟ لقد انكشفت أمامكم الأمور وتجلت الحقائق أنكم لا تملكون شيئا ، وإنما الملك الحق الكامل لله الواحد القهار ، ولست أدرى ماعلاقة ذك بجعل السلطة والحكم السياسى أصلا للإلوهية ، هل يختلف أحد أن الله هو الملك الحق في الدنيا والآخرة ؟ لا يختلف أحد مع الأستاذ على ذلك ، لكن لاعلاقة لهذا الكلام بجعل السلطة والحكم والحاكمية السياسية جوهرا للإلوهية وأصلها والقول بأنهما لايختلفان لافى المعنى ولافى الروح ، لأنهما في الحقيقة اللغوية والشرعية والمنطقية يختلفان كما بينا .

- وبعد هذا العرض يتبين لنا الخطأ الثالث الذى وقع فيه الأستاذ المودودى حيث أحل المعنى الاقتضائى التبعى للإلوهية محل معناها الأصلى الأساسى، وبدأ يفرع عليه ويستخلص منه الأحكام ، ويؤسس النظريات ، فجعل الإلوهية تابعة للحاكمية ، وجعل الحاكمية هى هدف الإلوهية ، بل جعل الإلوهية معنى فرعيا والحاكمية أى السلطة السياسية والمدنية جعلها هى الأساس ، فجعل الإلوهية بذلك

-     وسيلة وليست غاية ، وهذا خطأ كبير فاحش تتغير على أساسه كل حقائق الإسلام الحنيف . قال ابن رجب في تحقيق كلمة الإخلاص : «وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد : لا إله إلا الله يقتضي أن لا إله له غير الله والإله هو الذي يطاع فلا يعصي هيبة له إجلالاً، ومحبة وخوفاً ورجاء وتوكلا عليه و سؤالاً منه ودعاء له ولا يصلح ذلك كله إلا الله عزوجل».

-     وقال الدكتور «صـــالح الفوزان فى كتابه معنى « لا إله إلا إله ومقتضـــاها فى الفرد والمجتمع » : فالحاكمية جزء من معنى لا إله إلا الله ، وليست هي معناها الحقيقي المطلوب فلا يكفي الحكم بالشريعة في الحقوق والحدود والخصـومات مع وجود الشـرك في العبادة . وبذلك ننتهى من ملاحظاتنا على مفهوم الإله الذى نقلته أنت أيها الأمير عن المودودى والقطبين ، ليتبين لنا أن الأمور ســارت عندهم مقلوبة ومعكوســة مع منهج القرآن وحقائق الإســلام ، وان أحســنوا العرض ، وأتقنوا الســـرد كا فعلته أيها الأمير، فماذا عندك لتقوله عن كلمة الرب وحقيقة الربوبية كما سبق ووعدت بالكلام عنهما ؟

الفصل الثاني
الرب والربوبية

قال الأمير : ثانى هذه المصطلحات أيها الشيخ هو مصطلح «الرب »، ويوقفنا هذا المصطلح العظيم المهم على المعنى الكامل والأصيل للربوبية، وعلى مفهومها الصحيح الذى أهمل في دنيا الناس ، وسكت الكثير منكم ، وغض الطرف عن هذا التحريف والتزييف الذى لحقه ، وإنى اليوم أعرضه بين أيديكم ، إبراءًا للذمة ، وإقامة للحجة ، وبيانا للحق ، وإزالة للبس ، وإعذارا إلى الله ، وذلك على النحو الآتى :

التحقيق اللغوي : مادة كلمة الرب (الراء والباء المضعفة) ، ومعناها الأ صلي الأ سا سى : التربية، ثم تتشعب عنه معاني التصرف والتعهد والاستصلاح والإتمام والتكميل، ومن ذلك كله تنشأ في الكلمة معاني العلو والرئاسة والتملك والسيادة، ودونك أمثلة لاستعمال الكلمة في لغة العرب بتلك المعاني المختلفة.

١– التربية والتنشئة والإنماء : يقولون « ر ب الولد» : أي رباه حتى أدرك ، فالربيب هو الصبي الذي تربيه ، والربيبة الصبية . وكذلك تطلق الكلمتان على الطفل الذي يربى في بيت زوج أمه، و الربيبة أيضًا الحا ضنة ، ويقال الرابة لامرأة الأب غير الأم، فإنها وإن لم تكن أم الولد، تقوم بتربيته وتنشئته ، و الراب كذلك زوج الأم .، المربب (أو) المربى هو الدواء الذي يختزن ويدخر ، ور ب يرب ربًا من باب نصر، معناه الإضافة والزيادة والإتمام، فيقولون ر ب النعم :أي زاد في الإحسان وأمعن فيه.

٢ - الجمع والحشد والتهيئة : يقولون : فلان يرب الناس، أي يجمعهم أو يجتمع عليه الناس، ويسمون مكان جمعهم بالمرب (و) التربب هو الانضمام والتجمع.

٣- التعهد والاستصلاح والرعاية والكفالة : يقولون رب ضيعة أي تعهدها وراقب أمرها ، قال صفوان بن أمية لأبي سفيان : لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، أي يكفلني ويجعلني تحت رعايته وعنايته .وقال علقمة بن عبدة :

وكنت امرءًا أفضت إليك ربابتي وقبلك ربتني فضيعت ربوب

أي انتهى إليك الآن أمر ربابتي وكفالتي بعد أن رباني قبلك ربوب فلم يتعهدوني، ولم يصلحوا شأني .
ويقول الفرزدق :

كانوا كسالئة حمقاء إذ حقنت سلاءها في أديم غير مربوب

أي الأديم الذي لم يلين ولم يد بغ، ويقال فلان يربب صـنعته عند فلا ن أي يشـتغل عنده بصـناعته، ويتمرن عليها ويكسب على يده المهارة فيها.

٤- العلاء والسيادة والرئا سة وتنفيذ الأمر والتصرف : يقولون قد رب فلان قومه : أي سا سهم ، وجعلهم ينقادون له ، وربيت القوم أي حكمتهم وسدتهم، ويقول لبيد بن ربيعة :

وأهلكن يوماً رب كندة وابنه ورب معد بين خبث وعرعر

والمراد برب كندة ههنا سيد كندة ورئيسهم ، وفي هذا المعنى يقول النابغة الذبياني :

تخب إلى نعمان حتى تناله فدى لك من ربٍ تليدي و طارفي

٥- التملك : قد جاء في الحديث أنه سأل النبي ﷺ رجلاً أرب غنم أم رب إبل؟

أي أمالك غنم أنت أم مالك ابل؟ وفي هذا المعنى يقال لصاحب البيت رب الدار، و صاحب الناقة رب الناقة ، ومالك الضيعة رب الضيعة ، وتأتي كلمة الرب بمعنى السيد أيضًا ، فتستعمل بمعنى ضد العبد أو الخادم.

هذا بيان ما يتشعب من كلمة الرب من المعانى .وقد أخطأوا لعمر الله حين حصروا هذه الكلمة في معنى المربي والمنشئ، ورددوا في تفسير الربوبية هذه الجملة « هو إنشاء الشيء حالا فحا لا إلى حد التمام » ، والحق أن ذلك إنما هو معنى واحد من معاني الكلمة المتعددة الواسعة ، وبإنعام النظر في سعة هذه الكلمة ، واستعراض معانيها المتشعبة يتبين أن كلمة الرب مشتملة على جميع ما يأتي بيانه من المعاني :

١- المربي الكفيل بقضاء الحاجات، والقائم بأمر التربية والتنشئة.

٢ - الكفيل والرقيب، والمتكفل بالتعهد وإصلاح الحال.

٣ - السيد الرئيس الذي يكون في قومه كالقطب يجتمعون حوله.

٤- السيد المطاع، والرئيس وصاحب السلطة النافذ الحكم، والمعترف له بالعلاء والسيادة، والمالك لصلاحيات التصرف.

٥ - الملك والسيد.

- ثم قال الأمير : هذا هو معنى كلمة « رب» في اللغة ، أما عن استعمال كلمة الرب في القرآن :

فقد جاءت بجميع ما ذكرناه آنفًا من معانيها . ففي بعض الموا ضع أريد بها معنى أو معنيان من تلك المعاني . وفي الأخرى أريد بها أكثر من ذلك ، وفي الثالثة جاءت الكلمة مشتملة على المعاني الخمسة بأجمعها في آن واحد ، وها نحن نبين ذلك بأمثلة من آي الذكر الحكيم.

المعنى الأول (أى التربية)﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾ [يوسف: ٢٣] ، لا يذهبن بأحد الظن أن يوسف عليه الصلاة والسلام أراد بكلمة«ربي» في الآية عزيز مصر ، كما ذهب إليه بعض المفسرين وإنما يرجع الضمير في « إنه» إلى الله الذي قد استعاذ به يوسف عليه السلام بقوله : «معاذ الله».

بالمعنى الثاني وباشتراك شيء من تصور المعنى الأول الكفيل والرقيب المصلح ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:٧٧]، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل:٥٣] وغيرها .

بالمعنى الثالث « السيد والرئيس يجتمع عليه القوم » : ﴿ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [هود:٣٤] ، ﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ﴾ [سبأ:٢٦] ، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنعام :٣٨].

بالمعنى الرابع وباشتراك بعض تصور المعنى الثالث » السيد المطاع ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] ، ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[آل عمران:٦٤] ، والمراد بالأرباب في كلتا الآيتين الذين تتخذهم الأمم والطوائف هداتها ومر شديها على الإطلاق ، فتذعن لأمرهم ونهيهم، وتتبع شرعهم وقانونهم، وتؤمن بما يحلون وما يحرمون بغير أن يكون قد أنزل الله تعالى به من سلطان، وتحسبهم فوق ذلك أحقاء بأن يأمروا وينهوا من عند أنفسهم. ، وقوله ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا ﴾، ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف :٤١].

قد كرر يوسف عليه السلام في خطابه لأهل مصر في هذه الآيات تسمية عزيز مصر بكلمة ربهم، فذلك لأن أهل مصر بما كانوا يؤمنون بمكانته المركزية وبسلطته العليا ، ويعتقدون أنه مالك الأمر والنهي، فقد كان هو ربهم في واقع الأمر، وبخلاف ذلك لم يرد يوسف عليه السلام بكلمة الرب عندما تكلم بها بالنسبة لنفسه إلا الله تعالى فإنه لم يكن يعتقد بربوبية فرعون، بل الله وحده المسيطر القاهر ومالك الأمر والنهي .

بالمعنى الخامس « الملك السيد »: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝ ﴾ [قريش :٣].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠] ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٢] ، وبذلك نجد القرآن قد استخدم « الرب» بمعانيها الخمس الواردة فى اللغة .

المشركون العرب :

قال الأمير : هذا عن استخدام القرآن لكلمة الرب بمعانيها اللغوية كلها ، ولنبحث الآن في المشركين العرب الذين بعث فيهم خاتم النبيين ﷺ ، والذين كانوا أول من خاطبهم القرآن، من أي نوع كان ضلالهم في باب الإلوهية والربوبية، هل كانوا يجهلون الله رب العالمين، أو كانوا ينكرون وجوده،؟ فبعث إليهم النبي ﷺ ليبث في قلوبهم الإيمان بوجود الذات الإلهية ، ! وهل كانوا لا يعتقدون الله عز و جل إلهًا للعالمين وربًا،؟ فأنزل الله القرآن ليقنعهم بإلوهيته وربوبيته، وهل كانوا يأبون عبادة الله والخضوع له؟ أو كانوا لا يعتقدونه سميع الدعاء وقاضي الحاجة؟ وهل كانوا يزعمون أن اللات والعزى ومناة وهبل والآلهة الأخرى هي في الحقيقة فاطرة هذا الكون ومالكته والرازقة فيه والقائمة على تدبيره وإدارته؟ أو كانوا يؤمنون بأن آلهتهم تلك مرجع القانون ومصدر الهداية والإرشاد في شؤون المدنية والأخلاق؟

كل واحد من هذه الأسئلة إذا راجعنا فيه القرآن فإنه يجيب عليه بالنفي؛ ويبين لنا أن المشركين العرب لم يكونوا قائلين بوجود الله تعالى فحسب، بل كانوا يعتقدونه مع ذلك انه خالق هذا العالم كله – حتى آلهتهم –وأنه مالكه وربه الأعلى، وكانوا يذعنون له بالإلوهية والربوبية ، وكان الله هو الجناب الأعلى الأرفع الذي كانوا يدعونه ويبتهلون إليه في مآل الأمر عندما يمسهم الضر أو تصيبهم المصائب، ثم كانوا لا يمتنعون عن عبادته والخضوع له، ولم تكن عقيدتهم في آلهتهم وأصنامهم أنها قد خلقتهم وخلقت هذا الكون، وترزقهم جميعًا، ولا أنها تهديهم وتر شدهم في شؤون حياتهم الخلقية والمدنية، فالآيات الآتية تشهد بما تقول :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المؤمنون :٨٤].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[يونس :٢٢].

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧] ، ويروي القرآن عقائدهم في آلهتهم بعباراتهم أنفسهم فيما يأتي : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] ، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] ، ثم إنهم لم يكونوا يزعمون لآلهتهم شيئًا من مثل أنها تهديهم في شؤون حياتهم ، فالله تعالى يأمر رسوله ﷺ في سورة يونس : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ [الآية :٣٥]، فيرميهم سؤاله هذا بالسكات، ولا يجيب أحد منهم عليه بنعم أو أن اللات والعزى ومناة والآلهة الأخرى تهدينا سواء السبيل في العقيدة والعمل، وتعلمنا مبادئ العدالة والأمن والسلام في حياتنا الدنيا، وإننا نستمد من منبع علمها معرفة حقائق الكون الأساسية، فعند ذلك يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[يونس:٣٥] ، ويبقى بعد هذه النصوص القرآنية أن نطلب جواب هذا السؤال : ماذا كان ضلالهم الحقيقي في باب الربوبية الذي بعث الله نبيه ﷺ نرده إلى الصواب، وأنزل كتابه المجيد ليخرجهم من ظلماته إلى نور الهداية؟ وإذا تأملنا القرآن للتحقيق في هذه المسألة، نقف في عقائدهم وأعمالهم كذلك على النوعين من الضلال اللذين مازالا يلازمان الأمم الضالة منذ القدم.

كانوا بجانب : يشركون بالله آلهة وأربابًا من دونه في الإلوهية والربوبية فيما فوق الطبيعة، ويعتقدون بأن الملائكة والنفوس الإنسانية المقدسة والسيارات السماوية – كل أولئك دخيلة بوجه من الوجوه في صلاحيات الحكم القائم فوق نظام العلل والأسباب .ولذلك لم يكونوا يرجعون إلى الله تعالى وحده في الدعاء والاستعانة وأداء شعائر العبودية، بل كانوا يرجعون كذلك فى تلك الأمور كلها إلى آلهتهم المصنوعة الملفقة، .كما كانوا بجانب آخر : يكادون لايتصورون في باب الربوبية المدنية والسياسية أن الله تعالى هو الرب بهذه المعاني أيضا فكانوا قد اتخذوا أئمتهم الدينيين ورؤساءهم وكبراء عشائرهم أربابًا بتلك المعاني، ومنهم كانوا يتلقون القوانين لحياتهم.

دعوة القرآن :

يقول الأمير : إن هذا البحث الذي قد خضنا غماره في الصفحات السابقة بصدد تصورات الأمم الضالة وعقائدها، ليكشف القناع عن حقيقة أن جميع الأمم التي قد وصمها القرآن بالظلم والضلال وفساد العقيدة من لدن أعرق العصور في القد م إلى زمن نزول القرآن، لم تكن أمة منها جاحدة بوجود الله تعالى، ولا كانت تنكر كون الله ربًا وإلهًا بالإطلاق .بل كان ضـلالها الأصـلي المشـترك بين جميعها أنها كانت قد قسـمت المعاني الخمسـة لكلمة الرب التي قد حددناها في بداية هذا المبحث –مسـتشـهدين باللغة والقرآن– قسمين متباينين :

فأما المعاني التي تدل على أن الرب هو الكفيل بتربية الخلق وتعهدهم وقضـاء حاجتهم وحفظهم ورعايتهم بالطرق الخارجة عن النظام الطبيعي، فكانت لها عندهم دلالة أخرى مختلفة، وهم وإن كانوا لا يعتقدون إلا الله تعالى ربهم الأعلى بموجبها، إلا أنهم كانوا يشركون به في الربوبية الملائكة والجن والقوى الغيبية والنجوم السيارات والأنبياء والأولياء والأئمة الروحانيين .

وأما المعنى الذي يدل على أن الرب هو مالك الأمر والنهي و صاحب السلطة العليا، ومصدر الهداية والإرشـاد، ومرجع القانون والتشـريع، وحاكم الدولة والمملكة وقطب الاجتماع والمدنية، فكانت له عندهم دلالة أخرى متباينة وبموجب هذا المفهوم كانوا إما يعتقدون أن النفوس الإنسانية وحدهم ربًا من دون الله، وإما يستسلمون لربوبية تلك النفوس في شؤون الأخلاق والمدنية والسياسة مع كونهم يؤمنون إيمانًا نظريًا بأن الله هو الرب، هذا هو الضلال الذي مازالت تبعث لحسمه الرسل عليهم السلام من لدن فجر التاريخ، ولأجل ذلك بعث الله أخيرًا محمدًا ﷺ . وكانت دعوتهم جميعًا أن الرب بجميع معاني الكلمة واحد ليس غير، وهو الله تقدسـت أسـماؤه .والربوبية ما كانت لتقبل التجزئة ولم يكن جزء من أجزائها ليرجع إلى أحد من دون الله بوجه من الوجوه، وأن نظام هذا الكون مرتبط بأ صله ومركزه وثيق الارتباط ، قد خلفه الله الواحد الأحد، ويحكمه الفرد الصـمد، ويملك كل السـلطة والصـلاحيات فيه الإله الفّذ الموحد ، فلا يد لأحد غير الله في خلق هذا النظام ولا شـريك مع الله في إدارته وتدبيره ولا قسـيم له في ملكوته، .وبما أن الله تعالى هو مالك السـلطة المركزية، فإنه هو وحده ربكم في دائرة ما فوق الطبيعة، وربكم في شؤون المدنية والسياسة والأخلاق، ومعبودكم ووجهة ركوعكم و سجودكم، ومرجع دعائكم وعماد توكلكم، والمتكفل بقضاء حاجاتكم، وكذلك هو الملك، ومالك الملك، وهو الشارع والمقنن، وهو الآمر والناهى وكل هاتين الدلالتين للربوبية اللتين قد فصلتم إحداهما عن الأخرى لجاهليتكم، هي

في حقيقة الأمر قوام الإلوهية وعمادها وخاصة إلهية الإله .لذلك لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى، كما لا يجوز أن يشرك مع ا لله أحد من خلقه باعتبار أيهما . وأما الأ سلوب الذي يدعو به القرآن دعوته هذه فها هو ذا بعبارته وها هى الآيات التي تتحدث عن الرب والربوبية زاخرة في كتاب الله تعالى .

ثم قال الأمير : « فبقراءة هذه الآيات بالترتيب الذي سردناها به، يتبين للقارئ أن القرآن يجعل الربوبية مترادفة مع الحاكمية والملكية، ويصف لنا الرب بأنه الحاكم المطلق لهذا الكون ومالكه وآمره الوحيد لا شريك له، وبهذا الاعتبار هو ربنا ورب العالم بأجمعه ، ومربينا وقاضي حاجاتنا» .

وبهذا الاعتبار هو كفيلنا وحافظنا ووكلينا. وطاعته بهذا الاعتبار هي الأ ساس الفطري الصحيح الذي يقوم عليه بنيان حياتنا الاجتماعية على الوجه الصحيح المرضي، والصلة بشخصيته المركزية تسلك شتى الأفراد والجماعات في نظام الأمة. وبهذا الاعتبار هو حري بأن نعبده نحن وجميع خلائفه، ونطيعه ونقنت له. وبهذا الاعتبار هو مالكنا ومالك كل شيء وسيدنا وحاكمنا.

لقد كان العرب والشعوب الجاهلية في كل زمان أخطأوا – ولا يزالون يخطئون إلى هذا اليوم – بأنهم وزعوا هذا المفهوم الجامع الشامل للربوبية على خمسة أنواع من الربوبية، ثم ذهب بهم الظن والوهم أن تلك الأنواع المختلفة للربوبية قد ترجع إلى ذوات مختلفة ونفوس شتى، بل ذهبوا إلى أنها راجعة إليها بالفعل .فجاء القرآن فأثبت باستدلاله القوي المقنع أنه لا مجال أبدًا في هذا النظام المركزي لأن يكون أمر من أمور الربوبية راجعًا – في قليل أو كثير- إلى غير من بيده السلطة العليا، وأن مركزية هذا النظام نفسها هي الدليل البين على أن جميع أنواع الربوبية مختصة بالله الواحد الأحد الذي أعطى هذا النظام خلقه.

ولذلك فإن من يظن جزءًا من أجزاء الربوبية راجعًا إلى أحد من دون الله، أو يرجعه إليه، بأي وجه من الوجوه، وهو يعيش في هذا النظام، فإنه يحارب الحقيقة، ويصدف عن الواقع ويبغي على الحق، وبلقي بيديه إلى التهلكة والخسران بما يتعب نفسه في مقاومة الحق ....الخ

- أنهى الأمير حديثه ، وبلع ريقه ، و جعل ينظر إلى الشيخ في استعلاءقائلا : بعد هذا البيان اللغوى القرآنى لمعنى كلمة الرب ، والاستدلال عليه من تاريخ دعوة الرسل ، وبيان دعوة القرآن وكيفية تعامله مع هذا المصطلح لا أظنك تعترض أيها الشيخ ، وعلام تعترض وما هى إلا كلمات نورانية كما ترى ؟ إن القرآن يجعل الربوبية (مترادفة مع الحاكمية والملكية، ويصف لنا الرب بأنه الحاكم المطلق) .

• أطال الشيخ النظر إلى الأمير وأصغى إلى حلو كلامه ثم تبسم ابتسامة هادئة وقال : لابد أن تعلم أيها الأمير أننى ماجئت هنا لأعترض أو لأوافق ، لكننى جئت طلبا للحق لى ولغيرى ، لى ولك ، وليعلم المسلمون كافة أن الحق حبيب إلينا ، مقدم على رغباتنا ومرادات نفو سنا ، فالحق كما يقول الناس حبيب الله ، والمسلم الصادق هو من يحب ما أحبه الله ، أما عن كلامك حول مصطح الرب والربوبية فاسمع منى ولاتعجل ، وخذ عنى ولاتغفل رعاك الله .

أولا : أشكر لك حسن عرضك لهذا المصطلح كما شكرتك في عرض ماقبله ، وحقا إن من البيان لسحرا .

ثانيا : لقد أصــبت أيها الأمير في عرضــك للمعنى اللغوى لكلمة الرب ، خاصــة إنك رتبتها ترتيبا دقيقا بقولك « مادة كلمة الرب : (الراء والباء المضعفة) ومعناها الأصلي الأساسى :التربية، ثم تتشعب عنه معاني التصرف والتعهد والا ستصلاح والإتمام والتكميل،.... ودونك أمثلة لا ستعمال الكلمة في لغة العرب بتلك المعاني المختلفة.

١ – **التربية والتنشئة والإنماء**: يقولون ر ب الولد أي رباه حتى أدرك ، فالربيب هو الصبي الذي تربيه ، والربيبة الصبية ....» ، فقد بينت أن هناك معنى أصليا أ سا سيا لكلمة الرب ، ثم هناك معان فرعية تترتب عليه ، وتتفرع من هذا المعنى الأصـلى وذكرت من بينها الرئيس السـيد صـاحب السـلطة والحكم ، وبذلك أراك قد فرقت كما يجب بين المعنى الأصـلى والمعنى الفرعى ، وهذا حسـن جميل منك .، كما أشـكر لك وضـعك المعنى الاصـلى الأسـاسـى لكلمة « رب» الذى هو بمعنى التربية « فى أول التعريفات ، بيانا لأهميته وتقديما للمعنى الأصلى على المعانى الفرعية لكلمة « رب » فى لغة العرب ، لكن كل هذه مقدمات ومعطيات للمو ضوع وليست نهايته ، والملاحظ أنك وقعت فى نفس الأخطاء التى بدرت منك فى تعاملك مع مصطلح «الإله» ، والتى سبق أن بيناها وو ضحنا وجه الخطأ فيها، فقد و ضعت المعنى الفرعى الاقت ضائى مو ضع المعنى الأ صلى و سويته به ، ثم ا ستبدلت المعنى الفرعى بالمعنى الأ صلى وأحللته محله ، ثم جعلت المعنى الأصـلى معنى فرعيا تابعا بدلا من كونه أصـلا متبوعا ، وبالتالى ترتب على كل ذلك انحراف فى أصـل الغاية ، وتحول فى معنى الوسيلة الموصلة إليها . واليك البيان أيها الأمير .

الخطأ الأول : تسـويتك المعنى الفرعى التبعى أو الاقتضـائى بالمعنى الأصـلى الأسـاسـى ، واصـبح المعنى الاصلى كأحد معانى الكلمة الشاملة ، واتهمت من حصر معنى كلمة الرب فى التربية بالخطأ والقصور برغم كونه المعنى الأصلى والأساسى ، وذلك فيما نقلته عن المودودى أيضا من قوله « هذا بيان ما يتشعب

من كلمة الرب من المعانى .وقد أخطئوا لعمر الله حين حصروا هذه الكلمة في معنى المربي والمنشئ، ورددوا في تفسير الربوبية هذه الجملة « هو إنشاء الشيء حالا فحالا ً إلى حد التمام» ، والحق أن ذلك إنما هو معنى واحد من معاني الكلمة المتعددة الوا سعة . وبإنعام النظر في سعة هذه الكلمة وا ستعراض معانيها المتشعبة يتبين أن كلمة الرب مشتملة على جميع ما يأتي بيانه من المعاني ثم ذكر المعانى الخمس للكلمة كما نقلتها عنه .

انظر إلى قوله « هذا معنى واحد من معانى الكلمة المتعددة الواسعة» ، لترى أنه اعتبره معنى كأى معنى من المعانى المتعدد للكلمة ، ولم يقل انه المعنى الأ صلى ، نعم هى متعددة ووا سعة لكنها ليست متساوية في الدرجة ولافى الحكم فشتان بين الأ صل والفرع ، بين التابع والمتبوع ، هذا هو الخطأ الأول إن اعتبر الأ ستاذ المودودى المعنى السياسى السلطوى لكلمة رب وهو معنى اقتضائى تبعى ، اعتبره مثله مثل المعنى الأصلى ، وو ضعهما بجوار بعضهما سواءا بسواء . يقول وحيد الدين في تفنيده لنظرية المودودى هذه : « فهذا أول نموذج للتحريف في شرح كلمة الرب ،أراد فيه المؤلف إثبات أن المعنى السياسى لكلمة الرب ليس مقتضى عمليا للمعنى الأصلى ، بل هو المعنى الأصلى الحقيقى لهذه الكلمة وحيثية كحيثية المعانى الأخرى ».

ولزيادة البيان أذكر لك ما قاله الأستاذ المودودى بعد سرده لدعوة الرسل إلى أممهم ،وبيانه كيف تعاملت الأمم مع مفهوم الربوبية، حيث يقول في وضــوح مســو يا بين المعنى الاصــلى للربوبية الذى هو التربية والإ صلاح ، وبين المعنى الاقتضائى الذى هو السلطة والتشريع والحاكمية يقول مانصه : « فبقراءة هذه الآيات بالترتيب الذي سردناها به، يتبين للقارئ أن القرآن يجعل الربوبية مترادفة مع الحاكمية والملكية ، ويصف لنا الرب بأنه الحاكم المطلق لهذا الكون ، ومالكه وآمره الوحيد لا شريك له . وبهذا الاعتبار هو ربنا ورب العالم بأجمعه ، ومربينا وقاضــي حاجاتنا ، وبهذا الاعتبار هو كفيلنا وحافظنا ووكلينا ، وطاعته بهذا الاعتبار هي الأ ساس الفطري الصحيح الذي يقوم عليه بنيان حياتنا الاجتماعية على الوجه الصحيح المرضي ، والصلة بشخصيته المركزية تسلك شتى الأفراد والجماعات في نظام الأمة. وبهذا الاعتبار هو حري بأن نعبده نحن وجميع خلائفه، ونطيعه ونقنت له. وبهذا الاعتبار هو مالكنا ومالك كل شيء وسيدنا وحاكمنا. .....» ، هكذا صارت الربوبية مترادفة مع الحاكمية والملكية . وأ صبح الرب هو الحاكم ، أرأيت كيف سوى بو ضوح بين المعنى الأ صلى الأ سا سى ، والمعنى الفرعى الاقتضائى وجعلهما مترادفين.؟ بل يجعل السلطة والحكم قواما للإلوهية ويتحدث عن سلطة الله تعالى الكونية وعن سلطته التشريعية والقانونية والمدنية والاجتماعية – السياسية – يقول : « ... وكل هاتين الدلالتين للربوبية اللتين قد فصلتم إحداهما

عن الأخرى لجاهليتكم، هي في حقيقة الأمر قوام الإلوهية وعمادها وخاصة إلهية الإله . لذلك لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى، كما لايجوز أن يشرك مع الله أحد من خلقه باعتبار أيهما ....» ، انظر إلى قوله «هى قوام الإلوهية وعمادها » أنه لم يسو بين المعنيين فقط ، وإنما جعل الحاكمية والسلطة السياسية هى قوام الإلوهية وعمادها ، لقد انتقل بهذه العبارة نقلة جديدة فبدلا من أنه كان يسوى بين المعنيين نراه الآن يقدم المعنى الاقتضائى على أنه الجوهر والعماد ، كما سبق وذكر عن الحاكمية والإلوهية أنهما متفقان جوهرا وروحا ، وأنه لافرق بينهما لامن حيث المعنى ولا من حيث الجوهر، وهذا هو:

الخطأ الثانى : الذى وقع فيه الرجل بإحلاله الحاكمية والسلطة السياسية محل الإلوهية والربوبية كما رأيت ، وقد سبق بيانه في موضوع الإلوهية ، ونحن لانشرك بالله في ربوبيته سبحانه بأى وجه من الوجوه لابالمعنى الأ صلى ولا بالمعنى الاقتضائى التبعى ، وإنما فقط نفرق بين المعنى الأ صلى ومقتضاه ، كما أننا نقر ونؤكد ونوجب الإيمان بربوبية الله الكونية وبحاكميته التشريعية ، ونلزم أنفسنا وندعوا غيرنا إلى ذلك لنطبق حاكميته السياسية ، أكرر أننا فقط نفرق بين المعنى الأصلى والمعنى الاقتضائى ومايترتب على كل منهما من أحكام وتصورات ، ونوضح مايحدث من انحراف إذا ماجرى خطأ في ترتيب المعانى ، أوجرى خلل في ضبط المفاهيم . .

الخطأ الثالث : اعتباره الربوبية تابعة للحاكمية وخادمة لها وأقتبس بيان ذلك من كلام الأستاذ المودودى نفسه فيقول : « ....أن القرآن يجعل الربوبية مترادفة مع الحاكمية والملكية ويصف لنا الرب بأنه الحاكم المطلق لهذا الكون ، ومالكه وآمره الوحيد لا شريك له« ثم يعقب قائلا » وبهذا الاعتبار هو ربنا ورب العالم بأجمعه ومربينا وقاضي حاجاتنا. وبهذا الاعتبار هو كفيلنا وحافظنا ووكلينا. وطاعته بهذا الاعتبار هي الأساس الفطري الصحيح الذي يقوم عليه بنيان حياتنا الاجتماعية على الوجه الصحيح المرضي.....» انظر إليه بعد جعله الربوبية مترادفة للحاكمية والملكية يقرر نقلة أبعد فيقول « وبهذا الاعتبار هو ربنا ورب العالم بأجمعه ومربينا وقاضى حاجاتنا ....» ، وبالتالى فقد جعله مربيا بمقتضى أنه مالك وذو سلطة وحاكمية، فجعل الربوبية ومعناها الأصلى التربية إنما هما مقتضى كونه حاكما مع أن العكس هو الصحيح، فهو يحكمنا بمقتضى انه ربنا ، وليس هو ربنا لأنه يحكمنا ، وللتوضيح الصورة نسألك أيها الأمير هل الله تعالى مالكنا وحاكمنا لأنه ربنا ؟ أم أنه ربنا لأنه حاكمنا ؟ الإجابة المنطقية الصحيحة أنه حكمنا وملكنا لأنه ربنا وليس العكس ، فالربوبية هى الأصل والملك والحكم تبع لها ، ومقتضى من مقتضياتها، وليس الملك والحكم هما مقتضاها الوحيد، بل هناك مقتضيات أخرى لربوبيته غير الملك والحكم ، .بل قد

ذكر المودودى ماهو أوضح من ذلك فقال في مصطلحاته الأربعة » .وبما أن الله تعالى هو مالك السلطة المركزية، فإنه هو وحده ربكم في دائرة ما فوق الطبيعة، وربكم في شؤون المدنية والسيا سة والأخلاق، ومعبودكم ووجهة ركوعكم وسجودكم، ومرجع دعائكم وعماد توكلكم، والمتكفل بقضاء حاجاتكم، وكذلك هو الملك، ومالك الملك، وهو الشارع والمقنن، وهو الآمر والناهى . وكل هاتين الدلالتين للربوبية اللتين قد فصلتم إحداهما عن الأخرى لجاهليتكم، هي في حقيقة الأمر قوام الإلوهية وعمادها وخاصة إلهية الإله » ، فقد فرع في هذا القول ربوبية مافوق الطبيعة عن السلطة ، وفرع ربوبية التشريع والحكم عن الـ سلطة وفرع ربوبية الركوع والـ سجود عن الـ سلطة ، فالـ سلطة والحكم عنده هما الأ صل لكل شيء ، وليست الربوبية ولا الإلهية كما ترى من كلامه

لقد جعل الأستاذ المودودى الملك والسلطة والحاكمية هى الأساس والأصل ، وكل ما عداها جعله تبعا ومقتضى لها ، وو سيلة لتحقيقها ، فجعل السطة هى الغاية وجعل كل تشريعات وأوامر الدين سواءا في أصوله أو في فروعه جعلها كلها وسائل لتحقيق الحاكمية والسلطة بما في ذلك العبادات والأخلاق ، بل حتى حاكمية ما وراء الطبيعة جعلها خادمة للسلطة، وفى سبيل إثبات ذلك ذهب يستدل بكافة الو سائل والأدوات ليبرهن على صحة ماذهب إليه لدرجة أننا نراه يستدل على المسألة بآيات لم يرد فيها اللفظ محل الكلام مطلقا ، ولست أدرى كيف يستدل على معنى كلمة بدليل لم ترد هى فيه أصلا؟ ولئن ذكرنا مثالا على ذلك في الحديث عن الإلوهية فلن نعدم مثالا أو أكثر ا ستدل به الرجل في مجال الربوبية ومن ذلك قوله تعالى عن قوم نوح عليه السلام « ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء:١٠٧] ، فهل ورد في الآية كلمة رب ؟ أو كلمة حكم ؟ او كلمة ملك أو سلطة ؟ لم يرد شيء من ذلك على الإطلاق كما ترى ، لكنه يستدل بها . كما استدل بقوله تعالى في سورة الروم ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ ، و أنقل لك الآية وماقبلها ومابعدها لترى أن كلمة الرب أو الربوبية لم ترد فيها إطلاقا ، فكيف يستدل عليها بالآيات التى لم تذكرها وإن كانت ذكرت معنى الخلق والرزق الذى هو مقتضى الربوبية وليس معناها الأصلى كما اتفقنا ؟

تقول الآيات : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾...

.وإليك ما ذكره الإمام ابن عاشور حول الآيات ليتضح لك معناها وتتبين أن الأستاذ المودودى قد أبعد النجعة ، يقول ابن عاشور: « أتبع ذكر إقامة الله تعالى السماوات والأرض بالتذكير بأن كل العقلاء في السماوات والأرض عبيد لله تعالى فيكون من مكملات ما تضمنته جملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥] ، فعطفت عليها هذه الجملة زيادة لبيان معنى إقامته السماءَ والأرض. فاللام في قوله:﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لام الملك ، واللام في قوله﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ لام التقوية ، أي تقوية تعدية العامل إلى معموله لضعف العامل بكونه فرعاً في العَمل ، وبتأخيره عن معموله . وعليه تكون (مَنْ) صادقة على العقلاء كما هو الغالب في استعمالها . وظاهر معنى القنوت امتثال الأمر ، فيجوز أن يكون المعنى : أنهم منقادون لأمره . وإذ قد كان في العقلاء عصاة كثيرون تعيَّن تأويل القنوت باستعماله في الامتثال لأمر التكوين ، أو في الشهادة لله بالوحدانية بدلالة الحال ، وهذا هو المقصود هنا لأن هذا الكلام أورد بعد ذكر الآيات الستّ إيرادَ الفذلكة بإثبات الوحدانية فلا يحمل قنوتهم على امتثالهم لما يأمرهم الله به من أمر التكليف مباشرة أو بواسطة لأن المخلوقات متفاوتون في الامتثال للتكليف؛ فالشيطان أمره الله مباشرة بالسجود لآدم فلم يمتثل ، وآدم أمره الله مباشرة أن لا يأكل من الشجرة فأكل منها؛ إلا أن ذلك قبل ابتداء التكليف.

والمخلوقات السماوية ممتثلون لأمره ساعون في مرضاته قال تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٧] ، وأما المخلوقات الأرضية العقلاء فهم مخلوقون للطاعة قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها ، وهم في انحرافهم متفاوتون؛ فالضالّون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أنداداً ، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده ، ولكنهم ربما خالفوا بعض أوامره قليلاً أو كثيراً ، هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق متفاوتون فيه . فجملة ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: ٢٥] ، ويجوز أن تكون جملة ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ تكملة لجملة﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[الروم:٢٥] ، على معنى : وله يومئذ من في السموات والأرض كل له قانتون ، فالقنوت بمعنى الامتثال الواقع في ذلك اليوم وهو امتثال الخضوع لأن امتثال التكليف قد انقضى بانقضاء الدنيا ، أي لا يسعهم إلا الخضوع فيها يأمر الله به من شأنهم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم:٢٥].... انتهى أين السلطة التى جعل الأستاذ المودودى الربوبية تابعة وخادمة لها ؟ لقد ذكرت السلطة والقدرة كآية تدل على ربوبيته فهى خادمة للربوبية وليست سيدة وحاكمة عليها . ثم استشهد الأستاذ

المودودى الذى نقلت عنه كلامه أيها الأمير بعدة آيات أخر لكنها فى معظمها لاتختلف كثيرا عما قلناه فهل وعيت ؟

ثم ختم الشـيخ كلامه بقوله : ومما سـبق يتبين لنا أيها الأمير : أ ن العرب لم يقولوا بأن الربوبية فى معناها الأول هى الحاكمية ، ولم يقولوا كذلك هى السلطة ، ولم يقل القرآن أن المعنى الأول للربوبية هو السلطة ولا الحاكمية ، لكنهم قالوا الرب هو المربى ، والربوبية هى التربية ، ثم يتفرع عنها معان أخر ومقتضـيات أخرى من بينها السلطة والحاكمية كما ذكرنا واستعرضنا لغة العرب وآيات القرآن، وهاهو الدكتور محمد أحمد عبد القادر ينقل عن علماء وأئمة الإسـلام فيقول «قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية: «والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله، من العبادة وغيرها» وقال محمد صديق حسن : « فالرب مصدر رب يربُّ ربًّا فهو رابٌّ، فمعنى قوله: رب العالمين: أي رابّهم، وهو الرب الخالق الموجد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل لهم من خلق ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا» أ.هـــ.ويقول ابن القيم رحمه الله عند تفسـير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب ، وأخّر الإلهية لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إلهُ مَنْ عبده وحده واتخذه دون غيره إلهًا، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه، وإن كان في الحقيقة لا إله له سـواه، ولكن المشـرك ترك إلهه الحق واتخذ إلهًا غيره باطلًا ، ووسّـط صـفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصـرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الملك الحق، الإله الحق، خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه، واسـتعبدهم بإلهيته. فتأمل هذه الجلالة، وهذ العظمة التي تضـمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسـن سـياق ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.هكذا يقول العلماء والمفسرون ، فأين الحكم والسلطة بمعنى الربوبية وجوهرها أيها الأمير ؟ اللهم لاوجود لذلك إلا فى مخيلتك وتنظيرك الذى يحتاج إلى إعادة تنظير .

الفصل الثالث

العبادة

أنهى الشيخ ملاحظاته على كلام الأمير حول مصطلح « الرب والربوبية » ، يبدوا أن الأمير قد ضاق صدرا بكلامه ، حيث فند كل شبهاته ، وكشف كل أخطائه حول هذا المفهوم الذى تحمس له ، واضح على قسمات الأمير أنه يعد العدة ليشد على الشيخ في جولة جديدة ، أرى في عينيه بريق التحدى و شرر العناد والإ صرار ، رفع الأمير إلى السماء وجهه ، سرح بعينيه في الأفق ،داعب أرنبة أنفه ، التفت إلى الشيخ مشيرا بيده ، قد علا شفتيه جملة بليغة « أنا لن أ سلم رايتى » ، ولئن قلت أيها الشيخ ماقلت ، ولئن اعتر ضت ما اعتر ضت ، فإنى عازم على إكمال المساجلة ، مصر على الوصول إلى نتيجة ، ماض وأعرف مادربى وماهدفى ، مهما أتيت أيها الشيخ من قول مختلق ومختلف ، ولتكن جولتى الآن معك حول م صطلح « العبادة » ، ولقد قال القرآن مخاطبا الكافة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ ، وقال مخاطبا المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، إنها العبادة وظيفة الخلق ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾.

أما عن التحقيق اللغوي لكلمة العبادة : -

فيقول الأمير : العبودة والعبودية؛ معناها اللغوى الخضوع والتذلل، أي ا ستسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقيادًا لا مقاومة معه، ولا عدول عنه، ولا عصيان له، حتى يستخدمه هو حسب ما ير ضى وكيف ما يشاء ، وعلى ذلك تقول العرب بعير معبد : للبعير السلس المنقاد، و طريق معبد : للطريق الممهد للوط ء . ومن هذا الأصل اللغوي نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والإطاعة والتأله والخدمة والقيد والمنع **. جاء في لسان العرب تحت مادة (ع ب د) ما نلخصه فيما يلي :**

١) **العبد** : المملوك خلاف الحر ، تعبد الرجل : اتخذه عبدًا، أي مملوكًا أو عامله معاملة العبد، وكذلك عبد الرجل واعبده واعتبده (وقد جاء في الحديث الشـريف : ثلاثة أنا خصـمهم ، رجل اعتبد محررًا – وفي رواية أعبد محررًا – أي اتخذ رجلا حرًا عبدًا له ومملوكًا : وفي القرآن الكريم أن مو سى عليه السـلام قال لفرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، اتخذتهم عبيدًا لك ، دائنين، وكل من دان لملك فهو عابد له؛ وقال ابن الأنباري فلان عابد (هو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره) .

٢) عبده عبادة ومعبدًا ومعبد ة (تأله له).

٣) التعبد : (التنسك). هو المعبد المكرم المعظم :كأنه يعبد . قال الشاعر :

٤) وعبد به : (لزمه فلم يفارقه)

٥) ما عبدك عني : (أي ما حبسك).

ويتضح من هذا الشرح اللغوي لمادة (ع ب د) : أن مفهومها الأساسي أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلبته، ثم ينزل له عن حريته واستقلاله ، ويترك إزاءه كل المقاومة والعصيان ، وينقاد له انقيادًا، وهذه هي حقيقة العبدية والعبودية، ومن ذلك أن أول ما يتمثل في ذهن العربي لمجرد سماعه كلمة (العبد) و(العبادة) هو تصور العبدية والعبودية . وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتمًا يتبعه تصور الإطاعة . ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ، ويعترف بعلو شأنه وكان قلبه مفعمًا بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه ويتفنن في إبداء الشكر على الآئه وفي أداء شعائر العبدية له، وكل ذلك اسمه التأله والتنسك . وهذا التصور لا ينضم إلى معاني العبدية إلا إذا كان العبد لا يخضع لسيده رأسه فحسب، بل يخضع معه قلبه أيضاً . وأما المفهومان الباقيان – الملازمة والحبس – فإنهما تصوران فرعيان لا أصليان للعبدية.

- **استعمال كلمة العبادة في القرآن : –**

قال الأمير : وإذا رجعنا إلى القرآن بعد هذا التحقيق اللغوي رأينا أن كلمة العبادة قد وردت فيه غالبًا في المعاني الثلاثة الأولى ، ففي بعض المواضع قد أريد بها المعنيان الأول والثاني معًا، وفي الأخرى المعنى الثاني وحده، وفي الثالثة المعنى الثالث فحسب، كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آن واحد .أما أمثلة ورودها بالمعنيين الأول والثاني في القرآن فهي :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٥–٤٧] ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٢٢] ، والمراد بالعبادة في كلتا الآيتين هو العبودية والإطاعة، فقال فرعون : أن قوم موسى وهارون عابدون لنا، أي عبيد لنا، وخاضعون لأمرنا، وقال موسى :إنك عبدت بني إسرائيل، اتخذتهم عبيدًا، وتستخدمهم حسب ما تشاء وترضى.

أما العبادة بمعنى العبودية والإطاعة ففى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢] ، إن المنا سبة التي أنزلت بها هذه الآية هي أن العرب قبل الإ سلام كانوا يتقيدون بأنواع من القيود في المآكل والمشــارب، امتثالًا لأوامر أئمتهم الدينيين، واتباعًا لأوهام آبائهم الأولين، فلما أسلموا قال الله تعالى : إن كنتم تعبدونني فعليكم أن تحطموا جميع تلك القيود وتأكلوا ما أحللته لكم هنيئًا مريئًا، ومعناه أنكم إن لم تكونوا عبادًا لأحباركم وأئمتكم، بل لله تعالى وحده، وإن كنتم قد هجرتم طاعتهم إلى طاعته، فقد وجب عليكم أن تتبعوا ما وضعه لكم من الحدود، لا ما وضعوه هم في الحلال والحرام . ومن ذلك جاءت كلمة العبادة في هذا المو ضع أيضًا بمعاني العبودية والإطاعة ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة:٦٠] ، ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ [الزمر:١٧] ، والمراد بعبادة الطاغوت في كل من هذه الآيات الثلاث هو العبودية للطاغوت وإطاعته، ومعنى الطاغوت في إصطلاح القرآن كل دولة أو سلطة ، وكل إمامة أو قيادة تبغي على الله وتتمرد، ثم تنفذ حكمها في أرضه، وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء، أو بالتعليم الفاسد . فا ستسلام المرء لمثل تلك السلطة وتلك الإمامة والزعامة وتعبده لها ثم طاعته إياها ، كل ذلك بلا شك عبادة للطاغوت!

- **العبادة بمعنى الطاعة** : خذ بعد ذلك الآيات التي قد وردت فيها كلمة العبادة بمعناها الثاني فحسب؛ قال الله تعالى ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يس:٦٠] ، الظاهر أنه لا يتأله أحد للشيطان في هذه الدنيا، بل كل يلعنه ويطرده من نفسه، لذلك فإن الجريمة التي يصم بها الله تعالى بنى آدم يوم القيامة ليست تألههم للشيطان في الحياة الدنيا، بل إطاعتهم لأمره ، واتباعهم لحكمه ، وتسرعهم إلى السبل التي أراهم إياها. ، وقوله: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الصافات:٢٢-٣١] ، ويتضح بإنعام النظر في هذه المحاورة التي حكاها القرآن بين العابدين وبين ما كانوا يعبدون، أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة والأصنام التي كان يتأله لها القوم، بل المراد أولئك الأئمة والهداة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح، و تمثلوا للناس في لبوس القديسين المطهرين، فخدعوهم بسبحاتهم وجباتهم وجعلوهم تبعًا لهم، فالتقليد الأعمى لأولئك الخداعين ، والاتباع

• لأحكامهم هو الذي قد عبر الله عنه بكلمة العبادة في هذه الآية ، وقال ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١].

والمراد باتخاذ العلماء والأحبار أربابًا من دون الله ثم عبادتهم في هذه الآية هو الإيمان بكونهم مالكي الأمر والنهي، والإطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله أو الرسول ، وقد صرح بهذا المعنى رسول الله ﷺ نفسه في الأحاديث الصحيحة، فلما قيل له : « إننا لم نعبد علماءنا وأحبارنا، قال :ألم تحلوا ما أحلوه وتحرموا ما حرموه؟ قال : بلى ، قال : فتلك عبادتكم إياهم .

العبادة بمعنى التأله :

أما العبادة بمعنى التأله فيقول الأمير عنها : لننظر بعد ذلك في الآيات التي قد وردت فيها كلمة العبادة بمعناها الثالث ، وهو « التأله » ، وليكن منك على ذكر في هذا المقام أن العبادة بمعنى التأله تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه القرآن **أولهما** : أن يؤدي المرء لأحد من الشعائر كالسجود والركوع والقيام والطواف وتقبيل عتبة الباب والنذر والنسك، ما يؤديه عادة بقصد التأله والتنسك، ولا عبرة بأن يكون المرء يعتقده إلهًا أعلى مستقلا بذاته، أو يأتي بكل ذلك معتبرا إياه وسيلة للشفاعة والزلفى إليه ، أو مؤمنًا بكونه شريكًا للإله الأعلى ، وتابعًا له في تدبير أمر هذا العالم.

والثاني : أن يظن المرء أحدًا مسيطرًا على نظام الأسباب في هذا العالم ، ثم يدعوه في حاجته ، ويستغيث به في ضره وآفته، ويعوذ به عند نزول الأهوال ونقص الأنفس والأموال .

فهذان الوجهان كلاهما داخل في معاني التأله، والشاهد بذلك ما يأتي من آيات القرآن : ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ﴾ [غافر:٦٦] ، ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ ﴾ [مريم :٤٨].

﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[الأحقاف:٥] ، ففي كل من هذه الآيات الثلاث قد صرح القرآن نفسه بأن المراد بالعبادة فيها هو الدعاء والاستغاثة ، ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤١] ، والمراد بعبادة الجن والإيمان بهم في هذه الآية، تفصله الآية الآتية من سورة الجن﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾[الجن:٦] ، فيتبين منه أن المراد بعبادة الجن هو العياذ بهم ، واللجوء إليهم في الأهوال ونقص الأموال

والأنفس، كما أن المراد بالإيمان بهم هو الاعتقاد بقدرتهم على الإعاذة والمحافظة. ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾[الفرقان:١٧، ١٨] ، ويتجلى من بيان هذه الآية أن المقصود بالمعبودين فيها هم الأولياء والأنبياء والصلحاء ، والمراد بعبادتهم هو الاعتقاد بكونهم أجل وأرفع من خصائص العبدية، والظن بكونهم متصفين بصفات الإلوهية ، وقادرين على الإعانة الغيبية وكشف الضر، والإغاثة، ثم القيام بين يديهم بشعائر التكريم والتعظيم فيما يكاد يكون تألهًا وقنوتًا﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾[سبأ:٤٠]، والمقصود بعبادة الملائكة في هذه الآية هو التأله والخضوع لهياكلهم وتماثيلهم الخيالية، كما كان يفعله أهل الجاهلية، وكان غرضهم من وراء ذلك أن يرضوهم، فيستعطفوهم ويستعينوا بهم في شؤون حياتهم الدنيا .، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس:١٨] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر:٣]، والمراد بالعبادة في هذه الآية أيضًا هو التأله، وقد فصل فيها أيضًا الغرض الذي كانوا لأجله يعبدونهم وهو التزلف بهم إلى الله تعالى.

يتضح كل الوضوح من جميع ما تقدم من الأمثلة أن كلمة العبادة في القرآن قد استعملت في بعض المواضع بمعنيي العبودية والإطاعة، وفي الأخرى بمعنى الإطاعة فحسب، وفي الثالثة بمعنى التأله وحده والآن قبل أن نسوق لك الأمثلة التي قد جاءت فيها كلمة العبادة (شاملة لجميع المعاني الثلاثة)، لا بد أن تكون على ذكر من بعض الأمور الأولية.

أ) إن الأمثلة التي قد سردناها آنفًا، تتضمن جميعًا ذكر عبادة غير الله، أما الآيات التي قد وردت فيها كلمة العبادة (بمعني العبودية والإطاعة) فإن المراد بالمعبود فيها إما الشيطان، وإما الأناس المتمردون الذين جعلوا أنفسهم طواغيت ، فحملوا عباد الله على عبادتهم وإطاعتهم بدلا من عبادة الله وإطاعته ، أو هم الأئمة والزعماء الذين قادوا الناس إلى ما اخترعوه من سبل الحياة وطرق المعاش جاعلين كتاب الله وراء ظهورهم .

.ب) وأما الآيات ا لتي قد وردت فيها العبادة (بمعنى التأله)، فإن المعبود فيها عبارة إما عن الأولياء والأنبياء والصلحاء الذين اتخذهم الناس آلهة لهم على رغم أنف هدايتهم وتعليمهم، وإما عن الملائكة والجن الذين اتخذوهم لسوء فهمهم شركاء في الربوبية المهيمنة على قانون الطبيعة، أو هو عبارة عن تماثيل القوى الخيالية وهياكلها التي أصبحت وجهة عبادتهم ، وقبلة صلواتهم بمجرد إغراء الشيطان ، والقرآن

الكريم يعد جميع أولئك المعبودين باطلا ً ، ويجعل عبادتهم خطأ عظيمًا سواءًا تعبدهم الناس أو أطاعوهم ، أم تألهوا لهم، ويقول إن جميع من طفقتم تعبدونهم عباد ا لله وعبيده، فلا يستحقون أن يعبدوا ، ولا أنتم مكتسبون من عبادتهم غير الخيبة والمذلة والخزي، وأن مالكهم في الحقيقة ومالك جميع ما في السماوات والأرض هو الله الواحد، وبيده كل الأمر وجميع السلطات والصلاحيات ، ولأجل ذلك لا يجدر بالعبادة إلا هو وحده ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٤] ، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأنبياء :٢٦-٢٨].

ج)كذلك بعد أن يقيم القرآن البرهان على كون جميع من عبدهم الناس بوجه من الوجوه عبيدًا لله وعاجزين أمامه، يدعو جميع الإنس والجن إلى أن يعبدوا الله تعالى وحده بكل معنى من معاني العبادة المختلفة، فلا تكن العبدية إلا له، ولا يطاع إلا هو، ولا يتأله المرء إلا له، ولا تكن حبة خردل من أي تلك الأنواع للعبادة لو جه غير الله ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر:١٧] ، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس] .

لقد أمر الله تعالى في هذه الآيات أن تختص له العبادة التي هي عبارة عن العبدية والعبودية والإطاعة والإذعان، وقرينة ذلك واضحة في الآيات، فإن الله تعالى يأمر فيها أن اجتنبوا إطاعة الطاغوت والشيطان والأحبار والرهبان والآباء والأجداد واتركوا عبديتهم جميعًا، وادخلوا في طاعة الله الواحد الأحد وعبديته﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٦]، ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾[فاطر:١٣] ، ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[المائدة:٧٦] ، وقد أمر الله تعالى في هذه الآيات أن تختص له العبادة بمعنى التأله .وقرينة ذلك أيضًا واضحة في الآية، وهو أن كلمة العبادة قد استعملت فيها بمعنى الدعاء وقد جاء فيما سبق وما لحق من الآيات ذكر الآلهة الذين كانوا يشركونهم بالله تعالى في الربوبية المهيمنة على ما فوق الطبيعة.

فالآن ليس من الصعب في شيء على ذي عينين أن يتفطن إلى أنه حيثما ذكرت في القرآن عبادة الله تعالى ولم تكن في الآيات السـابقة أو اللاحقة مناسـبة تحصـر كلمة العبادة في معنى بعينه من المعاني المختلفة للكلمة، فإن المراد بها في جميع هذه الأمكنة معانيها الثلاثة « العبودية والإطاعة والتأله» .

فلا داعي لأن تخص كلمة العبادة في هذه ا لآيات وما شاكلها بمعنى التأله وحده، أو بمعنى العبدية والإطاعة فحسب، بل الحق أن القرآن في مثل هذه الآيات يعرض دعوته بأكملها ، ومن الظاهر أنه ليست دعوة القرآن إلا أن تكون العبدية والإطاعة والتأله، كل أولئك خالصًا لوجه الله تعالى ، ومن ثم إن حصر معاني كلمة (العبادة) في معني بعينه، في الحقيقة، حصــر لدعوة القرآن في معان ضـيقة ومن نتائجه المحتومة أن يكون اتباعه لهذه المعانى اتباعا ناقصـا فلابد من تناول مصـطلح العبادة بهذا الشـمول وتلك المعا نى كلها ، ليســتقيم لنا فهم القرآن الكريم ومقاصــد الشــرع الحكيم .، ولعلنا بذلك نكون وقفنا على المعنى الجامع للعبادة « العبودية ، والإطاعة ، والتأله » .

أنهى الأمير حديثه وجلس ينتظر الشيخ ، وكله ثقة بأنه لابد أن يقول شيئا ، نعم هو لايعرف مايدور بذهن الشــيخ وما يجول بخاطره ، لكن قد بدت على الشــيخ علامات ، ترى ماذا يعتمل بداخله ؟، وفيما يقلب الشــيخ أفكاره ؟، إنى لأراه يتأهب للحديث ، نظر الشــيخ إلى الأمير ، ليرى وجهه متهللا ، رآه منتفخا كالطاوس كأنما فاز بغريمه ، ثم قال له :-

أليس قد ورد فى الحديث «أن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين» ؟ فمالى أراك و قد تكررت لدغاتك ، وتشابهت أخطاؤك ؟، فى كل مرة تنزع نفس المنزع ، وتقع فى نفس الشرك الذى نصبته لنفسك ، أو نصب لك حتى صرت فيه أسيرا ، رغم أنك تصول بفكرك وتحلق بكلامك ، وتشيح بوجهك تارة ، وتشير بيدك أخرى ، ولاتقدر أن تتخلص من الفخ والشــرك الذى وقعت فيه لكن لايأس عندى أيها الأمير ولاملالة ، وزادى قوله تعالى ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴾ ، فاسمع منى نفعنى ونفعك الله تعالى .

أولا : إنها نفس الأخطاء تكررها ، لقد ســويت بين الأصــل والفرع ، بل جعلت الفرع أصــلا، ونقلت الأصــل إلى موقع الفرع ، ثم أخذت تفســر وتشــرح وترتب القواعد بناءا على تصــورك الجديد ، إن التعريف اللغوى لكلمة «العبادة» لا خلاف بشأنه ، العبادة والعبودية والعبدية : أى الخضوع والتذلل ، هذا هو معناها الأول والأ صلى والأ ساس فى اللغة ، والخ ضوع والتذلل فى الإ نسان انما يكون بخ ضوع القلب وانك ساره و شعوره بالحاجة والافتقار إلى الله ، وهذه المعانى تتحقق أول ماتتحقق على م ستوى الفرد ، فهى حالة فردية فى الأساس ، وحالة قلبية فى المقام الأول . أما الطاعة والإتباع ، فهى تابع من توابعها ، ومظهر من مظاهرها ،

ومقتضى من مقتضياتها ، ولازم من لوازمها ، فالعبد الذى يصدق فيه و صف العبودية أو العبدية لابد أن يطيع ويتبع تعاليم سـيده وأوامره ، وينفذ تكاليفه ، لاشـك فى ذلك لكنه يقوم بهذه الأعمال بعد أن يتصـف بالعبودية وينزل منزلتها ، فالطاعة والاتباع هما برهانان على صدق العبودية ، وليسا هما العبودية ، وهما و سيلة للتعبير عن تحقيق العبودية ، وليسـا هما الغاية منها . فالعبودية والعبادة غاية، والطاعة والاتباع هما الوسـيلة لتحقيق هذه الغاية ومظهر من مظاهرها . ولذلك إن سـلمت معك بالمعنى اللغوى فلا أسـلم لك بشـرحك وتفسيرك للعبادة بقوك نقلا عن المودودى أيضا وهو يفسر العبادة « أى استسلام المرء وانقياده لأحد غيره ، انقيادا لا مقاومة معه ولاعدول عنه ، ولاعصيان فيه حتى يتبعه فيستخدمه حسب مايرضى وكيف يشاء ، » ، هكذا قلت أيها الأمير، والصـحيح كما سـمعت أنك قد خلطت بين العبادة وبين مقتضـياتها وآثارها أثناء تفسيرك للمعنى اللغوى للعبادة فجعلت العبادة هى « عدم المقاومة ، وعدم العصيان ، والاتباع » بالرغم أن هذه الثلاث إنما هى توابع من توابعها ومقتضى من مقتضياتها ، وليست هى معناها الأصلى ..

- ولئن كان المعنى اللغوى للعبادة هو مطلق الخضوع والذل ، فهى ليست بهذا الاطلاق فى الشرع ، وإنما هى خضـوع وذل بصـورة معينة، « خضـوع تام مقترن بمنتهى الحب لله تعالى» ، فالعبادة كما يعرفها العلماء فى الشريعة ، «هى كمال الحب لله مع كمال الذل له سبحانه وتعالى» ، تجمع بين الحب والتعظيم، بين الافتقار إليه ، والإجلال له ، والرغبة فيه ، والركون إليه ، وكلا من الحب والذل معان قلبية كما تعرف وإنما ينعكس أثرها بعد ذلك على الجوارح والأعمال الظاهرة للإنسـان ، وفى هذا يقول ابن كثيرعن العبادة : (في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف).اهـ [التفسير ١/ ٢٥].

ويقول الدكتور محمد أحمد عبد القادر : « والعبادة المأمور بها، يؤديها المسلم وهو ذليل خاضع لمولاه، مع حبه له، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية الحب له، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى، فمن خضع لإنسان وهو يبغضـه لم يكن عابدًا له، ومن أحب إنسـانًا ولم يخضـع له، لا يسـمى عابدًا له، فحب الرجل لولده وأهله لا يسـمى عبادة لأنه حب طبيعي، وفي حق الله تعالى لا يكفي أحدهما منفردًا عن الآخر، فالخضـوع الذي ليس فوقه خضوع والحب الذي ليس فوقه حب، هو حق لله وحده ولا يستحقه غيره» ، أما ابن تيمية فيطلقها على عموم مايتقرب به إلى الله ممايحبه ويرضاه ، فيقول « العبادة اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة .....» ، ثم بدأ يعدد مظاهرها وصـورها ومناسـكها . ولايفوتنك أن التقرب لابد أن يلازمه الإقبال والحب والرغبة ، فخضوع القلب وذله ، وافتقاره وشوقه إلى الله هو المعنى الأصلى للعبادة ، أما مناسكها

ومفرداتها فهى المظاهر اللازمة لتحققها فى الخارج ، والتى تستلزم طاعة العبد لسيده ، واتباعه أوامره ، وفعل مايحبه واجتناب مايكرهه ويبغضه ، ولقد فصل الإمام ابن تيمية فى رسالته العبودية فى ذلك ، وكذا تلميذه ابن القيم فى تفسيره ، وفى مدارج السالكين ، ولبيان أن العبادة أصلها المعنى القلبى أسوق فى ذلك مثلا يوضح الصورة وهو قول الرسول ﷺ « الدعاء هو العبادة » ، هل معنى ذلك أن الدعاء فقط هو العبادة ؟ ، أو أن العبادة هى الدعاء فقط ؟ ، بالتأكيد ليس المقصود هذا ولاذاك، فالكل يعلم يقينا أن للعبادة صورا وفروعا كثيرة ، وفى الحديث الصحيح «إن شرائع الإسلام قد كثرت ....» ، فليس الدعاء وحده هو العبادة ، كما أنها ليست هى الدعاء فقط ، لكن جعل الرسول ص الدعاء هو العبادة ، لأنه يشتمل على معناها الحقيقى الأصلى ، وكذلك معناها الفرعى والاقتضائى ، فالعبد عندما يستشعر حاجته إلى ربه، ويحس بافتقاره إليه ، ويراه رحيما ودودا عطوفا بخلقه ، ويتولد فى داخله التعظيم له ، والشوق إليه وحبه ، فيتجلى الله فى قلب هذا الشخص بصفات الجلال و صفات الجمال ، وهذه هى حقيقة العبادة وروحها ، هنا و ساعتها يتوجه المرء بقلبه، ويمد يديه ، يسأله سبحانه ويدعوه بعدما قامت معانى العبودية فى قلبه، وملكت عليه نفسه ، أما أن يمد يديه وقلبه لا يشعر بالفقر والانكسار والإجلال والحب لله سبحانه والشوق إليه ، فان الله لايقبل من قلب ساه لاه كما هو معلوم ، ولعلنا بذلك نكون قد وضحنا الفارق بين المعنى الأصلى وبين المعنى الاقتضائى للعبادة الذى قد وقع الخلط بينهما فيما نقلته من كلام المودودى، يقول وحيد الدين مبينا حقيقة العبادة فى رده على كلام المودودى : «وهى تأله العبد إلى الله ، فيدعوه ويتوجه إليه متضرعا وخاشعا ، ويركن ويحنف إليه بشكل كامل ، فهذة هى روح العبادة وحقيقتها ، ولكن لكل حقيقة جوانب تنشأ حسب اعتبارات مختلفة عند الإنسان ، وحسب علاقاته وأحواله ، وحقيقة العبادة أيضا لها مظاهر خارجية ، وبهذا الاعتبار يندرج فى فهرس العبادة سائر نظام الطاعة ، إذ من مقتضيات العبادة اللازمة أن يطيع المؤمن الله تعالى فى كل شؤونه ومعاملاته ، وعلاقة العبودية تظهر فى صورة الطاعة ، وليست العبادة عبادة حقيقية إذا وجد معها طغيان وعناد ...» ، هكذا يفرق بين العبادة وبين الطاعة ، فالثانية هى مقتضى الأولى وصورة من صورها . لعلك تسأل أيها الأمير وماذا تفيدنا هذه التفرقة مادامت العبادة لابد أن تترجم إلى طاعة ؟ ولقد سبقت الإجابة على هذا التساؤل من قبل ، أن التفرقة بين المعنيين هو تفرقة بين الوسيلة والغاية ، فالغاية مطلوبة فى كل الأوقات وكل الأحوال ، لاتسقط عن المرء تحت أى ظرف ، بينما الوسيلة تكون مطلوبة وواجبة بحسب الظروف والوسع والطاقة ، وقد تسقط عن المرء حينا إما لعدم توفر شروطها ،أو لوجود موانع دونها، فالعبادة غاية لاتسقط بحال ، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ ، بينما الطاعة بحسب الطاقة ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ ، وفى الحديث « إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم » ، العبادة غاية لا تسقط أبدا عن المرء ،

بينما الزكاة مثلا وسـيلة ومظهرمن مظاهر العبادة ، هذه الزكاة ليسـت مفروضـة ولا مطلوبة من الكافة ، لكنها مفروضة على طائفة بعينها ، وقد تسقط عنهم بسبب عدم توفر الشروط كشرط بلوغ النصاب مثلا ، أو عدم مرور الحول عليها ، كما تسقط عن المرء الذى يملك النصاب ، وانقضى على هذا النصاب حول كامل ، قد تسقط عنه الزكاة لوجود مانع كدين يجب على الإنسان أداؤه ، فبرغم فرضيتها وتوافر شروطها سقطت عنه لوجود مانع من الأداء بحق هذا الشـخص بعينه، وهو بعدم أدائه لها ليس مقصـرا فى العبادة ، لأنها فى الأصل غير ثابتة فى حقه .

ثانيا : أنك فى كلامك قد عكست الترتيب ، فبدلا أن تقدم الخضوع وذل القلب وافتقاره وحبه لله وتجعله هو الأصل ، وهذا هو المعنى الحقيقى الأصلى للعبادة ، نراك قدمت الطاعة والاتباع والإذعان ، قبل خضوع القلب وذله وحبه لله تعالى وإحساسه بالافتقار والإجلال له ، حيث نقلت عن المودودى قوله : «ويتضح من هذا الشرح اللغوي لمادة (ع ب د) أن مفهومها الأساسي أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلبته، ثم ينزل له عن حريته واستقلاله ويترك إزاءه كل المقاومة والعصيان وينقاد له انقيادًا . وهذه هي حقيقة العبدية والعبودية،» . ..... إلى قوله « وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي إطاعة سيده وامتثال أوامره، فحتمًا يتبعه تصور الإطاعة » ..... ثم يقول المودودى في وضوح : « ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ، ويعترف بعلو شأنه وكان قلبه مفعمًا بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه ويتفنن في إبداء الشكر على الآئه وفي أداء شعائر العبدية له، وكل ذلك اسمه التأله والتنسك . وهذا التصور لا ينضم إلى معاني العبدية إلا إذا كان العبد لا يخضع لسيده رأسه فحسب، بل يخضع معه قلبه أيضا.... » وهنا ملاحظات ثلاث إحداها : قوله عن الإذعان وترك المقاومة وعدم العصيان « وهذه حقيقة العبدية والعبودية » بالرغم أن هذا هو المعنى التبعى، وليس المعنى الحقيقى كما سبق بيانه .

الثانية : قوله « وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هى إطاعة سيده ... » ، هذه ليست الوظيفة الحقيقية ، إنما هى وظيفة تبعية للعبودية، وهى وسـيلة من وسـائل تحقيقها، والوظيفة الحقيقية هى العبادة بمعنى خضـوع القلب وافتقاره وتعظيمه وحبه لسيده ، وإخلاصه له وحده ، وهذه كلها محلها القلب كما سبق ذكره ، وبها ورد النص ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وهى حق الله كما ورد فى حديث معاذ « أتدرى ماحق الله على العباد ، وماحق العباد على الله ؟ ، ثم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ...» البخارى ، ولم يقل « أن يطيعوه » .

الثالثة : قوله « ثم إذا كان العبد لم يقف به الأ مر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللاً ، بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه ، وكان قلبه مفعما بعواطف الشكر ....» ، انظر كيف عبر بكلمة ثم التى تفيد التراخى ، ليجعل الطاعة والتذلل مقدما على الإقرار بعلائه سبحانه ، وإفعام قلبه بشكره ، والاعتراف بعلو شأنه » ، رغم أن العرفان بالعلاء ، والإقرار بالعلو، والقلب المفعم بالشكر، كل هذه هى الأساس فى العبادة والأصل لها، وهى سابقة على الطاعة ، وليست الطاعة التى جعلتها أنت والمودودى مقدمة على المعانى القلبية كما ترى فى كلامه .

قد ترى فى كلام المودودى ذكر العبادة بمعناها الأصلى الذى هو يملأ القلب ، وبمعناها الاقتضائى التبعى الذى هو الطاعة والاتباع ، نعم هذا صحيح ، لكن الترتيب قد اختلف ، فهو هنا قدم الطاعة على الخضوع والذل القلبى والإكبار للخالق والافتقار إليه وملء القلب بحبه ، فقد جعل الطاعة أولا ، وجعل هذه كلها ثانيا ، برغم كونها هى الأصل .

إن هذا التغيير وهذا التقديم والتأخير إنما حدث نتيجة خطأ فى تصور طبيعة الرسالة الإسلامية والدين الإسلامى ، فبدلا من جعله الدين علاقة قلبية داخلية نفسية فى الأساس بين العبد وربه ، ثم يترتب عليها مظاهر وأعمال و شرائع ، كان التصور للدين عنده على عكس ذلك ، إذ جعله أمرا وطاعة ، نظاما وانضباطا ، كما سنرى عند حديثنا عن مفهوم الدين عند المودودى أيها الأمير .

لقد انقلب الأمر بسبب هذا الترتيب المغلوط ، فأصبحت العلاقة بين العبد وربه علاقة ظاهرية فى الأساس، وبالتالى انكمش الجانب الروحى لهذه العلاقة رغم أنه هو المطلوب الأول، و هذه المظاهر وغيرها إنما هى وسائل لتحقيقه وتزكيته ، وهى المطلوب الثانى ، كما أنها ثمرة من ثمار تحقيقه ، فمن عبد الله أطاعه ، لكننا نرى كأن الله تعالى شأنه فى هذا التعريف الجديد الذى تراه أنت ويراه المودودى يسوق خلقه إليه سوقا بالسياط والإذلال والتخويف ، على الرغم أنه فى الحقيقة رحمته سبقت وغلبت غضبه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ، ونرى المودودى يقول بوضوح لالبس فيه : « العبادة من العبد، ومعنى العبد الخادم ، فمعناها الطاعة والامتثال الكامل » ، انظر إنه لم يقل هى الحب والذل لله، ولاهى الرغبة والرهبة ، وإنما جعلها الطاعة والامتثال الكامل . أى هى عنده الأمر والتنفيذ فقط ، دون الالتفات إلى الروح والقلب الذى هو الأساس .

ثالثا : قد ذكرت أن العبادة فى اللغة تطلق على معان خمسة فقلت : « ومن هذا الأصل اللغوي نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والإطاعة والتأله والخدمة والقيد والمنع» ، ونقلت المعانى الخمس عن لسان العرب ، ولست أدرى لماذا اقتصرت على هذه الخمس برغم وجود عشر معان للكلمة فى لسان العرب ، لماذا لم تلحق بها غيرها ؟

• ثم إنك ذكرت ا ستعمال القرآن المعانى الثلاثة الأوائل كمعانى أ سا سية لكلمة العبادة ، وقد وردت فى القرآن – بحسب كلامك – مجتمعة أو منفردة، ثم ذهبت تدلل على كلامك بالعديد من الآيات فقلت : « وإذا رجعنا إلى القرآن بعد هذا التحقيق اللغوي رأينا أن كلمة العبادة قد وردت فيه غالبًا في المعاني الثلاثة الأولى ، ففي بعض المواضع قد أريد بها المعنيان الأول والثاني معًا، وفي الأخرى المعنى الثاني وحده، وفي ا لثالثة المعنى الثالث فحسب، كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آن واحد.....» .

• أولا : القرآن لم يستخدمها جميعا كمعان أساسية كما تصورت أيها الأمير ، إنما استخدمها بمعان مختلفة منها ما هو أساس ومنها ما هو اقتضائى كما سبق بيانه ودليلنا على ذلك أن الآيات التى ذكرتها لا تثبت ما ذهبت إليه وخذ لذلك مثلا العبادة بمعنى الطاعة ذكرت قوله تعالى فى سورة الصافات ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ....إلى قوله ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ .....» الآيات . ثم عقبت قائلا : « ويتضح بإنعام النظر في هذه المحاورة التي حكاها القرآن بين العابدين وبين ما كانوا يعبدون، أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة والأ صنام التي كان يتأله لها القوم، بل المراد أولئك الأئمة والهداة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح، و تمثلوا للناس في لبوس القديسين المطهرين، فخدعوهم بسبحاتهم وجباتهم وجعلوا تبعًا لهم، والذين أشاعوا فيهم الشر والفساد باسم النصح والإصلاح . فالتقليد الأعمى لأولئك الخداعين والإتباع لأحكامهم هو الذي قد عبر الله عنه بكلمة العبادة في هذه الآية) ..

وحقيقة اللبس فى المسألة أنك اعتبرت هذا الحوار قد دار بين المشركين وبين شركائهم ، أى بين العابدين ومعبوديهم ، وجعلت المعبودين هم الأئمة الطاغين وال شيوخ الم ضلين ، وأنهما ا شتركا سويا فى العذاب ، واعتبرت أنهم أ شركوا لما أطاعوهم ، وهذا الت صور غير صحيح لأن الآية ذكرت ثلاث طوائف ، الأولى : هم الذين ظلموا ، والثانية : أزواجهم ، والطائفة الثالثة : ما كانوا يعبدون من دون الله ، وبالنظر فى السورة التى وردت بها الآيات نجد أن أئمة الضلالة ورؤساء الكفر الذين عبر عنهم القرآن بالظالمين والمستكبرين والملأ قد ردوا دعوة النبى قائلين: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ ، فقد اعترفوا أنهم

عابدون وليســوا معبودين، وإنما دار هذا الحوار بين أصــناف من الظالمين المشــركين ، أو بينهم وبين أزواجهم ، وليس بين العابدين وآلهتهم ، فليس ثمة مجال لقصــر تفســير العبادة هنا بالطاعة للائمة والعلماء المضلين ،

قال الطبرى : الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾. يَقُولُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – : قَالَتِ الإِنْسُ لِلْجِنِّ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْجِنُّ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا مِنْ قِبَلِ الدِّينِ وَالْحَقِّ فَتَخْدَعُونَنَا بِأَقْوَى الْوُجُوهِ ، وَالْيَمِينُ : الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

يَعْنِي : بِالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ . عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ قَالَ : عَنِ الْحَقِّ ، الْكُفَّارُ تَقُولُهُ لِلشَّــيَاطِينِ . عَنْ قَتَادَةَ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ قَالَ : قَالَتِ الْإِنْسَ لِلْجِنِّ : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالَ : مِنْ قِبَلِ الْخَيْرِ ، فَتَنْهَوْنَنَا عَنْهُ ، وَتُبَطِّئُونَنَا عَنْهُ . عَنِ السُّــدِّيِّ ، فِي قَوْلِهِ ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ قَالَ : تَأْتُونَنَا مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ تُزَيِّنُونَ لَنَا الْبَاطِلَ ، وَتَصُدُّونَنَا عَنِ الْحَقِّ . قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ قَالَ : قَالَ بَنُو آدَمَ لِلشَّــيَاطِينِ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالَ : تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَيْرِ ، وَرَدَدْتُمُونَا عَنِ الإِســلام وَالإِيمَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ . وَقَوْلُهُ ﴿ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ ﴾ يَقُولُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ: قَالَتِ الْجِنُّ لِلْإِنْسِ مُجِيبَةً لَهُمْ بَلْ لَمْ تَكُونُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ مُقِرِّينَ ، وَكُنْتُمْ لِلأَصْنَام عَابِدِينَ ،﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ ﴾ يَقُولُ : قَالُوا : وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ حُجَّةٍ، فَنَصُــدَكُمْ بِهَا عَنِ الْإِيمَانِ ، وَنَحُولَ بَيْنَكُمْ مِنْ أَجْلِهَا وَبَيْنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ ﴾ يَقُولُ : قَالُوا لَهُمْ : بَلْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ قَوْمًا طَاغِينَ عَلَى اللَّهِ، مُتَعَدِّينَ إلى مَا لَيْسَ لَكُمُ التَّعَدِّي إِلَيْهِ مِنْ مَعْصِــيَةِ اللَّهِ وَخِلَافِ أَمْرِهِ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ . عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : قَالَتْ لَهُمُ الْجِنُّ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿قَوۡمًا طَٰغِينَ ﴾... عَنِ السُّدِّيِّ ، فِي قَوْلِهِ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ ﴾قَالَ : الْحُجَّةُ وَفِي قَوْلِهِ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ ﴾ قَالَ : كُفَّارٌ ضُــلَّالٌ ، فهذا الإمام الطبرى يفســر الحوار انه دار بين الإنس والجن ، أو بين الإنس والشيطان ، وينقل ذلك عن العلماء السابقين .

وقال : ابن كثير :يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ، ﴿ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر : ٤٧ ، ٤٨]. وقال﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ : ٣١ – ٣٣]. قالوا لهم هاهنا : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ،قال الضحاك ، عن ابن عباس : يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء . وقال مجاهد :يعني : عن الحق ، الكفار تقوله للشياطين .

وقال قتادة : قالت الإنس للجن : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ،قال : من قبل الخير ، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه .

وقال السدي تأتوننا [عن اليمين] من قبل الحق ، تزينون لنا الباطل ، وتصدونا عن الحق وقال الحسن في قوله : ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ (إي والله ، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه .

وقال ابن زيد :معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به .

وقال يزيد الر شك :من قبل « لا إله إلا الله » . وقال خ صيف : يعنون من قبل ميامنهم . وقال عكرمة ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ ، قال : من حيث نأمنكم .

وقوله : ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ تقول القادة من الجن ، والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان ، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾ أي : من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴾ أي : بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلهذا ا ستجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به ، فخالفتموهم . فهاهو ابن كثير يعتبر الحوار قد دار بين الكفار بعضهم مع بعض ، ولم يذكر المشركين والشركاء . ولا الشيوخ المضلين .

وقال ابن عاشور : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ عطف على « مستسلمون » أي استسلموا وعاد بعضهم على بعض باللائمة ، والمتسائلون : المتقاولون وهم زعماء أهل الشرك ودهماؤهم كما تبينه حكاية تحاورهم من قوله ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ وقوله « فأغويناكم » إلخ .

وعبر عن إقبالهم بصيغة الماضي وهو مما سيقع في القيامة ، تنبيها على تحقيق وقوعه ؛ لأن لذلك مزيد تأثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم ، وتحذير دهمائهم من الاعتزاز بتغريرهم ، مع أن قرينة الاستقبال ظاهرة من السياق من قوله ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ الآية .

والإقبال : المجيء من جهة قبل الشيء ، أي من جهة وجهه وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المتختل الخائف . واستعير هنا للقصد بالكلام والاهتمام به كأنه جاءه من مكان آخر .

فحاصل المعنى حكاية عتاب ولوم توجه به الذين اتبعوا على قادتهم وزعمائهم، ودلالة التركيب عليه أن يكون الإتيان أطلق على الدعاية والخطابة فيهم لأن الإتيان يتضمن القصد دون إرادة مجيء ، كقول النابغة : أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة وقد تقدم استعماله واستعمال مرادفه وهو المجيء معا في قوله ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الآية في سورة الحجر .

أو أن يكون اليمين مرادا به جهة الخير لأن العرب تضيف الخير إلى جهة اليمين .وقد اشتقت من اليمن وهو البركة ، وهي مؤذنة بالفوز بالمطلوب عندهم وعلى ذلك جرت عقائدهم في زجر الطير والوحش من التيمن بالسانح ، وهو الوارد من جهة يمين السائر ، والتشاؤم ، أي ترقب ورود الشر من جهة الشمال .

وكان حق فعل « تأتوننا » أن يعدى إلى جهة اليمين بحرف (من) ، فلما عدي بحرف (عن) الذي هو للمجازاة تعين تضمين « تأتوننا » معنى « تصدوننا» ليلائم معنى المجاوزة ، أي تأتوننا صادينا عن اليمين ، أي عن الخير . فهذا وجه تفسير الآية الذي اعتمده ابن عطية والزمخشري وقد اضطرب كثير في تفسيرها . قال ابن عطية ما خلاصته : اضطرب المتأولون في معنى قولهم « عن اليمين » فعبر عنه ابن زيد وغيره بطريق الجنة ، ونحو هذا من العبارات التي هي تفسير بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة ، وبعضهم أيضا نحا في تفسيره إلى ما يخص اللفظة فتحصل من ذلك معان منها : أن يريد باليمين القوة والشدة قلت : وهو عن ابن عباس والفراء فكأنهم قالوا : إنكم كنتم تغروننا بقوة منكم ، ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا :

تأتوننا من الجهة التي يحسـنها تمويهكم وإغواؤكم وتظهرون فيها أنها جهة الرشـد ، وهو عن الزجاج والجبائي ، ومما تحتمله الآية أن يريدوا : إنكم كنتم تأتوننا ، أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمن ، فعبروا عنها باليمين ، ومن المعاني أن يريدوا : أنكم تجيئون من جهة الشهوات وعدم النظر لأن جهة يمين الإنسان فيها كبده ، وجهة شماله فيها قلبه ، وأن نظر الإنسان في قلبه ، وقيل : تحلفون لنا . أ.هـ .

وجواب الزعماء بقولهم ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ إضراب إبطال لزعم الأتباع أنهم الذين صدوهم عن طريق الخير ، أي بل هم لم يكونوا ممن يقبل الإيمان لأن تسـليط النفي على فعل الكون دون أن يقال : بل لم تؤمنوا ، مشعر بأن الإيمان لم يكن من شأنهم ، أي بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان . ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي من قهر وغلبة حتى نكرهكم على رفض الإيمان ، ولذلك أكدوا هذا المعنى بقولهم : ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ ، أي كان الطغيان ، وهو التكبر عن قبول دعوة رجل منكم ، شأنكم و سجيتكم ، فلذلك أقحموا لفظ « قوما » بين « كان » وخبرها لأن اسـتحضـارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن بأن الطغيان من مقومات قوميتهم ، كما قدمنا عند قوله تعالى ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في سورة البقرة .

وفرعوا على كلامهم اعترافهم بأنهم جميعا اسـتحقوا العذاب ، فقولهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ ، تفريع الاعتراض ، أي كان أمر ربنا بإذاقتنا عذاب جهنم حقا . وفعل (حق) بمعنى ثبت .

وفى روح المعانى : ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم، وأصل الاستسلام طلب السلامة، والانقياد لازم لذلك عرفا؛ فلذا استعمل فيه، أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضا للهلاك ويخذله، وجوز في الإضـراب أن يكون عن مضـمون ما قبله أي لا ينازعون في الوقوف وغيره بل ينقادون أو يخذلون، أو عن قوله سبحانه ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي لا يقدر بعضهم على نصر بعض بل هم منقادون للعذاب أو مخذولون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤسـاء المضـلون أو الكفرة من الإنس وقرناؤهم من الجن، وروي هذا عن مجاهد وقتادة وابن زيد يتساءلون يسأل بعضهم بعضا سؤال تقريع بطريق الخصومة والجدال . ، هكذا يوضـح ابن عاشـور ان الحوار قد وقع بين الاتباع والكبراء المتبوعين . لم يذكر الشـيوخ والائمة المضلين .

يقول وحيد الدين : « وسر الخطأ في تفسيره العبادة بمعنى الطاعة المدنية يكمن في حوار جرى بين فريقى العابدين الذين كانوا يعبدون آلهة من دون الله ، والمؤلف ظن أنه حوار بين العابدين والمعبودين وذلك لأنه ترجم هذه الآية ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ كالتالى ، فترد عليهم معبوداتهم ....» ، وقد رأينا أنه حوار بين

الإنس والجن ، أو بين بنى ادم والشـيطان ، ، أو هم الأتباع والرؤسـاء كرأى من الآراء وليس هو الرأى الوحيد المذكور في الآية ، لكن المودودى الذى نقلت عنه أيها الأمير أبرزه وأهمل ماسـواه ليؤكد على مذهبه في تفسير العبادة بالطاعة ، ويلصقها بطاعة الزعماء وتقليد العلماء ، ليخلص إلى أن الطاعة السيا سية للأمراء المضـلين بمجردها إنما هى عبادة لهم ، وقد رددنا على ذلك موضـحين أن مجرد الطاعة لاتعد عبادة مالم تقترن بالحب والتعظيم ، أو إعطاء المطاع صفات الله التى لا تكون إلا له سبحانه ، كحق التحليل والتحريم ، أو السيادة المطلقة التى ليس فوقها سيادة ، وذلك عندما نعرض لتفسير آية التوبة وقصة عدى بن حاتم عن عبادة الأحبار والرهبان ، بل إن المودودى نفسـه في بعض المواضـع يوضـح أن العبادة إنما هى الطاعة في الظاهر والباطن فيقول : « والمراد باتخاذ العلماء والأحبار أربابًا من دون الله ثم عبادتهم في هذه الآية هو الإيمان بكونهم مالكي الأمر والنهي، والإطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله أو الرسول ، وقد صرح بهذا المعنى رسول الله ﷺ نفسه في الأحاديث الصحيحة، فلما قيل له : «إننا لم نعبد علماءنا وأحبارنا، قال : ألم تحلوا ما أحلوه وتحرموا ما حرموه؟ قال : بلى ، قال : فتلك عبادتكم إياهم .انظر لقوله : هو الإيمان بكونهم مالكى الأمر والنهى ، والإطاعة لأحكامهم بدون سـند من عند الله أو الرسـول » يتبين لك المعنى ، ويأتى مزيد بيان لها بعد ذلك بإذن الله ، وأؤكد أن الطاعة ليست هى العبادة بمعناها الا صلى إنما هى مقتضى وأثر ولازم من لوازمها ، وهذا ليس متواجدا كما ترى في آية الصافات .

أما المعنى الثانى للعبادة الذى تحاول اثباته من خلال القرآن وهو « العبودية والإطاعة » وتسـتدل له بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ ، فإن الناظر في هذه الآية يتأكد له أنها تدل على مذهبنا وليس على مذهبك أيها الأمير ، إنها تقول للمؤمنين وتناديهم بوصـف الإيمان ، وهذا معناه أنهم لايعبدون غير الله ، وإلا كيف تناديهم بالإيمان وهم لايعبدونه وحده ؟ ثم هى تقول لهم : إن كنتم تعبدون الله وحده فكلوا الحلال الطيب وا شكروه عليه ، ومعنى ذلك أن العبادة تقتضى طاعته في تناول الحلال وترك الحرام ، وهذا مانقوله من أن الطاعة مقتضى للعبادة وليست هى العبادة بمجرد إطلاقها ، أى أن الطاعة ليست هى العبادة بمعناها الأصلى، وإنما هى عبادة بمقتضى المعنى ولازمه ، والآية كما ترى لم تتعرض للآلهة والشـركاء في شـىء ، وإنما تخاطب المؤمنين بمقتضـى إيمانهم وعبادتهم فكيف يستدل بها على أن الطاعة والعبودية هما العبادة ؟

- بينما المعنى الجامع للعبادة : الذى تستدل له بمجموعة من الآيات وتقصد بها « العبدية والإطاعة والتأله » ، مستشهدا بقوله تعالى في سورة يونس ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ الآيات فليس

- فيها طاعة، وإنما هى عبادة الأصنام والأوثان ،قال الإمام الطبرى : « القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل ، يا محمد ، لهؤلاء المشركين من قومك الذين عجبوا أن أوحيت إليك : إن كنتم في شك ، أيها الناس ، من ديني الذي أدعوكم إليه ، فلم تعلموا أنه حقّ من عند الله: فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عني شيئًا ، فتشكُّوا في صحته. وهذا تعريض ولحنٌ من الكلام لطيف ... وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شك من ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئًا ولا تضر ولا تنفع. فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، لأني أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إن شاء ، وينفعهم ويضرُّهم إن شاء . وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة. وأما عبادة الأوثان فينكرها كل ذي لبٍّ وعقلٍ صحيح.

- وقوله : ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾، يقول: ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم فيميتكم عند آجالكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، يقول: وهو الذي أمرني أن أكون من المصدّقين بما جاءني من عنده.»

- **وفى تفسير الجلالين** : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أي أهل مكة «إن كنتم في شك من ديني» أنه حق «فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله» أي غيره ، وهو الأصنام لشككم فيه «ولكن أعبد الله الذي يتوفّاكم» يقبض أرواحكم «وأمرت أن» أي بأن «أكون من المؤمنين»

- **وفى التفسير الميسر** : « قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم إليه، وهو الإسلام ومن ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه، فإني لا أعبد في حال من الأحوال أحدًا من الذين تعبدونهم مما اتخذتم من الأصنام والأوثان، ولكن أعبد الله وحده الذي يميتكم ويقبض أرواحكم، وأُمِرْت أن أكون من المصدِّقين به العاملين بشرعه ».

- **وعند ابن كثير** : « يقول تعالى لرسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : قل : يا أيها الناس ، إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم من الدين الحنيف ، الذي أوحاه الله إلي ، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقا ، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين. » ، فالآيات كما ترى تتحدث عن عبودية

- الأصـــنام والأوثان واعتقادهم أنها تنفع وتضـــر ولذلك أمر نبيه بقوله « ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك .....» ، فأين هذا من طاعة الحكام والأمراء والطاعة السيا سية والمدنية ؟ ، بينما الآية تنهى عن دعاء غير الله ،والدعاء صورة الافتقار إلى الله والانكسار والذل له ، والرغبة فيه والحب له والشوق اليه ، وهذا هو معنى العبادة التى هى جماع الحب مع جماع الذل ، وليست مطلق الخضوع والطاعة كما سبق بيانه ..

- ثم ختمت استدلالك على ما ذهبت إليه بقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ ، لتقول بعد ذلك : «إن القرآن يعلن عن دعوته الكاملة ، أى أن تنفذ الأحكام الإلهية في كل مكان ، من التأله إلى الحياة السياسية والمدنية » ، وهذا التفسير غير صحيح ، وإن كان حكم الله يجب إنفاذه في كل شـــىء لله فيه حكم ، لكن الآية لاتعطيك هذا المعنى ، فالآية تتكلم عن الجانب النفســى والقلبى والروحى للعابد حال عبادته لربه ، فلا تتوجه نفسه لغير الله ، قال القرطبى : « قال الماوردى: وقال جميع أهل التأويل في معنى قوله ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أى لا يرائى بعمله أحدا » ، فهى إذن تعالج الجانب النفســى أى تأله القلب لله ، وهذا هو المعنى الحقيقى للعبادة ، أما تنفيذ الأحكام وإطاعة الأوامر فهى معنى تبعى اقتضــائى واجب على كل أحد بحســبه ، وبقدر وســعه وطاقته ، بينما توجه القلب إلى الله لايســقط عن صاحبه بحال من الأحوال . ولايعنى هذا إنكارنا لوجوب الحكم بالإ سلام ، و ضرورة التحاكم إلى شريعته سبحانه ، ولايعنى أيضا أننا نقول بنفى وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ، معاذ الله أن يمر بخاطرنا ذلك ، إنما فقط نقول : إن إنفاذ الأوامر، وترك النواهى ، والرجوع إلى الكتاب والسنة ، كل ذلك مقتضى من مقتضيات العبادة لأنه مظهر الطاعة لله وللرســول ، وهو ثمرة من ثمرات العبادة له ســبحانه وتعالى ، واليك طائفة من أقوال فقهاء الإسلام في تعريف العبادة ليتضح لك المعنى الصحيح ، ويتجلى لك الفارق بين المعنى الأصلى والمعنى الاقتضائى كما سبق بيانه :

- - قال ابن عطية : (نعبد : نقيم الشــرع والأوامر مع تذلل واســتكانة ، والطريق المذلل يقال له معبد).اهـ [المحرر الوجيز ١/ ١١٥].

- فجعل الإمام ابن عطية حقيقة التعبد في طاعة الأوامر مصحوبة بتذلل وا ستكانة ، .....معناه نعاملك بذل واستكانة ، ونتقرب إليك بإقامة شرعك ، دل على أن مفهوم العبادة عنده رحمه الله هي الخضوع والتعظيم المطلق طلبا للزلفى والقربى ، فأما التعظيم والخضوع المطلق من كلامه فيعبر عنه قوله : (تذلل وا ستكانة) ، وأما طلبا للقربى من كلامه فيدل عليها قوله (نقيم الشرع والأوامر)

- -قال الشنقيطي : (التقرب إلى الله بامتثال ماشرع وأمر به ، واجتناب مانهى عنه على وجه الخضوع والذل والمحبة) .اه [معارج الصعود ٤١].
- فذكر رحمه الله ثلاثة قيود :
- **الأول** : التقرب وهو معنى مشروط صحيح ليصدق على العمل عبادة ، إذ هو ركن ركين في المعاملة الواجبة للإله – نعني طلب القربى منه -
- **الثاني** : امتثال ماشرع واجتناب ما نهى ، وهذا يتضمن الصورة التامة الكاملة للمعاملة الواجبة للإله
- **الثالث** : على وجه الخضوع والمحبة ، وهو شرط لابد منه لأن الفعل المجرد عنه لا يعد عبادة أصلا -
- - قال ابن العربي : (العبادة هي التذلل والخضوع للمعبود بما يكون من فعل يقصد به خدمته في أمره) عارضة الأحوذي ١١/ ٧١ وهنا تجد ابن العربي رحمه الله نص على أمر طلب القربى في قوله : (يقصد به خدمته في أمره) والتقرب يكون مع الحب والاخلاص.
- - قال المروزي : (ومعقول في اللغة وعند العلماء أن عبادة الله هي التقرب إليه بطاعته والاجتهاد في ذلك ....فلما قال تبارك وتعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) كانت الطاعات كلها التي يتقرب بها إلى الله داخلة في عبادته).اه تعظيم قدر الصلاة ١/ ٣٤٥-٣٤٩
- وتعريف هذا الإمام من أجل التعريفات المذكورة في العبادة فهو جامع مانع واضح ، ذكر رحمه الله أن ركن العبادة الأول هو طلب القربى من المعبود ، ثم يكون ذلك بالخضوع له والذل المطلقين حيث عبر عن ذلك بقوله (بطاعته والاجتهاد في ذلك)، ثم قرر رحمه الله أن الوجه التام الأكمل للمعاملة الواجبة للإله هي ما أمرنا الله به وتعبدنا به ، ثم دلل رحمه الله على ذلك بقوله جل وعلا : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)، فالأوامر الشرعية إنما هي تجسيد للمعاملة الواجبة (العبادة) مع الإله (الله) ، ولايفوتنك أن كلمة التقرب تحمل معانى الرغبة والحب والشوق ، فإذا صاحبها التعظيم والإجلال ضمت إلى ذلك الرهبة والخوف ، فينتج عن كل ذلك استكانة القلب وتوجهه إلى خالقه ، وتستجيب الجوارح بالطاعة الظاهرة ، المسبوقة والمصحوبة بهذه العانى القلبية على أعلى درجاتها ، وأسمى حالاتها ، فيكون عبدا باطنا وعابدا مطيعا في ظاهره.
- - وقال ابن كثير عن العبادة : (في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف).اهـ [التفسير ١/ ٢٥].

• - بهذه النقول وغيرها يتبين لنا أن الطاعة ليست هى العبادة ، وإنما هى صورة ظاهرة لها ، لابد أن يسبقها ويصاحبها حب القلب وافتقاره وذله وانكساره وتعظيمه وشوقه إلى خالقه ، مع الإخلاص له وحده ، فهذه كلها هى روح العبادة وحقيقتها ، أما الخضوع والطاعة الظاهرة فما هما إلا أثر من آثارها ومظهر من مظاهرها ومقتضى من مقتضياتها .

• لعلك بذلك أيها تكون قد أدركت موضع الخطأ ومكمن الخطر في تفسيرك لمصطلح العبادة ، وقولك بأن الطاعة هى جوهرها وأساسها ومعناها الأصلى والحقيقى ، .وأختم معك هذا المبحث بقول الدكتور محمد أحمد عبد القادر « والعبادة المأمور بها، يؤديها المسلم وهو ذليل خاضع لمولاه، مع حبه له، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية الحب له، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى، فمن خضع لإنسان وهو يبغضه لم يكن عابدًا له، ومن أحب إنسانًا ولم يخضع له، لا يسمى عابدًا له، فحب الرجل لولده وأهله لا يسمى عبادة لأنه حب طبيعي، وفي حق الله تعالى لا يكفي أحدهما منفردًا عن الآخر، فالخضوع الذي ليس فوقه خضوع والحب الذي ليس فوقه حب، هو حق لله وحده ولا يستحقه غيره؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ،.......... وأما أنواع العبادة فهي تشمل الإنسان كله، حتى لم يبق فيه جزء لم يشترك في العبادة، وعليه تتنوع العبادة إلى خمسة أنواع:

١ – **العبادات القلبية**: وهي الأ ساس لما بعدها؛ لأنه يترتب على الإخلال بها الدخول في الـ شرك الأكبر أو الأ صغر، و سميت قلبية؛ لأنها من عمل القلب وحده، وأعظمها: أن يعتقد الإنـسان بانفراد الله تعالى بالربوبية والإلوهية والأ سماء الحـ سنى والـ صفات العلى، وأن له الكمال المطلق من غير تـ شبيه أو تمثيل أو تكييف أو تعطيل، ويعتقد بجميع ما أنزل الله على رسوله مما هو معلوم من الدين بالضرورة ولا يسع المسلمَ جهلُه. ومنها الحب، والخوف، والإخلاص، والتوكل، والصبر، والرجاء، وغيرها، والمقصود: أن لا نشرك فيها أحدًا مع الله، أما الحب الطبيعي كحب الولد، أو الخوف الطبيعي كخوف الحيوان المفترس، فلا يدخل في النهي.

٢ – **العبادات القولية**: وتسمى اللفظية لأنها تنطق باللسان، وأعلاها: كلمة التوحيد، فمن اعتقد بكل ما سبق ولم ينطق بكلمة التوحيد من غير عذر كالأبكم، لم يحقن دمه ولا ماله، ومنها الذكر والدعاء والتسمية وكذلك الاستعاذة والاستغاثة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر العلوم.

٣- **العبادات البدنية**: وهي التي يؤديها الجسم، كالصلاة والصوم وأفعال الحج والجهاد بالنفس، والرحلة في طلب العلم أو لكسب القوت الحلال.

٤- **العبادات المالية**: وهي التي تعتمد على المال وحده، كالزكاة والصدقات والنذور والذبائح والهدي.

٥- **العبادات البدنية المالية كالحج**. قلت : وكل ماذكره من أنواع العبادات الغير قلبية لا بد فيها من حضور القلب ومواطئته للعمل او القول ، وإلا فلا يعتتبر أى منها عبادة مهما بالغ فيها صاحبها ، وذلك لافتقارها إلى المعنى الأول والأساسى للعبادة الذى هو روحها وجوهرها فتنبه .

- ويقول « والعبودية الخاصة: هي الفرق ما بين أولياء الله وأولياء الشيطان، فلما كان الخلق جميعًا عبيدًا للربوبية، انفرد المؤمنون بالعبودية الخاصة، فهم عبيد ألوهيته تعالى؛ لأنهم خضعوا طوعًا واختيارًا وحبًّا، وتسمى هذه العبودية عبودية الطاعة والمحبة أو العبودية الإرادية أو عبودية الإلوهية، لأن المؤمنين أفردوا الله بالإلوهية، وقد وردت هذه العبودية الخاصة بالقرآن حيث نسب أصحابها إليه تعالى فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، وقال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ ، وقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ ، وقال: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ، وهم الذين خرجوا من سلطان إبليس وإنما سلطانه على من تولاه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.

ج- الفرق بين العبودية العامة والخاصة:

١- العبودية العامة تشمل الخلق كلهم، والخاصة لا يدخل فيها إلا المؤمنون، فيشترك المؤمنون مع الكافرين بالعبودية العامة وينفرد المؤمنون بالعبودية الخاصة.

٢- العبودية العامة قهرية قسرية لا خروج للكائنات عنها، وأما العبودية الخالصة فهي إرادية اختيارية.

٣- أن الحساب والجزاء يوم القيامة على العبودية الخاصة؛ لأنها هي المطلوبة من العباد، ولذلك كانت العبودية العامة لا تدخل في الإيمان ولا في الجنة ولا تخلص صاحبها من النار ما لم يدخل في العبودية الخاصة.

٤- العبودية العامة لا تأتي في القرآن إلا مقيدة، وتأتي العبودية الخاصة مطلقة ، فإذا أضيف العباد إلى الله في القرآن مطلقًا عني بهم عبيد إلهيته، وأما إضافة عبيد الربوبية فتأتي مقيدة، كما بين ذلك ابن القيم بقوله: « فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء».

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا أحد خمسة أوجه:

١ – إما منكرًا كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾.

٢ – معرفًا باللام كقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

٣ – مقيدًا بالإشارة أو نحوها كقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

٤ – أن يُذكروا في عموم عباده فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر كقوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ ﴾.

٥ – أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾، وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة لأن معنى اللفظة الذل والخضوع.. لكن أولياءه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا .

د– دعوة الرسل جميعًا إلى عبادة الله:

كانت وظيفة الرسل جميعًا هي الدعوة إلى الله وإفراده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وقد وردت هذه الوظيفة على لسان كل رسول إلى قومه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾، و قال: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾، و قد قرر القرآن هذه الحقيقة بصيغتين مختلفتين ومدلولهما واحد، فقال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾، وقال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾. إن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد غيره، ومدلول الصيغة الثانية: النهي عن عبادة غير الله. فالقرآن الكريم دعا لعبادة الله ونهى عن عبادة غيره؛ لأن النفس البشرية بحاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة، فلم يكتفِ القرآن بالنهي الضمني المفهوم من الأمر الصريح على ما هو مقرر في علم الأصول من أن الأمر بالشيء نهى عن ضده الذي لا يجتمع معه، بل أتى بالنهي الصريح عن عبادة غير الله؛ لأن كثيرًا من الناس يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فيقعون في الشرك ويحسبون أنهم مسلمون.

وقد وصف الله بالعبودية أخص أوليائه ورسله وأنبيائه فقال في وصف الملائكة: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾، وقال عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾، وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ﴾، وقال عن عيسى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾، فجعل صفته العظمى أنه عبد لا كما يدعي أعداؤه النصارى من

وصــفه بالإلهية، وقد وصــف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشــرف مقاماته في عدة مواضـع من كتابه، فقال في مقام إنزال الكتاب: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ ، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ، وقال في مقام الدعوة إلى الله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ ، وقال في مقام الإســراء: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ ، وآيات كثيرة تبين أن الله وصــف رســله في أشرف مقاماتهم بالعبودية وخاصة صفوتهم محمد ﷺ، فقد أمره ربه بالعبادة حتى يأتيه الأجل، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ؛ وذلك لأن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد عبودية لله كلما ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن الخروج عن العبودية أكمل وأنه سقط عنه التكليف الشرعي أو عن غيره كالخضر أو الرسول، فهو جاهل ضال كافر، وذلك لأن الغاية الوحيدة التي خلق الله من أجلها الخلق وأحبها ورضــيها لهم هي العبادة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، ومن لم يكن عابدًا لله فلا شك أنه واقع في عبودية غيره، لأنه لا بد أن يكون للقلب مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله محبوبه ومعبوده، كان غير الله له محبوبًا مرادًا، إما الصنم أو الشمس والقمر الكواكب، أو الملائكة والأنبياء والصــالحين أو المال والجاه والســلطان، أو المبادئ والشـعارات واللافتات اللا إســلامية، لما لها عليه من ســلطان وقهر، ولما يعطيها من الخضــوع والطاعة، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصــة، إن أُعطى رضــي وإن لم يُعط لم يرض» ، فمن لم يكن عبدًا لله كان عبدًا لهواه ولما يهواه، لأن الرق والعبودية الحقيقية هو رق القلب وعبوديته، وبذلك يتبين العنى الصــحيح الأصــلى للعبادة ، وأنها لاتعنى مجرد الطاعة ، انما هى طاعة معينة ، يوافق القلب فيها الجوارح والعمل الظاهر ، ذلا وحبا ، تعظيما ورغبة ، شوقا ورهبة ، فكل عبادة طاعة ، وليست كل طاعة عبادة ، ويأتى مزيد بيان عند كلامنا عن التشريع والطاعة بإذن الله ..

الفصل الرابع
مصطلح الدين

قال الأمير: لقد أ صاب م صطلح الدين من التحريف والاختزال والت ضييق ما أ صاب سائر الم صطلحات والمفاهيم الإسـلامية ، لقد انحسـرت كلها أو معظمها عن معناها الشـامل الواسـع الذى عرفه العرب ، ونزل به القرآن والتشـريع ، نعم لقد تم تحريف معانيها ، وتبديل أو تضـييق دلالتها ، حتى لتشـعر كأنك تتكلم أو تقرأ عن م صطلحات جديدة غير التى نطق بها اللـسان العربى وتنزل بها القرآن ، إننا بحاجة إلى بذل جهود م ضاعفة لإزالة الغشاوة التى أصابت تلك المصطلحات ، وكشف اللبس الواقع حول منظومة هذه المفاهيم ، بحاجة إلى تسليط الضـوء يمحو ظلام الجهل والتدليس وتحريف الكلم من بعد مواضـعه ، ياويح أعدائنا لقد كادوا لهذا الدين ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ ، ليس مكر سـاعات وأفراد ، بل مكر الليل والنهار ، والظالمون والمنافقون بعضـهم أولياء بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن العروف ، ويلحدون ويلحنون في مفاهيمنا ومصـطلحاتنا ، لقد خرجت أجيال لا تعرف عن الإسـلام شـيئا ، ولا تدرى من دلالة المصطلح الا النذر اليسير ، الذى لا يهدد الجاهلية ولا يخيف الطواغيت ، ولا يفضح المنافقين ، ولا يردع المفسدين ، لقد حولوا الليوث إلى ظباء ونعام ، وأحالوا الصقور إلى حمائم سلام ، بل فراخ ا ستسلام ، إن الناس اليوم في واد ، وم صطلحاتنا الإ سلامية والعربية في واد آخر ، كلاهما ينظر إلى الآخر فينكره ، ولايعرفه فلا هذه هى م صطلحاتنا ، ولاتلك هى مفاهيمنا ، ولا هؤلاء هم م سلمونا ولاعربنا ، ومن بين تلك الم صطلحات المظلومة التى تم تحريفها مصطلح الدين ، لقد أ صابه سهم المكر ، وألبس مسوح التزييف والتحريف ، فلا ديننا اليوم هو ديننا ، ولا متدينة الزمن هم متدينونا ، كلاهما غرباء ، كلاهما لانعرفه ، وبالرجوع إلى تراثنا العربى والإسـلامى تتجلى لنا هذه الحقيقة والتى نبلورها في هذه الكلمات .

تستعمل كلمة الدين فى اللغة وكلام العرب بمعان شتى وهي : –

١ - القهر والسلطة والحكم والأمر ، والإكراه على الطاعة ، واستخدام القوة القاهرة فوقه ، وجعله عبدًا ، ومطيعًا ، فيقولون دان النا س أي قهرهم على الطاعة ، دنت القوم : أي أذللتهم واستعبدتهم ، و دنته :أي سسته وملكته ، و دينته القوم وليته سياستهم ، وجاء في الحديث« : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» ، أي قهر نفســه وذللها ، ومن ذلك يقال ديان للغالب القاهر على قطر أو أمة أو قبيلة والحاكم عليها .

٢ - الإطاعة والعبدية والخدمة والتسخير لأحد والائتمار بأمر أحد، وقبول الذلة والخضوع تحت غلبته وقهره ، فيقولون دنتهم فدانوا : أي قهرتهم فأطاعوا، و دنت الرجل أي خدمته ، وجاء في الحديث : «أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب» ، أي نطيعهم ونخضع لهم ، بهذا المعنى يقال للقوم المطيعين قوم دين ، وبهذا المعنى نفسه قد وردت كلمة الدين في حديث الخوارج : « يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية» .

٣ - الشرع والقانون والطريقة والمذهب والملة والعادة والتقاليد، فيقولون ما زال ذلك ديني وديدنى : أي دأبي و عادتي . ويقال دان إذا اعتاد خيرًا أو شرًا، وفي الحديث : «كانت قريش ومن دان بدينهم» ، أي من كان على طريقتهم وعادتهم ، وفيه أنه عليه السلام« كان على دين قومه « اى كان يتبع الحدود والقواعد الرائجة في قومه في شؤون النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من الشؤون المدنية والاجتماعية .

٤ - الجزاء والمكافأة والقضاء والحساب ، فمن أمثال العرب« كما تدين تدان» ، أي كما تصنع يصنع بك . وقد روى القرآن قول الكفار« أإنا لمدينون»، أي هل نحن مجزيون محاسبون؟ وفي حديث ابن عمر رضي عنهما قالﷺ: » لا تسبوا السلاطين، فإن كان لا بد فقولوا« اللهم دنهم كما يدينون» ، أي افعل بهم كما يفعلون بنا ، ومن هنا تأتي كلمة الديان بمعنى القاضي وحاكم المحكمة ، وسئل أحد الشيوخ عن علي كرم الله وجهه فقال : «إنه كان ديان هذه الأمة بعد نبيها » أي كان أكبر قضاتها بعده ﷺ .

استعمال كلمة الدين في القرآن :

يقول الأمير : يتبين مما تقدم أن كلمة الدين قائم بنيانها على معان أربعة ، أو بعبارة أخرى هي تمثل فى الذهن العربي تصورات أربعة أساسية.

أولها : القهر والغلبة من ذي سلطة عليا.

والثاني : الإطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضع لذي السلطة.

والثالث : الحدود والقوانين والطريقة التي تتبع.

والرابع : المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب.

وكانت العرب تستعمل هذه الكلمة قبل الإسلام بهذا المعنى تارة ، وبذاك أخرى حسب لغاتهم المختلفة؛ إلا أنهم لما لم تكن تصـوراتهم لتلك الأمور الأربعة واضـحة جلية ولا كان لها من السـمو والبعد نصـيب ، كان استعمال كلمة الدين مشوبًا بشوائب اللبس والغموض ، ولذلك لم يتح لها أن تكون مصطلحًا من مصطلحات نظام فكر متين ، حتى نزل القرآن فوجد هذه الكلمة ملائمة لأغراضـه ؛ فاقتناها واسـتعملها لمعانيه الواضـحة المتعينة ، واصـطنعها مصـطلحًا له مخصـوصًـا ، فأنت ترى أن كلمة الدين في القرآن تقوم مقام نظام بأكلمه ، يتركب من أجزاء أربعة هي:

١ - الحاكمية والسلطة العليا.

٢ - الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة.

٣ -النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

٤ - المكافأة التي تكافئها السـلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له.

ويطلق القرآن كلمة الدين على معنييها الأول والثاني تارة ، وعلى المعنى الثالث أخرى ، وعلى الرابع ثالثة ، وطورًا يستعمل كلمة الدين ويريد بها ذلك النظام الكامل بأجزائه الأربعة في آن واحد ، ولإيضاح ذلك يجمل بنا النظر فيما يأتي من الآيات الكريمة : -

- الدين بالمعنيين الأول والثاني (الحاكمية والسـلطة العليا ، والإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة)

- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾- ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ففي جميع هذه الآيات وغيرها قد وردت كلمة الدين بمعنى السلطة العليا ، ثم الإذعان لتلك السلطة وقبول إطاعتها وعبديتها ، والمراد بإخلاص الدين لله : ألا يسلم المرء لأحد من دون الله بالحاكمية والحكم والأمر، ويخلص إطاعته وعبديته لله تعالى إخلاصًا لا يتعبد بعده لغير الله ولا يطيعه إطاعة مستقلة بذاتها .

- الدين بالمعنى الثالث (النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية) .

-)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس :١٠٤] - ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف :٤٠] - ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم :٢٨] ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ [النور :٢]﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾) [يوسف :٧٦]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] ، ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾[الشورى :٢١]، المراد بالدين في جميع هذه الآيات هو القانون والحدود والشرع والطريقة والنظام الفكري والعملي الذي يتقيد به الإنسان ، فإن كانت السلطة التي يستند إليها المرء لاتباعه قانونًا من القوانين أو نظامًا من النظم سلطة الله تعالى ، فالمرء لا شك في دين الله عز وجل ، وأما إن كانت تلك السلطة سلطة ملك من الملوك ، فالمرء في دين الملك ، وإن كانت سلطة المشايخ والقسوس فهو في دينهم ، وكذلك إن كانت تلك السلطة سلطة العائلة أو العشيرة أو جماهير الأمة فالمرء لا جرم في دين هؤلاء ، وموجز القول أن من يتخذ المرء سنده أعلى الإسناد وحكمه منتهى الأحكام ثم يتبع طريقًا بعينه بموجب ذلك، فإنه لا شك بدينه يدين .

- **الدين بالمعنى الرابع (الحساب والجزاء)**

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات :٥] أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) الماعون ، فقد وردت كلمة الدين في هذه الآيات بمعنى المحاسبة والقضاء والمكافأة.

- **الدين : المصطلح الجامع الشامل**

ثم يقول الأمير : إلى هذا المقام قد استعمل القرآن كلمة الدين فيما يقرب من معانيها الرائجة في كلام العرب الأول .ولكننا نرى بعد ذلك أنه يستعمل هذه الكلمة مصطلحًا جامعا شاملاً ، يريد به نظامًا للحياة يذعن فيه المرء لسلطة عليا لكائن ما ، ثم يقبل إطاعته واتباعه ويتقيد في حياته بحدوده وقواعده وقوانينه ، ويرجو في طاعته العزة والترقي في الدرجات وحسن الجزاء، ويخشى في عصيانه الذلة والخزي وسوء العقا ب ، ولعله لا يوجد في لغة من لغات العالم مصطلح يبلغ من الشمول والجامعية أن يحيط بكل هذا المفهوم ، وفي الآيات التالية قد استعمل الدين بصفة هذا المصطلح الجامع : الأول والثاني والثالث والرابع ، ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة :٢٩].

فالدين الحق في هذه الآية كلمة ا صطلاحية قد شرح معانيها وا ضع الا صطلاح نفسه عز وجل ، في الجمل الثلاث الأولى، قد ذكرالله تعالى فيها جميع معاني كلمة الدين الأربعة ، ثم عبر عن مجموعها بكلمة الدين الحق .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر : ٢٦].

وبملاحظة جميع ما ورد في القرآن من تفاصيل لقصة موسى عليه السلام وفرعون، لايبقى من شك أن كلمة الدين لم ترد في تلك الآيات بمعنى النحلة والديانة فحسب ، وانما أريد بها الدولة ونظام المدينة أيضاً ، فكان مما يخشاه فرعون ويعلنه أنه إن نجح موسى عليه السلام في دعوته، فإن الدولة ستدول ، وإن نظام الحياة القائم على حاكمية الفراعنة والقوانين والتقاليد الرائجة سيقتلع من أصله ، ثم إما أن يقوم مقامه نظام آخر على أسس مختلفة جدًا، وإما ألا يقوم بعده أي نظام ، بل يعم كل المملكة الفوضى والاختلال .

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾[آل عمران :١٩] ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران :٨٥]. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة :٣٣]. ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال :٣٩] - ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[سورة النصر].

المراد بالدين في جميع هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها من الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية ، فقد قال الله تعالى في الآيتين الأوليين : إن نظام الحياة الصحيح المر ضي عند الله هو النظام المبني على إطاعة الله وعبديته ، وأما ما سواه من النظم المبنية على إطاعة السلطة المفرو ضة من دون الله ، فإنه مردود عنده، ولم يكن بحكم الطبيعة ليكون مر ضيًا لديه، ذلك بأن الذي ليس الإنسان إلا مخلوقه ومملوكه ، و لا يعيش في ملكوته إلا عيشة الرعية ، لم يكن ليرضى بأن يكون للإنسان الحق في أن يحيا حياته على إطاعة غير سلطة الله وعبديتها، أو على اتباع أحد من دون الله.

وأخبر في الآية الثالثة أنه قد أرسل رسوله ﷺ بذلك النظام الحق الصحيح للحياة الإنسانية - أي الإسلام - وغاية رسالته أن يظهره على سائر النظم للحياة.

وفي الرابعة قد أمر الله المؤمنين بدين الإ سلام أن يقاتلوا من في الأرض ولا يكفوا عن ذلك حتى تمحي الفتنة ، وبعبارة أخرى حتى يمحي جميع النظم القائمة على أ ساس البغي على الله ، وحتى يخلص لله تعالى نظام الإطاعة والعبدية كله.

وفي الآية الأخيرة الخامسة قد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ حين الانقلاب الإسلامي بعد الجهد والكفاح المستمر مدة ثلاث وعشرين سنة ، وقام الإ سلام بالفعل بجميع أجزائه وتفا صيله نظامًا للعقيدة والفكر والخلق والتعليم والمدنية والاجتماع والسيا سة والاقتصاد، وجعلت وفود العرب تتابع من نواحي القطر وندخل في حظيرة هذا النظام ، فإذا ذاك – وقد أدى النبي رسالته التي بعث لأجلها – يقول له الله تعالى : إياك أن تظن أن هذا العمل الجليل الذي قد تم على يديك من كسبك ومن سعيك ، فيدركك العجب به ، وإنما المنزه عن النقص والعيب والمنفرد بصفة الكمال هو ربك وحده ، فسبح بحمده واشكره على توفيقه إياك للقيام بتلك المهمة الخطيرة ، وأسأله اللهم اغفر لي ما عسى أن يكون قد صدر مني من التقصير والتفريط في واجبي خلال الثلاث والعشرين سنة التي قد قمت بخدمتك فيها . هكذا تكلم الأمير .

ثم ختم الأمير حديثه قائلا : هكذا تتجلى الآيات توضح أن الدين هو السلطة والقهر، وهو القانون والحكم ، وهو الخضوع والذلة ، وهو الحساب والجزاء ، وهوالنظام الشامل للحياة بكل تفاصيلها ومفرداتها العقدية والفكرية والسياسية والجزائية ، فما قولكم أيها الشيخ ؟؟؟

التقط الشيخ أنفا سه بعد هذا السرد الطويل حول كلمة الدين سواءا بمعناها الخاص ، أو بمعناها العام الجامع كما يتصور الأمير وينقل عن أستاذه المودودى فى مصطلحاته الأربعة ، ثم أمسك الشيخ بخيط الكلام فقال : عفوا أيها الأمير ، فبرغم الآيات الكثيرة التى ذكرتها ، التقسيمات التى قسمتها ، والتنميقات اللغوية التى دبجتها ، وبرغم الإسهاب الطويل الذى عرضت من خلاله فهمك وفهم أمرائك لمصطلح الدين ، برغم كل ذلك لم ننس ، ولن ننس ، ولايخيل علينا هذا الكلام ، ذلك لأن لدينا قواعد وأ صولا نسير عليها ، وعندنا ميزان دقيق نزن به العبارات والتنميقات ، ولى على حديثك عدة ملاحظات :

أولا : لقد خالفت قولك السابق من أن «العرب حال نزول القرآن عليهم وفى العصر الزاهر للإسلام كان كل وا حد منهم يعرف معانى ومصطلحات القرآن حق المعرفة ويدرك أبعادها ويفهم مراميها ، خاصة المصطلحات الأ سا سية للقرآن – «الإله – الرب – الدين – العبادة – » ،وهاأنت تقرر أن مصطلح الدين لم يكن وا ضحا لديهم ، وإنما كان يشوبه شيء من الغموض وذلك بنص كلامك : « ... وكانت العرب تستعمل هذه الكلمة قبل الإسلام بهذا المعنى تارة وبذاك أخرى حسب لغاتهم المختلفة ؛ إلا أنهم لما لم تكن تصوراتهم

لتلك الأمور الأربعة واضحة جلية ولا كان لها من السمو والبعد نصيب ، كان استعمال كلمة الدين مشوبًا بشوائب اللبس والغموض ، ولذلك لم يتح لها أن تكون مصطلحًا من مصطلحات نظام فكر متين، حتى نزل القرآن فوجد هذه الكلمة ملائمة لأغراضه ؛ فاقتناها واستعملها لمعانيه الواضحة المتعينة ، واصطنعها مصطلحًا له مخصوصا له ...» ، فما قولك في هذا التناقض؟ هل كانت كلمة الدين عندهم واضحة المعنى والمفهوم ؟ أم كان يشوبها اللبس والغموض ؟ وبالتالى تنقض كل دعواك من معرفة العرب وفهم كل واحد منهم لمعانى ومقاصد ومصطلحات القرآن ؟ خاصة مصطلحاتك الأربعة .

ثانيا : قد ذكرت فى مقدمة حديثك عن المصطلحات القرآنية أن معانيها قد ضاقت ، ولم يعد الخلف يعرفونها بمفهومها الشامل الواسع الذى كانت عليه وقت نزول القرآن ، وبالتالى قلت : بأن علماء اللغة جعلوا يفسرون معانى الكلمات بما تعارف عليه الخلف من المفهوم الضيق للكلمة ، وتركوا مفهومها الواسع الذى ساد لدى من سبقهم ، وهذا الكلام أيضا يحمل بين طياته دليل بطلانه من عدة أوجه :

١- أولا علماء اللغة هؤلاء الذين شرحوا هذه المصطلحات بمعناها ومفهومها الضيق المختزل هل جاءوا بهذا الشرح من عند أنفسهم ؟ أم أنهم تلقوه عمن سبقهم من أئمة السلف ؟ إن قلت أنهم شرحوا هذه المعانى من قبل أنفسهم ولم يتلقوها عن السلف فكيف وصلك أنت مفهوم السلف لتلك المصطلحات مادمت تقرر أن هذه المعانى قد طمست وانكمشت ؟ ذلك برغم أنك تنقل عن قواميس اللغة التى تتهم أصحابها أنهم فسروا المصطلحات تفسيرا ضيقا منكمشا بما تعارف عليه الخلف الذين جهلوا حقيقة المعانى وشمولية المصطلحات كما ترى أنت ، فكيف تنقل عنهم المعانى الشاملة لهذة المصطلحات برغم زعمك أن كتبهم تقتصر على المفهوم الضيق للكلمة والمعنى المجتزأ للمصطلح ؟

٢- وإن قلت بأن علماء اللغة تلقوا كتبهم وقواميسهم عمن سبقهم فهذا معناه أن ماذكره الخلف فى كتبهم هو ماعرفه السلف من لغتهم ونقلوه إلى تلاميذهم وأتباعهم ، فهل تتهم السلف بعدم معرفتهم للمعنى الشامل للمفهوم والمصطلح وبالتالى تنقض دعواك بأن كل واحد منهم كان يدرك ويعرف جيدا مفهوم تلك المصطلحات التى نزل بها القرآن ؟ أم تتهم السلف بعدم إبلاغهم ماقد عرفوه ، وأنهم قد كتموا العلم عن الأمة ؟ وبقى احتمال آخر وهو أن هذه المعانى الشاملة الكاملة التى تذكرها وترددها لم تكن موجودة عند السلف ، ولم يفسروا هذه المصطلحات كما فسرتها أنت ، وكفى بهذا دليلا على أنك جئت فى الدين بما لم يأت به أحد من العالمين لا من السلف ولا من الخلف ، وحسبنا بهذا حجة على بدعتك وقولك فى الدين ما ليس منه .

٣- قولك هذا فيه اتهام للأمة بالتواطؤ والاجتماع على غير الحق ، سواء كان هذا الاتهام موجها إلى عصر السلف أو حتى عصر الخلف ، فهل أطبقت الأمة على اجتزاء واختزال معانى القرآن على الأقل من وقت تدوين المعاجم والقواميس إلى يومك هذا؟ حتى تجىء أنت لتظهر ما أخفاه العلماء أو جهلوه ، وأطبقت الأمة على كتمانه أو جهله منذ ما يزيد عن الألف ومئتى سنة تقريبا ولم يظهره أحد قبلك ، أليس هذا يناقض قول الرسول ﷺ : « فإن أمتى لاتجتمع على ضلالة » ؟ فكيف اجتمعت الأمة فى زعمك على جهل أو كتمان معانى هذه المصطلحات التى هى محور وأساس لفهم القرآن وبغيابها غاب الكثير من معانى الإسلام كما تقول أنت؟ هل عاشت الأمة معظم تاريخها بعيدا عن أساسيات الإسلام وبمنأى عن فهم محاور القرآن الأساسية ؟ إن قلت نعم فقد هلكت لحكمك على الأمة بالجهل أو الكتمان وفى الحديث : « من قال هلك الناس فهو أهلكهم » ، وإن قلت لا بل الأمة مازالت بخير ولازال فيها فى كل عصر طائفة ظاهرة على الحق تقوله وتعمل به ، وهذا هو الصواب ، لزمك أن تقر وتعترف بخطأ فكرتك وما ذكرته عن الأمة سواءا وصفها بالجهل ، أو باحتمال كتمانها معانى المصطلحات الأساسية لفهم القرآن الكريم ومحاوره الرئيسية .

هذه ملاحظات عامة لابد من ذكرها أولا قبل التعرض لحديثك عن مفهوم الدين والمعنى الجامع لهذا المصطلح كما تراه و تذكره فى كلامك ، والذى لم يخل من الأخطاء التى وردت أثناء حديثك عن المصطلحات السابقة – الإله – الرب – العبادة – لنجد نفس الأخطاء تتكرر بنفس الصورة ولم تستفد مما ذكرته لك من قبل واسمح لى بهذه المقدمات بين يدى التعليق على المفهوم الجامع لكلمة الدين كما تراه أنت .

أولا : كلمة « المعنى الجامع » تفيد اشتمال المفهوم على أكثر من معنى اجتمعت كلها تحت هذا المفهوم ، فهو حقيقة مركبة من عدة أجزاء وإلا فكيف يكون جامعا مالم يشتمل العديد من المعانى ؟.

ثانيا : وجود هذه الأجزاء المتعددة دليل على وجود عدة حقائق على المستوى الأحادى لكل حقيقة ، لكن تجميع هذه الحقائق المتعددة فى صورة جامعة لايلزم منه صحة الفرضية النهائية التى ظهرت فيها لاحتمال حدوث خطأ فى عملية التجميع هذه . ولنضرب لذلك مثلا السيارة حقيقة مركبة من عدة جزئيات ، هى مثلا الجسم الخارجى للسيارة ، وعجلة القيادة والفرامل ، والبطارية او المحرك الذى يعمل على تسييرها ، ثم الإطارات التى تسير عليها ، و المقاعد التى يجلس عليها الركاب إلى غير ذلك من أجزاء السيارة ، كل جزء من هذه الأجزاء يعتبر صحيحا فى نفسه ، حقيقة فى ذاته ، غير أن اجتماع هذه الأجزاء المتفرقة مع بعضها لايلزم منه صحة الصورة النهائية التى قد يظهر عليها ، لاحتمال حدوث خطأ ما فى تركيب هذه الأجزاء بعضها ببعض وإن كانت كل جزئية صحيحة وحقيقة فى حد ذاتها، فقد يخطىء المصتع مثلا أو العامل ويقوم بنقل جزء من هذه

الأجزاء من مكانه الصحيح إلى موضع آخر ، أو يربط بين الأجزاء بطريقة غير صحيحة ، وبالتالى ستتغير الصورة النهائية لهذة السيارة على الرغم من اشتمالها على كل أجزاء ومستلزمات السيارة ، نعم الأجزاء كلها موجودة لم يتخلف منها شىء ، ولايستطيع أحد أن ينكر وجودها ، لكن سيختلف الناس على الصورة النهائية للمنتج لا بسبب نقص فى أجزائه، وإنما بسبب نقل جزء من هذه الأجزاء عن موضعه ، أو بسبب طريقة الربط بين كل الأجزاء أو بعضها ببعض ، مما ترتب عليه تعطل بعض الجوانب ، أو إحلال بعض الأجزاء محل غيرها ، أو تضخم الدور الوظيفى لجزء معين على حساب ضمور الدور المنوط بجزء آخر ، أو ربما تتغير الوظيفة الكلية للمنتج النهائى ، وبالتالى تتغير أولويات الأعمال التى يوظف فيها نتيجة تغير الصورة النهائية له .

ثالثا : هذا التجميع النهائى للمنتج فى صورته الكلية الجامعة أنما يكون نابعا من التصور الوظيفى المطلوب والمنتظر لهذا المنتج ، فمن تصور السيارة مثلا وسيلة للنقل والمواصلات ، اهتم بمحركها ، وبإطاراتها ، وبالفرامل وأعطاها الأولوية فى الجهد والتجهيز ، ومن تصورها مثلا مكانا للراحة والاسترخاء نراه يهتم أكثر بالمقاعد ، وبفر شها الوثير ، و سعة المساحة داخلها ، ويبذل فى إعداد ذلك أيضا جهده ووقته وفكره ، لتخرج السيارة فى صورتها النهائية فتقوم بوظيفتها المنوطة بها والتى تصورها الصانع على أكمل وجه ، معنى ذلك أن جهد الإنسان وفكره ووقته وماله ينصب فى جهة معينة بناءا على تصوره لأهمية هذه الجهة والوظيفة المنوطة بها ، فيرتبط بذلك مبعثا وغاية وسلوكا .

رابعا : لو أخذنا الإنسان مثلا نطبق عليه ماسبق نجد عدة احتمالات : نجد من يعتبره كائنا ناطقا ويتصوره على هذا الأساس ، و سنجده بلا شك يفسر كل مايصدر عن الإنسان ، أو يطلب منه بناءا على هذا المفهوم ، فنراه يهتم بطريقة الكلام ، ومخارج الحروف ، وطبقات الصوت ، وحركة الشفاه ، وبالألفاظ التى تصدر عنه، أى أنه سيوجه كل جهده لفهم قضية النطق عند الإنسان ، وتكون هذه القضية هى محور بحثه وبؤرة اهتمامه ذلك لأنه يعتبرها الصفة الرئيسية والأساس للانسان ، و سنجده يبذل كل جهده ليرتقى بهذا الإنسان من جهة النطق وجانب الكلام . بينما الذين يعتبرون الإنسان كائنا اجتماعيا نراهم وقد انصب جهدهم وبحثهم على جانب آخر هو الجانب الاجتماعى ، الذى اعتبروه الصفة الأساسية للإنسان ، بالتالى يكون محور اهتمامهم هو الارتقاء المدنى والحضارى بالإنسان، بصفته فى الأساس كائنا اجتماعيا ، فيبدؤون فى دراسة سلوكه ومدى تفاعله مع من حوله ، وماذا حقق من انجازات ورقى فى الحياة ، وهل هو منسجم مع مجتمعه ؟ أم يعانى من مشاكل العزلة والابعاد ؟ وكلما نجح الإنسان فى الارتباط بمجتمعه مهما كان نوع وطبيعة الارتباط ، وكلما استطاع الارتقاء المدنى والحضارى ، مهما كان مجال هذا التمدن فهو عند

أ صحاب هذه النظرية – نظرية الإنسان كائن اجتماعى – هو عندهم إنسان كامل ناجح قد أدى ر سالته وقام بوظيفته وأصـبح مثلا يحتذى ويقتدى به ، فالجهود المبذولة والوظائف المطلوبة إنما تتحدد بناءا على فهم طبيعة وحقيقة الأشـياء وادراك وظيفتها ، وبالتالى تترتب فى حياة الناس والأشـياء الأولويات المطلوب تحقيقها . كذلك من يعتبر الإنسـان كائنا مفكرا ، سـيهتم بجانب الفكر والعقل والفلسـفة والمنطق لدى هذا الإنسـان ، لأنه يراه الجانب الأسـاس والصـفة الرئيسـية فيه ، وبالتالى تنصـب الجهود والدراسـات وتوسـد الوظائف وتحدد الأولويات بناءا على هذا التصـور ، وتهمل الجوانب الأخرى فى الإنسـان فلا مانع من اهمال جسـده ، ولا حرج من قتل روحه ، مادام هو يفكر ويعمل عقله ، فالإنسـان عندهم كائن مفكر ، فهذا هو الأساس وتلك هى وظيفته التى يجب أن يهتم بها ويعمل لها ، وينطلق على أساسها .

وبعد هذه المقدمات تعال بنا نناقش تفسيرك للمفهوم الجامع للدين ، ونعرض لما استدللت به من آيات لبيان مدى صحة ما ذهبت اليه .

أولا : ماهى حقيقة الدين ؟

يقول وحيد الدين خان : إن التصـور الصـحيح للدين ، والذى يمكننا أن نفهم بإدراكه حقيقة كل أجزاء الدين ، والذى يطبق عليه التاريخ الإسـلامى كله هو « أن الدين فى حقيقته الأسـاسـية إيجاد علاقة الخوف والمحبة والولاية والتوكل مع الله ....» فالحكمة الجامعة للدين هى علاقة العبد بالله ... إن للدين حقيقة والأشـياء الأخرى كلها جوانب من تلك الحقيقة ، ...إن الكفاح الأسـاسـى لدعاة الإسـلام كان يرتكز على ترسيخ مفاهيم الله والآخرة فى أذهان الأمة ، وكان السبب فى ذلك أن دعاتنا كانوا يؤمنون بأن هذا هو الأساس الذى تقوم عليه جميع المظاهر الدينية الأخرى » . هكذا يبين الرجل حقيقة الدين الأساسية وهى إيجاد علاقة « نفسية قلبية بين العبد وربه » ، ترتكز على ترسيخ مفاهيم الإله والآخرة فى أذهان الأمة .

ويقول أيضا : « والحقيقة التى لاينكرها أحد أن أعظم شىء يحصل عليه المؤمن بعد اعتصامه بالقرآن هو التأله إلى الله والتعلق به ، وهذه هى غاية المؤمنين وهدفهم السـامى فى هذه الحياة الدنيا ، وليس معنى التعلق بالله الإيمان به على الأسـاس الفكرى كمدير لنظام الحياة ، بل معناه التعلق به والحب الشـديد له ، ومعناه الفوز بسـجود الاقتراب ، ودعاؤه خوفا وطمعا ، وأن تطرأ على المرء الحالة التى ورد ذكرها فى الحديث « كأنك تراه » . هكذا يوضـح أن الدين ليس علاقة فكرية فحسـب ، لكنه علاقة تشـعر فيها بالحب والقرب والرجاء والخوف ، وتتوثق هذه العلاقة فى نفسه حتى كأنه يراه .

ويقول : « الدين فى حقيقته عنوان لتلك الكيفية التى تظهر فى صـورة الدعاء والإخلاص والعبادة والإنابة ، وهذه هى النعمة الكبرى التى ينالها الإنسان بعد إيمانه بالله ، والحقيقة الدينية العليا للمؤمن على المستوى الفردى هى أن يدعو ربه ويتضـرع اليه ، ويختصـه بعواطف الحب ويجعله مركز اهتمامه وآماله ، وهذه هى الحقيقة الكبرى باعتبار الفرد ، وهو أصـل الدين الذى يلاقى به العبد ربه ، والفوز بالدين هو الفوز بهذة المنحة الربانية ، ومن حرم منها فقد حرم من الدين رغم فوزه بكل شىء » .

ويقول : « نجد لكلمة دين عدة معان ، ولكن المعنى الأصـلى الذى سـمى به الإسـلام دينا هو الذل والخضوع ... والتدين فى الواقع ليس أمرا سياسيا ، ومدنيا بل هو أمر شخصى وذاتى ، الغاية منه أن يخضع العبد نفسه أمام ربه ويذلها بين يديه ، ويختصه بأحاسيسه وعواطفه ، ومن هذا المنطلق كان ابراهيم مسلما مع أنه لم يقم فى حياته نظاما عالميا جامعا ، وبهذا الاعتبار كان النبى ص ذا دين وهو فى مكة : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ١٥] ، وبهذا الاعتبار اعتبرت الصـلاة والزكاة دينا ، بينما هما ليسـتا كل الدين » .

« هذا هو المعنى الحقيقى للدين أنه أولا : شـعور نفسـى قلبى ، يربط المرء بخالقه سـبحانه وتعالى ، ولكن هذا المعنى الحقيقى والأصلى يتفرع عنه وينتج منه معنى آخر هو المعنى الاقتضائى أو اللزومى ، ذلك الذى يظهر فى صـورة الاسـتجابة والطاعة فى كل جوانب الحياة الخاصـة بالمرء ، سـواءً على المسـتوى الشخصى أو على مستوى علاقته بما حوله ومن حوله ، وفى ذلك يقول وحيد الدين خان : « و سوف تتأثر حياة المرء العملية اذا تغلغلت فيه هذه الحقيقة الدينية، فهو يختار ماير ضاه الله حين يعرض له أمر من الأمور ، ويعرض عما سـواه، وتشـهد حياته الخارجية على حياته الداخلية وتكون دليلا عليها ، ولا يمكنه أن يسـلك سبيلا يؤدى به إلى سخط الله وغضبه ، وبهذا الاعتبار تكون السياسة والمدنية كلها دينا » . فالأمر الأول هو حقيقة الدين بينما الثانى هو مقتضـى ، هذه الحقيقة الذى يكون مطلوبا من أهل الدين حسـب الظروف والوسع ، والأول مطلوب من كل فرد فى كل الأحوال ، ولايصح دين أحد إلا به ، وبهذا الاعتبار كان الأنبياء والمصلحون أصحاب دين ، أما مقتضيات الدين الاجتماعية والمدنية فهى ليست مطلوبة بصفة مطلقة ، بل تكون مطلوبة بحسـب الظروف والأحوال ، وبهذا الاعتبار كان ثمة اختلاف بين الشـرائع التى أنزلت على الأنبياء فى كل العصور، ومنهم من أنزلت عليه الأحكام العملية السياسية والمدنية ومنهم من لم تنزل عليه ، وكلهم كانوا ذوى دين صحيح كامل برغم تباين شرائعهم وتفاوتها ».

ولو كان النظام الاجتماعى والسياسى والمدنى هو المعنى الحقيقى والأساسى للدين لتحقق وجوده وتطبيقه مع كل نبى، وإلا كيف يكون نبيا أو رسولا وأساس دينه وتدينه غير قائم فى الواقع ، وغير مطبق فى الحياة ، بل ربما لم يتنزل عليه من الأساس ؟

ثانيا : بعض المقتضيات التبعية للدين :

قال الشيخ : سبق أن بينا أيها الأمير المعنى الحقيقى لكلمة « الدين » ومفهومها الأساسى والأصلى ، لكن ماهى المقتضيات التبعية التى تترتب على هذا المعنى الحقيقى وذلك المفهوم الأول لهذا المصطلح ؟

إن الأصل المطلوب من المرء هو عبادة الله تعالى ، وهى غاية الرسل والرسالات كما أنها حق الله على خلقه ، ولذلك يقول القرآن الكريم ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ هذه هى غايتهم ، وهذا هو هدفهم ، ولما كانت العبادة غاية للخلق وهدفا فقد أمرهم الله بها فقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ ، ولما كانت هذه هى رسالة الرسل وغاية بعثتهم فقد قال القرآن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ، ولأنها لازمة ومطلوبة فى كل الأحوال لاتخضع لتقديرات الظروف وتغيرات الأحوال فقد أمرالله بها نبيه بصفة دائمة لاتنفك عنه فقال له ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ ، وكل هذه هى المعانى القلبية والمقتضى الأول للدين الذى لايصح أن ينفك عنه الإنسان ، ولاينفك هو عن الإنسان بصفته عبدا لخالقه ، ولذلك جاءت العبادة فى مقابل الا ستكبار الذى هو أيضا فى الأساس معنى قلبى داخلى ، ثم تظهر بعد ذلك آثاره ومقتضياته على الوضع الخارجى للانسان ، فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، ولقد فسر ابن عباس قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : يعنى إياك نوحد ونخاف ونرجو ربنا لاغيرك . ويقول ابن كثير « العبادة فى اللغة الذلة ... وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف » انظر تفسير ابن كثير ، ويقول ابن تيمية « لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال المحبة »، وقال ابن القيم « العبادة تجمع أصلين غاية الحب وغاية الذل والخضوع » ، ويقول فى نونيته :

وعبادة الرحمن غاية حبه　　　مع ذل عابده هما قطبان

يقول وحيد الدين خان : « إن العلاقة بين العبد وإلهه هى علاقة غاية الذل والخضوع ، فحين يتضرع العبد من شدة الخشوع ، وحين تنهمر العبرات من عينيه من خشية الله يهدى العبد أعظم أمانيه وآماله إلى معبوده بكل شوق ، وهو يجد نفسه فى أسمى كيفيات الحب الإلهى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] .... والحقيقة

أن كيفية « الحب - الخوف » هذه لايمكن التعبير عنها تعبيرا صحيحا بالكلمات المتاحة فى معاجمنا ، إنها كيفية تجمع بين غاية الأمل وغاية الرهبة .... إنها مزيج من الحب والخوف حيث يجرى الإنسان نحو الذى يخافه ، ويتمنى وصال الذى يخشى عذابه ، وهى اضطراب كله سكون ، وسكون كله اضطراب » .

« إن العبادة فى معناها الحقيقى واقع حسى » أى شعورى يملك على المرء أحاسيسه « وليست واقعا خارجيا .... إن العبادة فى حقيقتها الخارجية حياة التقوى ، وفى حقيقتها الداخلية إدراك الله إدراكا عميقا ، والتعلق به سبحانه تعلقا متينا ، تلك العلاقة التى يظهر فيه العبد مع خالقه كأنه يراه ، .... إن أعلى مدارك العبادة أن يستغرق العبد فى ذكر سيده ومولاه حتى يشعر كأنه يراه ويحس به ، وهذا الشعور هو منتهى العبادة وحقيقتها وروحها ، وجميع الأعمال من شعائر ومناسك وشرائع إنما هى طرق ووسائل للوصول اليها » .

« إن علاقة الحب والخشية لله هى غاية فى حد ذاتها يجب أن يسعى الجميع لتحصيلها ، وإنما كل الشرائع العملية والعلمية جاءت لتحقيق هذه الغاية ، الغاية هى إقامة العلاقة بين المخلوق وبين خالقه، وهذه ليست علاقة فكرية أو خارجية إدارية فحسب ، لكنها فى المقام الأول علاقة قلبية نفسية روحية ، ثم تنعكس على الجوارح والأفكار والسلوك وعلى كل جوانب الحياة ، وهذه العلاقة هى الدين بمفهومه الأول والأصيل والأساسى » .

إن المقتضيات التبعية للدين والعبادة تتمثل على سبيل الإجمال فى أمور أربعة :

الأول : الطاعة لتعاليم وأحكام هذا الدين الذى أقام العلاقة الروحية بين العبد وخالقه ، فانعكست هذه العلاقة فى صورة الطاعة له سبحانه وتعالى وتسليم الاختيار له جل جلاله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، ثم هذه الطاعة منها ما هو مطلوب على مستوى الفرد ، وهو مايسمى بالفرض العينى مثلا ، ومنها ما هو مطلوب على مستوى الأمة أو المجتمع ، وهذه فروض الكفايات ، التى قد تتعين أحيانا بحسب الحاجة إليها ، فالصلاة فرض عين بينما الجهاد فرض كفاية وقد يتعين فى بعض الحالات ، ومنها ما هو مطلوب ندبا واستحبابا .

الثانى : التبليغ عن الله وعن رسوله : فما دمت قد ذقت طعم القرب وحلاوة العبادة لله لابد أن تدعو غيرك إليها قدر ا ستطاعتك ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة] ، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر]- ، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء] ، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل] ، ثم الأمة مكلفة بالبلاغ هى أيضا ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة] ، ثم هذه الشهادة وذاك البلاغ يتطلب منكم

قراءة القرآن عليهم وتفهيمهم ا ياه ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت] ، وتعرض الدعوة بقدر حاجة المدعو، وبحسب طاقة الداعية كما هو معلوم ، حتى ان الإسلام يرضى منك بأقل القليل مادام هذا هو مافى وسعك ، ففى الحديث « بلغوا عنى ولو آية » .

الثالث : النصيحة والأمر بالمعروف ، وهذه ضمانة لوقاية الدين من التحريف أو الاستهانة به أو إهماله ، وتكون على المستوى الفردى أيضا ، وكذلك على المستوى المجتمعى ، وفى الحديث « الدين النصيحة » ، وفى القرآن الكريم ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾، إن عمل الصالحات هو صورة لمرتبة العبادة ، والتواصى بالحق والصبر صورة لمرتبة العبودية التى هى دعوة الغير إلى الخير بعدما تخلق به صاحبه ، وهكذا فى الجانب الاجتماعى تخرج الأمة من بينها من يقوم بآداء واجب الإصلاح و النصح وانفاذ تعاليم الدين فى الناس وذلك بحسب طاقة الأمة وبقدر وسعها ، فما عجزت عنه سقط عنها ، ووجب عليها الأخذ بأسباب أدائه مستقبلا متى تطلب منها ذلك .

الرابع : نصرة الدين بإحياء ما اندرس منه ، وبيان ماخفى على الناس من أحكامه ، ومحاولة نشره وحفظه من النسيان والضياع أو الهوان ، وهو بتعبير الإسلام إعلاء كلمة الدين وإظهاره على غيره . قال ابن عبد السلام « قد أمرنا الله بالجهاد فى نصرة دينه ، إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه ، كما أن سلاح الملك سيفه و سنانه ، فكما لايجوز للملوك إغماد سيوفهم عن الملحدين والمشركين ، لايجوز للعلماء إغماد السنتهم عن الزائغين والمبتدعين » راجع « خطأ فى التفسير لوحيد خان » ، وهذا نوع من التجديد الذى تكفل الله ببقائه وظهور صاحبه على رأس كل مائة سنة .

بذلك يتبين لنا أيها الأمير ما هو المعنى الحقيقى لكلمة الدين ، وماهو المعنى الاقتضائى التبعى لهذه الكلمة ، والآن نعود إلى تعريفك الجامع لكلمة دين لننظر فيها من جديد .

قال الشيخ : وبالنظرة المدققة فى كلامك أيها الامير وفيما نقلته كذلك عن المودودى حول المعنى الجامع لكلمة « الدين » نجد الأخطاء بعينها التى ذكرت فى المفاهيم الثلاثة السابقة – الإله والرب والعبادة – ، لقد سويت أنت والمودودى بين المعنى الأصلى الحقيقى لكلمة الدين وبين معناها الفرعى أو الاقتضائى أو اللزومى ، ثم قمتما بإحلال الفرع محل الأصل ، وبالتالى أصبح المعنى الاقتضائى لمفهوم كلمة الدين هو المحور والهدف والأساس ، وتحول المعنى الأصلى خادما وتابعا للمعنى الفرعى بناءا على هذا الترتيب الجديد ، وذلك على عكس منطق وطريقة القرآن ومبادىء الرسالة التى تجعل الفرع تابعا للأصل وخادما له ومترتبا عليه ، وكما يقول الأصوليون :

الأصـــل مـاعـلـيـه غـيـره بـنـى والفرع ما على ســواه ينبنى

ولتوضيح ذلك نذكر المسائل الآتية :

المسألة الأولى : تسوية الفرع بالأصل – فقد أخذ الأستاذ المودودى فى كتابه معانى أربعة لكلمة الدين ، رأى أنها كانت معروفة عند العرب لهذة الكلمة ، وأنهم كانوا يستخدمونها بهذة المفاهيم كلها ، كل مفهوم فى مو ضعه ، وعلى صورته ، ثم جعل يربط هذه المعانى بدلالات القرآن الكريم فيقول تحت عنوان «ا ستخدام كلمة الدين فى القرآن » : فيتبين فيما تقدم أن كلمة الدين قائم بنيانها على معان أربعة ، أو بعبارة أخرى هى تمثل فى الذهن العربى تصورات أربعة أ سا سية «– لاحظ كلمة أ سا سية – أولها القهر والغلبة من ذى سلطة عليا ، والثانى الإطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضـع لذى الســلطة ، والثالث الحدود والقوانين والطريقة التى تتبع ، الرابع المحا سبة والقضاء والجزاء والعقاب . تنبه إنه و صف هذه جميعها بأنها تصورات أ سا سية و هذا غير صــحيح ، ثم يقول بعد ذلك : « ... نزل القرآن فو جد هذه الكلمة ملائمة لأغراضـــه فاقتناها وا ستعملها لمعانيه الوا ضحة المتعينة وا صطنعها مصطلحا له مخصو صا ، فأنت ترى أن كلمة «الدين» فى القرآن تقوم مقام نظام بأكمله يتركب من أجزاء أربعة هى : الحاكمية والســلطة العليا ، الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والســلطة ، النظام الفكرى والعملى المتكون تحت ســلطان تلك الحاكمية ، المكافأة التى تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له .هكذا جمع الأستاذ المعانى اللغوية الأربع وسماها « أساسية »، ثم ذكر نفس المعانى وقال أنها وردت فى القرآن بنفس المفهوم ، ولم يفرق بينها من حيث الأســاس والأصــل أو من حيث التبعية والفرع ، إنما ذكر أن القرآن دل عليها جميعا وحســب ، وذهب يدلل على كل معنى بمفرده بمجموعة من الآيات التى يرى فيها تأييدا لرؤيته وفهمه ، ومرة ثانية أكرر أنه ذكر هذه المعانى، واستدل لها من القرآن الكريم دون أن يبين أى هذه المعانى هو الأصل وأيها هو الفرع ، ولا أيها هو المعنى الحقيقى ، والآخر هو المعنى الاقتضــائى غير أنه فى التعريف اللغوى لكلمة الدين اعتبرها كلها معان أساسية كما سبق بيانه ، فسوى بينها بهذا الوصف.

المسألة الثانية : استبدال المعنى الفرعى بالمعنى الأصلى ليصبح الفرع أصلا والأصل فرعا :

لقد كتب الأستاذ تحت عنوان « الدين المصطلح الجامع الشامل » : « إلى هذا المقام قد استعمل القرآن كلمة الدين فيما يقرب من معانيها الرائجة في كلام العرب الأول ، لكننا نراه بعد ذلك يستعمل هذه الكلمة مصطلحًا جامعا شاملاً يريد به نظامًا للحياة يذعن فيه المرء لسلطة عليا لكائن ما ، ثم يقبل إطاعته واتباعه ويتقيد في حياته بحدوده وقواعده وقوانينه ، ويرجو في طاعته العزة والترقي في الدرجات وحسن الجزاء ،

ويخشى في عصيانه الذلة والخزي وسوء العقاب» . ونحن لاننكر أن الدين فعلا هو نظام كامل للحياة ، وندعو أنفسنا وغيرنا لجعل الدين منهاجا ونظاما تسير عليه حياتنا جميعا ، نحن لانختلف فى ذلك ولا فى أن مقتضى الدين أن تنتظم كل أمورنا وفق تعاليمه وارشاداته ، هذه مسلمات عندنا لايمكن أن نخضعها للاختيار والانتقاء ، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ ،﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، لكن كلامنا ورفضنا هو أن نرفع النظام ليكون هو محور الدين ومعناه الجامع ، بالرغم من كون الدين فعلا نظام لكنه فى جانب من جوانبه ، وليس النظام هو المعنى الشامل لجوانب الدين ولمزيد بيان نعرض لهذه المقارنة.

– الدين فى معناه الحقيقى الأصلى علاقة قلبية تربط العبد بربه ، بينما النظام هو علاقة ظاهرية ، أوامر تلقى وطاعة تنفذ .

– الدين شعور ينبع من داخل الإنسان ، يشعر فيه المرء بالقرب والأنس والشوق والتعظيم والإكبار لخالقه سبحانه ، بينما النظام علاقة تؤدى إلى الانضباط الظاهر، لادخل لها بالروح ولا القلب ، بمعنى أن النظام لايهتم بقلوب الناس انما يهتم بـ سلوكهم ، وبالتالى فما ينتج عن التدين من سلوك ينمو بـ شكل طبيعى لأن له جذورا فى قلب صاحبه وروحه ، بينما ماينتج عن النظام من سلوك يكون ضعيفا هشا سطحيا على غير أساس ، فليس له جذور فى القلب ، بل إن السلوك نفسه فى الدين يعمل على تزكية الروح وبلوغ السعادة النفسية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ ، تصلى لتذكره ، وتصلى لأنك ذاكر له ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ، وعندما تذكره تشعر براحة وسكينة تملأ قلبك وتغشى حياتك وتجمل وجهك ، فتنعكس على محياك هالات التدين ، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾، ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ، ومهما كان فى حياتك من ذنوب خفية أو معلنة ، باطن الإثم وظاهره ، فالصلاة والذكر ينهيان عن تلك المعاصى وذاك الإثم ، ويطهران العبد من أدرانهما ، هكذا السلوك فى الدين ، بينما فى النظام يقف عند المظهر ولا يعبأ ببواطن الناس ولابمشاعرهم وأحاسيسهم .

– الدين يشمل كل جوانب وأركان ومركبات الشخصية ، فتخرج سوية متزنة روحا وعقلا وبدنا وسلوكا ، بينما النظام مهما بولغ فى و صفه فهو منظومة قوانين وتعليمات تدخل ضمن مركبات الدين ولايستغنى بها عنه ، فالدين هو المعنى الشامل الكامل ، بينما النظام هو المعنى المجزوء الناقص الذى يحتاج إلى باعث وضابط وغاية ، أما الدين فهو نفسه الباعث والضابط والغاية التى يسعى المرء إلى تحصيلها والفوز بها .

– الدين يصلح للشخص دنياه وآخرته ، بينما القانون والنظام تصلح به دنياه ، ولادخل له بالآخرة ، ففى النظام غاية جهد العبد وبالغ همه التقدم فى الحياة والرفاهية والتمدن ، بينما فى الدين ي سبق ذلك بتقدم روحى خلقى و سعادة دائمة لاتنقطع ولاتنتهى ولاتو صف بعبارة ، وقد نجد الكثيرين ممن اعتبروا النظام هو محور الدين وهدفه نجدهم يعانون من جفاف الروح وقساوة القلب على الرغم من براعتهم فى التنظير والتأطير ، فيعيش أحدهم فى وحشة مع نفسه فى الوقت الذى يرى أنه قدم أكبر الخدمات للإسلام وللإنسانية ، فاستمتع هو والناس بالتنظيروالتنظيم ، بينما حرم هو حرارة الشوق وحلاوة المنا جاة ، وامتلأ صدره بد خان المناظرات السياسية والعلمية ، وربما لم تجد روحه نسيم النفحات الربانية.

هل عرفت أيها الأمير لماذا لايصح أن نرفع النظام ليكون هو المعنى الجامع للدين ،؟ لأن حقيقة العلاقة الروحية القلبية ستغيب وتنزوى ليحل محلها العلاقة النظامية التى تربط العبد بخالقه ارتباط الترس بأخيه دون وجود أى مشاعر أو أحا سيس بينهما ، أما أهل الدين وأ صحاب التدين فهم فى علاقتهم مع الله «يحبهم ويحبونه » ، ليس فقط يأمرهم فيطيعونه .

الدين بمعناه الأصلى الذى هو العلاقة الروحية بين العبد وخالقه ، هذا مطلوب فى كل الأوقات وكل الأحوال ومن كل الأشخاص ، فهو شعور الفطرة ا لذى لا غنى عنه ، بينما النظام والتعاليم والأوامر والتكاليف مطلوبة بحسبها ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، فالدين دائم دائب شامل والنظام مؤقت محدود ناقص .

بل إن النظام السيا سى والفكرى والحكومى لا ينمو ولا يستقيم الا لدى أ صحاب التدين الذين وجدوا حقيقة العلاقة مع الله ، ولذلك بوب العلماء باب السياسة الشرعية ، فنسبوها إلى الشرع ولم ينسبوها إلى النظام ، كما أنهم نسبوها إلى الشريعة ، ولم ينسبوا الشريعة اليها ، فيقولون النظام الإ سلامى ، ولا يقولون الإ سلام النظامى ، ذلك لأن الدين والشرع هما الأصل والحكم والنظام والسياسة هى الفروع التابعة لأصلها .

المسألة الثالثة : التعسف فى الاستدلال : –

نراك أيها الأمير فى ا ستدلالك لفكرتك تتعسف فى تصريف آيات ودلالات القرآن لتذهب بها إلى صحة ماتعتقده وتقوله ، وأضرب لذلك أمثلة من الآيات التى اعتمدت عليها لاثبات مذهبك القائل بأن النظام هو روح الدين وجوهره ومعناه الشامل:

الآ ية الأولى قو له تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة] .فقد قسمت الآية إلى مقاطع واســتنتجت من كل مقطع معنى ، ثم جمعت هذه المعانى كلها لكلمة الدين فى قوله ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ ﴾ ، فاســتنبطت من قوله ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ المعنيين الأول والثانى : أى الســلطة والحاكمية والطاعة ، واســتنتجت من قوله ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ معنى الجزاء والمحاســبة ، أما قوله : ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ، فقد فسرتها بالنظام الفكرى والالتزام بالشرائع والقوانين الثابت تحت سلطان الحاكمية ، ثم جمعت هذه الأربع فى قوله ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ ﴾ لتخرج بالمعنى الشامل للدين فى نظرك ، الذى هو سلطة وحكم ونظام وجزاء ، وهذا الاستدلال أصابه العور من عدة وجوه :

الوجه الأول : أنه لم يقل به أحد قبلك ، بل لم يشر إلى هذا التقسيم من قبلك أحد فيما أعلم ، ولو كان خيرا لسبقوك اليه ، إلا أن تقول ماقاله الشاعر :

إنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم يستطعه الأوائل

الوجه الثانى : أما استدلالك بقوله ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ على اثبات سلطان الله وحاكميته فهذا من الغريب ، بل من الغريب جدا ، كأنك تستدل بالإيمان بالله على إقامة الحكومة ، لقد بينا أن الحكم انما هو مقتضى من مقتضيات الإلوهية ، وأثر من آثارها ، وليست الإلوهية هى الحاكمية ، ولا الحاكمية هى الإلوهية فى معناها الأصلى كما تتصور أنت ، بل لم يعرف أحد الإله بأنه الحاكم ، ولم يقل غيرك بأن الألوهية هى الحاكمية ، كما لم يقولوا بأن الحاكمية هى الألوهية ، وإنما جعلوا الحاكمية أثرا من آثار الألوهية ، ومقتضى من مقتضياتها ، و لم يجعلوها أصلا لها فضلا أن يقدموها على الإلوهية كما فعلت أنت ..

الوجه الثالث : تفســيرك لقوله ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ بالنظام الفكرى والتشــريعى المتكون تحت سلطان الحاكمية ، تحميل للكلمات مالاتحتمله .

الوجه الرابع : تفسيرك لقوله ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ ﴾ بأنه يشمل المعانى الأربعة ، هذا كلام يفتقر إلى القرينة ، بل إن من الأنبياء من عاش و مات دون أن يقيم حكومة لله فى الأرض ، ودون أن يقيم دولة لدعوته ، فهل هؤلاء الرسل لم يكونوا على الدين الحق ؟ ابراهيم ، وعيسى ، ويحيا ، وزكريا ، وغيرهم هل أقاموا دولة وحكومة ؟ إن قلت نعم فهات ما عندك ، وإن كانت الأخرى فدع ما تقول به من تفســيرك لكلمة « الدين الحق » بأنها تشمل المعانى الأربعة ، وإن قلت لم يفرض عليهم إقامة حكم اسلامى فقد نقضت قولك بأن السلطة

والحاكمية هى الألوهية ، أو هى روحها وجوهرها ، إذ كيف ينزل الله رسالة خالية من جوهر الإلوهية وروحها ومعناها الأساسى كما تقول أنت ؟.

الوجه الخامس : هذه الآية تحدثت عن قتال أهل الكتاب ، وجعلت سبب قتالهم – بحسب سياقك – عدم الإيمان بالله ولا باليوم الآخر، وعدم تحريم ماحرم الله ، ورسوله ولأنهم لا يدينون الدين الحق – بحسب تفسيرك لها – ، لكن عند النظر إليها بغير عينك نجد أنها جعلت انهاء القتال موقوفا على اعطائهم الجزية، فكيف تفسر قوله ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ بأنها تعنى المعانى الأربعة ،التى هى « سلطة وحكم ونظام وجزاء » ؟، ثم تكتفى منهم بإعطاء الجزية ؟ أليس فى هذا تعارض مع ماقدمت به ؟ فهل يأمر الله تعالى بقتالهم حتى يدينوا دين الحق كما تتصوره أنت ثم يكتفى منهم بإعطاء الجزية ويوقف قتالهم ؟ ثم كيف يقاتلوا حتى يدينوا دين الحق كما تقول ؟ كيف يمكن حملهم على الإيمان مع أن الإيمان محله القلب ، ولا سلطان عليه لأحد من البشر ؟ وهل يصح إيمان المكره شرعا ؟ ، وهذا مما يتنافى مع منطوق الآية كما ترى حيث جعلت الغاية فى قتالهم حتى إعطائهم الجزية ، كما أنه يتنافى مع مقتضيات العقول التى تمنع استمرار القتال إلى غاية غير محدودة ، ولايمكن تحديدها لأنها فى القلب كما ذكرنا ، فالمقصود إذن استمرار القتال حتى ينزلوا على حكم الإسلام ويخضعوا لسلطانه فى أمور الجزية ، أما إيمانهم فهو موكول إلى اختيارهم واقتناعهم ، ثم هم يتحملون جزاء هذا الاختيار، فالآية تحدثت عن عدم إيمانهم ، وكذلك عن عدم خضوعهم لدين الإسلام ، ثم منعت حربهم إذا أعلنوا الطاعة والخضوع بدفع الجزية دون اشتراط الإيمان ، ما يدل على عدم استمرار القتال إلى حصول الإيمان منهم ، لأنه حينئذ يكون قتالا إلى ما لانهاية ، أو إلى غاية لايمكن ضبطها ، كما تتصور أنت أن الباعث على القتال هو عدم تدينهم بالدين الحق بمعناه الشامل كما تقول ، فإن قلت : نكتفى بحملهم على الإيمان الظاهر ونكل سريرتهم إلى الله ، قلنا : وهل يحمل الإسلام المنافقين على الإيمان ليظهروا اعتناقه ويكيدوا له كيدا ؟ اللهم لا، وإنما جاءت الآية فى سياق طويل عن الجهاد والقتال لقوم يحاربون الدعوة ، ويقاتلون الرسول ﷺ ، فأمر الله تعالى بقتالهم مبينا مااجتمع لديهم من شرور وفساد ، فهم أولا يقاتلون الإسلام ورسوله ، كما أنهم لايؤمنون بالله ، ولايؤمنون بالآخرة ، ولايعترفون بحرام أو حلال ، ولايدينون بدين صحيح بعد مبعثه ورسالته ﷺ ، فقد أضافوا إلى شرور كفرهم وعدم إيمانهم شر القتال للإسلام ورسوله ، استكبارا وعتوا وبغيا وعدوانا ، فلزم كسر شوكتهم ، وإرغام أنوفهم واستعلائهم الباطل ، وذلك برد العدوان الواقع منهم ، وحملهم على دفع الجزية وهم صاغرون ، جزاء ما حاربوا الإسلام وهم مستكبرون ، وليست الآية حديثا عن المعانى الأربعة ، ولاعن المعنى الجامع الشامل – النظام – الذى

سميته بلاسبق من سلف ولاسند من خلف بـــ ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ ، فالآية وصف لأقوام وليست أمرا بقتالهم بسبب هذه الأوصاف ، وإلا لكانت نهايتها « حتى يدينوا دين الحق » وهى كما ترى لم تقل ذلك ، وإنما قالت ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ ، وبربط الآية بما قبلها ومابعدها من الآيات يظهر لك جليا صـدق ماقلناه - راجع فى ذلك « القرآن والقتال» للشـيخ شـلتوت رحمه الله ،و «مائة سـؤال عن الإسـلام » للشـيخ محمد الغزالى ، « العلاقات الدولية فى الإسـلام » لأبى زهرة ، كما يوجد كلام طويل للمفسـرين لم يقسـموا فيه الآية هذا التقسـيم الذى ذكرته أنت أيها الأمير، وان شـئت راجع فى ذلك الطبرى والقرطبى وابن كثير والألوسى وغيرهم لن تجد فى واحد منها هذا التقسيم ، ولاهذا الزعم . أرأيت كيف تعسفت فى استخراج الدليل على مذهبك بصـورة لم تخدمك ولم يذكرها أحد قبلك ؟ ولا أقرها من العلماء أحد بعدك ؟ بل نجد أميرك المودودى الذى نقلت عنه هذا الكلام من خلال مصـطلحاته الأربعة قد قال بخلافه فى كتابه الحكومة الإسلامية فيقول : « لقد أبيح فى هذه الآية قتال من لايتخذون هذه الشريعة التى أنزلها الله على يد رسوله ﷺ قانونا يحكم الحياة بأسـرها ، وغاية القتال ليسـت رجوعهم مؤمنين واتباعهم دين الحق ، بل القضـاء على نفوذهم وسـطوتهم فلا يكونوا حكاما أو أولى أمر فى الأرض ....والجزية نظير مايناله الذميون من أمن وحماية فى الدولة الإسـلامية » . هكذا يقول المودودى فى حكومته الإسـلامية ، فأى القولين نتبع ؟ ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ .

المجموعة الثانية قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، وقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] ، وقوله ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ، وقوه تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [سورة النصر] .نراك تذكر هذه الآيات ثم تقول أيها الأمير: المراد بالدين فى هذه الآيات هو نظام الحياة الشامل لنواحيها من الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية ، ففى الآيتين الأوليين يبين الله تعالى أن نظام الحياة الصحيح المرضى عند الله هو النظام المبنى على إطاعة الله وعبديته ، وأما ماسواه من النظم ... فإنه مردود عنده - هكذا تقول -، ولكن هل هذا التأويل صحيح ؟ لننظر قبل الجواب إلى ماقاله المفسرون حول الآيتين السابقتين ، قال فى روح المعانى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ أى لادين مرضى عند الله تعالى سوى الإسلام » ، يقول وحيد الدين خان « .... وتنصان صراحة على أن طريق النجاة يوم القيامة هو الإسلام ليس إلا ، ثم نقل عن الخازن قوله « ... يعنى الدين المرضى عند الله هو الإسلام ، كما قال تعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾، وفيه رد على اليهود والنصارى

لما ادعت اليهود أنه لادين أفضل من اليهودية ، وادعت النصرانية أنه لادين أفضل من النصرانية ، رد الله عليهم ذلك فقال ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ .....ثم نقل ايضا قول الخازن « بين تعالى أن من تحرى بعد مبعثه ﷺ غير شريعته فهو غير مقبول منه » ، وقال ابن كثير « .... اخبارا منه تعالى أنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى ختمهم بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ص ، فمن لقى الله بعد مبعث محمد بدين على غير شريعته فليس بمتقبل » ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، وقال فى هذه الآية مخبرا انحصار الدين المتقبل عنده فى الإسلام » ، ثم يقول العلامة السعدى فى تفسيره « يخبر تعالى أن ﴿ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أى الدين الذى لادين سواه ولامقبول غيره ، هو الإسلام » ، وهو الانقياد لله وحده ظاهرا وباطنا بما شرعه على ألسنة رسله ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ، فمن دان بغير دين الإسلام فهو لم يدن لله حقيقة ، لأنه لم يسلك الطريق الذى شرعه على ألسنة رسله » .

هذة نصـوص العلماء لم يذكر واحد منهم كلمة النظام ، ولا نظام الحياة ولا شـيئا من هذا القبيل ، وإنما ذكروا دين الإ سلام المنزل على الر سل جميعا وخاتمهم محمد ص . لكنك تصر أيها الأمير كل الإ صرار على تفسـير الدين بالنظام ، فتكرر نفس المعنى واللفظ حول تفسـيرك لآية التوبة ، وآية الأنفال ، فتعتبر أن هدف الرسـالة ظهور النظام القائم تحت مظلة الإسـلام على كل الأنظمة الأخرى ، لتؤكد أن الهدف الأول من الرسـالة هو إقامة نظام الحياة ، ولكن بالنظر إلى واقع الدعوة لانجد هذا التفسـير ، ففى تعامله مع مشـركى العرب وقد قاتلوه ، وهم أعرف الناس بصـدقه وأمانته ، وأولى الناس بتصـديقه واتباعه ، فقد بعث منهم وأرسـل فيهم ، وهم أول من عجز عن مجاراة القرآن وعن الاتيان بشـىء من مثله رغم فصـاحتهم وبيانهم ، وهم أكثر وأول من حاربه وآذاه ، بل وطارده وأصـحابه فى البلاد والأقطار ، ونكثوا عهدهم معه ، وتنكروا لكل أعرافهم ومبادئهم التى عاشـوا يقدسـونها ويعظمونها ، فكان لهم حكم خاص على أحد الأقوال دون غيرهم، وهناك آراء أخرى بصـدد حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشـهدوا ألا إله إلا الله ......» وهو حديث صحيح كما تعلم أ سوق لك منها ماقاله ابن حجر فى الفتح : « فان قيل مقتضى الحديث قتال كل من امتنع عن التوحيد فالجواب من أوجه :

أحدها : دعوى النسـخ بأن يكون الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة متأخرا عن هذه الأحاديث ، بدليل أنه متأخر عن قوله تعالى « فاقتلوا المشركين » التوبة.

ثانيها : أن يكون من العام الذى خص منه البعض ، لأن المقصــود من الأمر حصــول المطلوب ، فاذا تخلف البعض لدليل لم يقدح فى العموم .

ثالثها : أن يكون من العام الذى أريد به الخاص ، فيكون المراد من الناس فى قوله « أقاتل الناس » أى المشركين من غير أهل الكتاب ، ويدل عليه رواية النسائى بلفظ « أمرت أن أقاتل المشركين » ، فإن قيل اذا تم فى أهل الجزية لم يتم فى المعاهدين ولافيمن منع الجزية ، أجيب بأن الممتنع فى ترك المقاتلة رفعها لاتأخيرها مدة كما فى الهدنة ومقاتلة من امتنع عن أداء الجزية بدليل الأية .

رابعها : أن يكون المراد بما ذكر من الشهادة التعبير عن إعلاء كلمة الله ، واذعان المخالفين ، فيحصل فى بعض بالقتل

وفى بعض بالجزية ، وفى بعض بالمعاهدة .

خامسها : أن يكون المراد بالقتال هو أو مايقوم مقامه من جزية أو غيرها .

سادسها : أن يقال الغرض من ضرب الجزية هو اضطرارهم إلى الإسلام ، وسبب السبب سبب ، فكأنه قال : حتى يسلموا أو يلتزموا مايؤديهم إلى الإسلام وهذا أحسن .... » . ، وللشيخ محمد الغزالى كلامه حول هذا المعنى يقول : « .... فقد طارت أذهان إلى أن الناس تعنى البشــر كلهم و هذا غلط با جماع العلماء .... فليست الغاية من القتال إذن أن يقولوا لا إله إلا الله كما جاء فى الحديث ..... إن الناس هنا ليسوا البشر جميعا إنهم العرب وحسب ، رأيت فريقا يخدعه الظاهر القريب من الحديث فيتوهم أن الرسول يشن حربا شاملة على البشر ، ولايزال يحرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين ، وهذا فهم ... لم يقل به فقيه » وهذا ابن تيمية يقرر : « والمعنى أنى لم أؤمر بالقتال إلا إلى هذه الغاية ، ليس المراد أنى أمرت أن أقاتل كل أحد إلى هذه الغاية ، فإن هذا خلاف النص والإجماع ...» ، وكذلك يقول الصنعانى : « أن الحديث سيق لبيان الغاية التى أبيح إليها القتال ، بحيث إذا فعلوها حرم قتالهم ، أو أن المعنى أنى لم أؤمر بقتال الناس إلا إلى أن يقع منهم القول ، لاأنى أمرت بشــق قلوبهم ، وحمل الحديث على هذا متعين لأن الواقع أنه ص ماقاتل الناس إلى أن يقولوا كلمة التوحيد ، بل كف عن أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية وكذلك المجوس ، ... وقيل المراد بالحديث المحاربون ولفظ الناس من العموم الذى يراد به الخصوص » ، هذه بعض نصوص الفقهاء لاتقول بما قلته من ضـرورة القتال حتى يحصـل منهم الإيمان ، وهذا الكلام يتوجه فى مشـركى العرب ، بينما طرح خيارات ثلاثة لأهل الكتاب ، هى الإسلام أو الجزية أو السيف ، وفى كلا الفريقين لم يظهر الدين بمعناه

الشـامل الذى تفسـره به ، ففى المشـركين هزمهم سـياسـيا ولكنه لايقدر على إرغامهم على الدخول فى الإسلام فهذا ليس له « انك لاتهدى من أحببت » ، وفى أهل الكتاب انتصر عليهم سياسيا وبقى منهم من بقى على عقيدته كذلك ، وبالتالى ليس الهدف الأول والأسـاس هو الاظهار الكامل فى كل الجوانب ، وعلى كل الأنظمة كما تقول أنت ، إنما المعنى كما يقول المفسـرون « هو الإظهار العام ، إما على الأديان الأخرى أو على أفرادها»، ففى الكشاف يقول : « أى على أهل الأديان كلهم ، أو ليظهرن دين الحق على كل دين » ، وعند النسـفى مثل ذلك ،وبالتالى فظهوره لايعنى اعتناقه من الجميع ، ولكنه بمعنى معرفتهم بأنه الحق واقرارهم على أنفسـهم بذلك حالا أو مقالا ، حتى ولو لم يدخلوا فيه ، أما آية الأنفال فيكفى أن أنقل لك تضـارب أقوالكم حولها فى موطنين من الكلام ، فتارة تقول نقلا عن المودودى « المراد بالدين نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها الاعتقادية والفكرية والخلقية والعملية » ، وتارة يقول المودودى حول الآية نفسها فى كتابه تفهيم القرآن : «ويكون الدين لله سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، ولكن السلطان لله على الأرض ، ويقاتلون لأجله »، ففى المصـطلحات فسـر الدين بالنظام الشـامل بما يؤدى لقتال الناس كافة حتى يعتنقوا الإسـلام ، وهذا مخالف لمبدأ لا إكراه فى الدين ، كما أنه لا يمكن ضبطه ، بينما فى تفهيم القرآن يجتزىء الدين على السلطان فى الأرض ويجعل القتال لأجله ، وليس لاعتناق الإسـلام وهذا بالتأكيد هو الصـحيح ، اذ لا سـلطان لأحد على عقائد الآخرين وقلوبهم .

أما سورة النصر فلا يختلف الكلام فيها عن سابقتها من الآيات ، فالدين فيها ليس النظام كما تقول وانما هو: « فجعل الناس يدخلون فى الإسـلام فوجا بعد فوج كما قال ابن عباس ، ورأيت أهل اليمن يدخلون فى ملة الإسلام جماعات كثيرة بعدما كانوا يدخلون واحدا واحدا واثنين اثنين ، أو هى ملة الإسلام التى لايضاف إلى الله دين غيرها » ، فليس فيما ذكروا أيضـا كلمة النظام الشـامل ، وليس الفتح والنصـر تتويجا لإقامة نظام الحياة الانقلابى كما تعتقدون ، إنما هو كثرة دخول الناس فى دين الإسلام المرضى والمقبول عند الله تعالى .

إن الرسـول الأعظم ص حدد جانبا من مهمته فى حديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا وفى لفظ يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » والحديث فى الصحيحين كما هو معلوم، وبصرف النظر عن من هم الناس المعنيون فى الحديث ، وهم مشركو العرب الذين قاتلوه ، وليسوا جميع الناس كما تذهب أنت وأميرك ، نجده ﷺ يقول « حتى يشـهدوا ألا اله الا الله ....» ، ولم يقل «حتى يقيموا نظاما وينصـبوا حكومة ، وإن كان إقامة النظام وتنصـيب الحكومة واجبا من واجبات الدين لكنهما ليسـا هما الدين ، وليس كل منهما مطلوبا باطلاق وإنما بشـروط وقيود وضـوابط كما سـبق بيانه ، وسـيأتى بيان حكم الإمامة فى موضـعه من كتاب «الحاكمية والضوابط المنسية » ، بإذن الله .

وبناءا على ما سبق نجد أن للألفاظ معنى أصليا وآخر فرعيا ، معنى أساسيا وآخر اقتضائيا ، ولابد أن نفرق بين المعنيين حتى لا ننحرف عن الجادة ولانحيد عن الهدف ، ولا تضطرب لدينا الأولويات ، ولا تختلط علينا الوسائل بالغايات ، ويحضرنى هنا بحث يفند هذه الأفكار التى استقيتها أنت أيها الأمير من الأستاذ المودودى وغيره أضعه بين يديك عسى أن يساهم فى تصحيح وضبط بعض المفاهيم المتعلقة بالتفسير السياسى للدين ، واعتبار السلطة والحكم هما لبه وجوهره وروحه وغايته ، وعرض الحاكمية كمترادف للسلطة التى تعنى التنفيذ وليس مترادفا للسيادة التى تعنى المرجعية العليا والحجة الدامغة كما تقول أنت ومن معك أيها الأمير .

يقول الدكتور صبري محمد خليل أ ستاذ فلسفه القيم الإ سلامية في جامعه الخرطوم : « يعتبر أبو الأعلى المودودي رائد مذهب التفسير السياسي للدين ، وهو مذهب معين في تفسير طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة ، يقوم على إثبات العلاقة بين الدين والسياسة ، ولكنه يتطرف في هذا الإثبات ، إلى درجه جعل العلاقة بينهما علاقة تطابق و خلط ، وليست علاقة ارتباط ووحده ، وبالتالي يساوى بين الدين والسيا سة في ا لدر جة ، و قد يتطرف فيجعل السياسة أعلى در جه من ا لدين ، حين يجعل الغا ية هي السلطة – الدولة – والو سيلة هي الدين ، بينما الدين هو الأ صل«الغاية» والسيا سة هي الفرع «الو سيلة»، أى أن الدين بالنسبة للسيا سة هو بمثابة الكل للجزء يحده فيكمله ولكن لا يلغيه ، ومرجع هذا التطرف في الإثبات أن هذا المذهب إنما ظهر في المجتمعات المسلمة في العصور الحديثة والمعاصرة كرد فعل على الليبرالية ، والتي با ستنادها إلى العلمانية نفت اى علاقة للدين بالسيا سة ، وقد ا ستخدم البعض مصطلح «الإ سلام السيا سي» للتعبير عن هذا المذهب، لكن – وكما أشار الكثير من الباحثين – فان هناك الكثير من الإشكاليات المتعلقة بالمصطلح ، فالمصطلح يوحى بأنه ليس ثمة إ سلام واحد ، وأنه ثمة إ سلام سيا سي وآخر غير سيا سي ، فضلا عن نسبه الأ صل(الإ سلام) إلى الفرع(السيا سة) ، لذا نفضل ا ستخدام مصطلح «التفسير السيا سي للدين» ، وليس مصطلح« الإ سلام الـسيا سي»، مع ملاحظة أن المصطلح الأخير يصدق في و صف أحد الأخطاء التي وقع فيها مذهب التفسير السيا سي للدين ، وهو نسبه الأ صل (الإ سلام)إلى الفرع(السيا سة) وليس العكس .

*** ويوضح دكتور صبرى خليل مخاطر التفسير السياسي للدين عند المودوى، وكيف جعل الدين وسيلة وليس غاية فيعلق قائلا :**

أولا : الدين وسيلة لتحقيق غاية إقامة الحكومة الإلهية : يجعل المودودى الدين مجرد وسيله لتحقيق غاية هي إقامة الحكومة الإلهية ، حيث يقول (فغاية مهمة الأنبياء عليهم السلام في الدنيا هي إقامة الحكومة الإلهية، وتنفيذ نظام الحياة بجميع أجزائه الذي جاؤوا به من عند الله ...) ، ويقول المودودى أيضا فى معرض إشارته لإقامة الحكومة الإلهية (هذه هي الغاية التي من أجلها فرض الإسلام عبادات الصلاة والصوم والزكاة والحج ، والتعبير عنها بالعبادة لا يعنى أنها العبادة ليس غير ، بل معنى ذلك أنها تعد الإنسان لتلك العبادة) (نظره فاحصه على العبادات الإسلاميه/ ج ١ / ص١٣)، وبما أن لمصطلح «الحكومة الإلهية» دلالة سياسية واضحة ، فان هذا القول يلزم منه جعل الغاية هي السياسة « بما هي النشاط الهادف للوصول إلى السلطة ، أو السيطرة على الدولة ، والوسيلة هي الدين ، وهذا القول يتعارض مع التفسير الديني -الإسلامى – للسياسة، الذي عبر عنه العلماء بمصطلح السياسة الشرعية – لأنه يجعل الدين هو الأصل «الغاية» ، والسياسة هي الفرع« الوسيلة» ، وهو ما أشارت إليه كثير من النصوص كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[الحج] ، فالآية تعتبر التمكين - بمفهومه الشامل الذي يتضمن البعد السياسي- وسيلة للدين« المتضمن للعبادات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وليس العكس.

*** ثانيا : اختزال الدين في الحاكمية واختزال ألحاكمية في بعدها السياسي :**

وكما يقوم المودودي بعملية اختزال مزدوج ، اختزال الدين في مفهوم ألحاكمية ، ثم اختزال مفهوم الحاكمية في بعدها السياسي نجده يفعل ذلك أيضا مع المصطلحات الأربعة التى اعتبرها محور دعوة القران الكريم حيث يقول ب :

أ- ضيق معاني المصطلحات الأربعة (الإله والرب والدين والعبادة) بعد عصر نزول القرآن وتبدل معانيها الأصلية ، وتبدأ عملية الاختزال المزدوج هذه عند المودودي بتقريره أن معاني المصطلحات ألقرآنية الأربعة الأساسية (الإله والرب والدين والعبادة) قد ضاقت معانيها بعد عصر نزول القرآن وتبدلت معانيها الأصلية.

ويقول دكتور صبرى خليل عن اختزال معانى هذه المصطلحات فى مفهوم الحاكمية والسلطة :

ب- قصر معاني المصطلحات الأربعة على مفهوم الحاكمية وقصر الأخير على معنى السلطة : وتكتمل عملية الاختزال المزدوج هذه عند المودودي من خلال تقريره أن محور المصطلحات ألقرآنية الأربعة

الأســاسـية وفكرتها المركزية هي «حاكمية الإله والرب»، أما الدين والعبادة فهما طريقان يؤديان إليها – أبو الحسن الندوى التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبو الأعلى المودودي / دار ابن كثير / ص٦٣. – حيث يقول المودودى : (فخلا صه القول أن أ صل الألوهيه وجوهرها هو الـ سلطة....ففي جميع هذه الآيات من أولها إلى آخرها لا تجد إلا فكرة رئيســيه واحدة ، ألا وهى أن كلا من الإلوهية والســلطة تستلزم الأخرى) (المـصطلحات الأربعة في القران من ص٢٣). ويقول أيضا (فبقراءة هذه الآيات بالترتيب الذي ســردناها به يتبين للقاريء أن القرآن يجعل الربوبية مترادفة مع الحاكمية والملكية) المصــطلحات الأربعة في القرآن / ص٩٣. ويكـشف دكتور صبرى تعارض فكره ضيق معاني المـصطلحات الأربعة وتبدل معانيها الأصلية مع الضوابط الشرعية في عدة نقاط قائلا :

إن فكرة ضيق معاني المصطلحات الأربعة (الإله والرب والدين والعبادة) بعد عصر نزول القرآن وتبدل معانيها الأصلية تتعارض مع العديد من الضوابط الشرعية :

أولا : فهي تتعارض مع تقرير الله تعالى أن القرآن الكريم يتصـف بالإبانة والوضـوح ، قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف:١-٢]، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة] ، وهذه الإبانة تشمل الكلمات ومعانيها .

ثانيا : كما تتعارض هذه الفكرة مع قاعدة الحفظ الالهى للقرآن الكريم التي وردت الإشــارة إليها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وهذا الحفظ الالهى للقرآن يشــمل كلماته ومعانيه .

ثالثا: كما تتعارض مع تقرير النصوص عدم اجتماع الأمة على ضلالة ، واستمرار ظهور طائفة على الحق وهي أهل السنة والجماعة بمذاهبها الكلامية والفقهية المتعددة قال الرسولﷺ (لا تجتمع أمتى على ضلاله) وقال (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضــرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك) . (أبو الحسن الندوى/ التفسير السياسي للإسلام في مراه كتابات الأستاذ أبو الأعلى المودودي / دار ابن كثير / ص ٣٨وما يليها.) .

ويعلق دكتور صــبرى خليل على الخلط بين توحيد الربوبية وتوحيد الالهية فيقول : الخلط بين توحيد الربوبية والإلوهية:

كما أن تفسـير المودودي لمصـطلحات (الإله والرب والحاكمية .) يقوم على الخلط بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية ، وبين صـفات الربوبية وصـفات الإلوهية، فمضـمون توحيد الربوبية أن الله تعالى ينفرد بكونه الفاعل المطلق فى الوجود ، .... وأما مضمون توحيد الإلوهية أن الله تعالى ينفرد بكونه الغاية المطلقة للموجودات ، يقول ابن تيمية (.... ولكن المراد المسـتعان على قسـمين : منه ما يراد لغيره ..... ومنه ما يراد لنفسـه فمن المرادات ما يكون هو الغاية المطلوب فهو الذي يذل له الطالب ويحبه وهو الإله المعبود ومنه ما يراد لغيره) .. فالإلوهية عند المودودى تتضـمن تصـريف أمور الكون ، بينما هذا التصـريف هو من خصـائص الربوبية لا الإلوهية ، فضـلا عن أنه يعتبر الحاكمية من صـفات الإلوهية ، بينما الحاكمية من صـفات الربوبية وليسـت من صفات الإلوهية ،.... أ هـ .

ختم الشيخ حديثة الطويل مع الأمير المتحمس حول المصطلحات الأربعة ثم توجه اليه قائلا :

بهذا الكلام القيم للدكتور صبرى خليل ، وللشيخ الندوى في تقييم كل منهما للتفسير السياسى للدين الذى تبناه المودودى ، ولمفهوم مصـطلحاته الأربعة ، الذى تبنيته ونقلته عنه أيها الأمير ينتهى بنا الحديث حول مصـطلحات تك الأربعة ، ونخلص في النهاية أنك أيها الأمير ومن نقلت عنهم قد ظلمتم هذه المصـطلحات، وفسـرتموها على غير وجهها ، وجلبتم بهذا التفسـير المتوهم على الأمة الويلات ، وسـعرتم الحروب ، و بذرتم بذور التكفير والفتنة ، ورميتم الأمة بالجهل أو باتباع الهوى ، أسـأتم الظن بالعلماء ، وأحسنتموه بأنفسكم ، وزكيتم ذواتكم وأفكاركم ومناهجكم ، ورميتم الفقهاء والمفسرين بالتلبيس والتدليس ، والتحريف والتزييف ، ولعله الآن قد بان من الذى حرف وانحرف ، من الذى زاغ وتطرف ، من الذى جفى وجافى منهج الإسلام ، وخالف رسول الإسلام ، وحمل القرآن الكريم مالايحتمله ، وكم أنا عازم أكثر من ذى قبل على اسـتكمال الحديث والمحاورة حول الكثير من المصـطلحات والموضـوعات ، التى هى بحاجة إلى مزيد بحث وتحرير ، نعالجها تباعا بمشـيئة الله ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ .

الباب الثاني
التشريع والطاعة

تمهيد

قال الأمير : إننا نعيش اليوم مأ ساة بكل معانى الكلمة ، إننا نرى حكاما ورؤ ساء قد نصبوا أنفسهم أربابا وشركاء مع الله سبحانه وتعالى ، انهم يشرعون للناس القوانين ويضعون لهم الدساتير ، ويردون البشرية إليها فى شئونهم الخاصة والعامة ، بل يلزمون الناس باتباعها ويعاقبون من يرفضها أو يخرج عليها ، فأى كفر فوق هذا الكفر ؟ ، وأى ردة بعد هذه الردة ؟ أليس الله تعالى قد وصـف هؤلاء فى كتابه الكريم بالكفر ؟ أليس قد وصفهم بالشركاء له سبحانه ؟ ألم يسم فعلتهم تلك بالربوبية ؟ فكيف لانكفر من نصب نفسه شريكا مع الإله الواحد ؟ وجعل من نفسه ربا مع الله رب العالمين ؟ إن آيات القرآن تنص فى وضـوح لاخفاء فيه أن هذا هو الكفر والشرك بعينه ، وأن من فعل ذلك فقد أسبغ على نفسه صفة الربوبية والشركة مع الله سبحانه ، كما حذر الناس من طاعة هؤلاء الشركاء والأرباب الأدعياء ، وبين أن طاعتهم لأولئك الحكام المستكبرين هى شرك وكفر وردة وهذه هى الآيات :

قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام] ، لقد سمى من زين للناس قتل الاولاد بالشركاء ، وسمى الناس الذين استجابوا لهم فى ذلك بالمشركين .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام] ، لقد و صف الله فى هذه الآية من يدعو القوم لأكل الميتة بالشياطين ، وحذر القوم من طاعتهم فى أكل الميتة لأنهم ان فعلوا ذلك وأطاعوهم صـاروا بهذا العمل وتلك الطاعة مشـركين ، فهل الشياطين ليسوا كفارا ؟ وهل من يطيع الشياطين يكون مسلما مع أن الله قال عنهم ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ؟

و ثالث الآ يات فى موضـوعنا قو له تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى] ، أنظر كيف جعل الذين يشرعون قانونا لم يأذن به الله شركاء له سبحانه ، فكيف بمن يشرع على خلاف ماشرعه الله لعباده . ؟

والدليل الرابع قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة] ، لقد نزلت هذه الآيات فى حق أناس كانوا يغيرون مواقيت الأشـهر الحرم ويسـتبدلون الشـهور بعضـها ببعض ، وينقلون التحليل أو التحريم من شـهر إلى شـهر آخر ، لقد وصـف الله فعلهم هذا بأنه كفر وزيادة ، فهل من غير فى الشهور ومواعيد القتال يكون كافرا وزيادة بينما يقول قوم بأن الذى يشرع للناس غير شـرع الله ليس كافرا إنما هو مسـلم عاص مالم يسـتحل ؟ هل تغيير الشـهور والأيام أشـد من تغيير الشـريعة والأحكام ؟

وخامس الآيات التى يستدل بها على كفر المشرعين خلاف شرع الله وكذلك كفر من يطيعهم قوله تعالى فى سـورة التوبة : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ ، ومعلوم أنهم لم يسجدوا لهم ولم يصلوا لهم ولم يعتبروهم أربابا خالقين لهم ، وإنما أطاعوا أوامرهم في خلاف ما حرم الله ، وتركوا الحلال الذى أحله الله تعالى طاعة لهؤلاء الأحبار والرهبان ، لقد سماهم الله أربابا ، وسمى طاعة الناس لهم عبادة فقال ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، ليبين أن من أطاعهم فى غير ماشـرعه الله فقد عبدهم واتخذهم أربابا ، وبذلك يصـير الأحبار والرهبان كفارا، ويصـبح الناس الذين أطاعوهم على خطئهم كذلك كفارا ومشركين .

هذا هو كتاب الله تعالى بين لالبس فيه ولاغموض ، وأكتفى بهذة الآيات الخمس وغيرها كثير فى كتاب الله تعالى ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ ؟ و ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

إن المشرع خلاف شرع الله كافر، ومن أطاعه فى هذا التشريع فهو كافر مثله لاخلاف فى ذلك ولامراء .

بهذه العبارة أنهى الأمير حديثه المفعم بالحيوية والحماسة والقوة ، وكأنه سدد بحديثه هذا ضربة قوية إلى الشيخ وأمثاله من الذين وصفهم بخلط الأوراق ، وتحريف دلالة القرآن ، حتى انه خاطبهم يقوله ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ، ترى ماذا يقول الشيخ ؟ وهل لديه مايقوله بعد هذا السـيل العرم من الاسـتدلالات على بطلان موقفه ، وبعد هذا الهجوم العنيف من الأمير على الشـيخ وعلى أمثاله ؟ لننظر فلعل عقول الشـيوخ وقلوبهم حبالى بالمفاجآت ، فهات ماعندك أيها الشـيخ ، فكم نحن متلهفون ؟ وادل دلاءك فنحن ظمأى متعطشون ، فهلا بينت شيئا من بيانك فالكثير منا حيارى تائهون ؟ ؟

اعتدل الشيخ فى جلسته وشرع يقول :

كم أنت بارع فى عرض ماعندك أيها الأمير ، كم أنت قادر على تملك عقول القوم واستجاشة قلوبهم ، كم تملك من الآلات والأساليب لتهييج عواطف الناس ، أما لو سمعك الكثير منهم فلربما سالت دموعهم على خدودهم ، وفارت الدماء فى عروقهم ، ولربما حملوك على الأعناق وهتفوا باسـمك ، وأسـلموا زمامهم وقيادهم لك ، وسـارعوا فى طاعتك التى اعتقدوها من طاعة الله وطاعة الرسـول ، لكن عند التحقيق لايثبت شـىء من التلفيق ، لايثبت شـىء مما زعمته أما م نور الحق وقوته ، فللحق نور يبدد ظلمات الجهل ويمزق سـتر الهوى والزيغ والانحراف ، وللحق قوة تزهق الباطل وتنهيه ، وتقضـى عليه وترديه ، فاذا هو زاهق ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ زاهق لأنه فى الأساس زهوق ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ..زهوق لايعود « ... ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ » .

وها أنا أعرض للقضية التى ذكرتها أيها الأمير فى عدة فصول على النحو التالى :

الفصل الأول : التشريع ، أقسامه ، وأحكامه .

الفصل الثانى : الطاعة حقيقتها وضوابطها وآثارها .

الفصل الثالث : البيان والاذاعة لآيات التشريع والطاعة .

الفصل الأول
التشريع، أقسامه، وأحكامه

يقول الدكتور صبرى محمد خليل : التشريع لغة ا شتقاق من مادة (شَ رَ عَ): شَرَعَ الوارِدُ يَشْرَعُ شَرْعاً وشُروعاً: تناول الماءَ بِفِيه ، وشَرَعَتِ الدوابُّ في الماء تَشْرَعُ شَرْعاً وشُرُوعاً:أَي دخلت ، والشَّريعةُ والشِّراعُ والمَشْرَعةُ: المواضعُ التي يُنْحَدر إلى الماء منها ، والتَّشْريعُ: إيرادُ الإِبِلِ شَريعَةً لا يُحْتاجُ مَعَها إلى نَزْعٍ بالعَلَقِ، ولا سَقْيٍ في الحَوْضِ، وفي المثل : أَهْوَنُ السَّقْيِ التَّشْريعُ ، وذلك لأَن مُورِدَ الإِبل إذا وَرَدَ بها الشريعةَ لم يَتْعَبْ في إِسْقاءِ الماء لها كما يتعب إِذا كان الماء بعيداً (لسان العرب والقاموس المحيط) .

التشريع اصطلاحا : أما التشريع اصطلاحا فله دلالتان :

الدلالة القانونية (التقنين) : هو حق إصدار القوانين بما هي مجموعة من القواعد العامة المجردة الملزمة التي تضبط سلوك الناس في المجتمع ، والسلطة التشريعية هي أحد أجهزه الدولة ، التي يحق لها إصدار هذه القوانين. والمقصود بمصطلح (إصدار) تبنى الدولة لقوانين معينه لتصبح ملزمه ، بصرف النظر عن مصدر هذه القوانين وطبيعتها . و أصل هذه الدلالة أن السلطة هي ضرورة اجتماعية ، والدولة أخر أ شكالها (فمن قبلها وجد الوالد في الا سرة ، والشيخ في القبيلة، والأمير أو الكاهن...) ، والدولة هي ذات النظام القانوني في المجتمع ، والنظام القانوني هو مجموعة من القواعد الآمرة الناهية المكملة المفسرة ، التي تتدرج في قوتها الملزمة من اللوائح إلى القوانين إلى الدستور (وهو القانون الأساسي للدولة ، وهو قاعدة الشرعية فيها ومصدرها ومقياسها أيضا ، و تتضمن هذه القواعد جزاء على مخالفتها، وتقوم في المجتمع سلطة لها حق إيقاع الجزاء على مخالفتها ، وضمان نفاذ القانون ولو بالقوة ، والدولة هي التي تصدر القانون وتطبقه وتنفذه بواسطة أجهزة مختصة في الإصدار(السلطة التشريعية) والتطبيق(السلطة القضائية) والتنفيذ (السلطة التنفبذيه). وبالتالي لا يمكن أن توجد دولة (إسلامية أوغير إسلامية) بدون تشريع وسلطة تشريعية .

وفى الفقه الإسلامى نجد العديد من القواعد والمفاهيم القانونية الإسلامية التي تعبر عن هذه الدلالة لمصطلح التشريع، - أى تبنى الدولة لمجموعة من القواعد القانونية - و من هذه القواعد : - « للسلطان أن يحدث من الأقضية بقدر ما يحدث من مشكلات» و « أمر الإمام يرفع الخلاف» و «أمر الإمام نافذ » ، فكل هذه القواعد تفيد حق الدولة في تبنى قواعد فقهية – قانونية – معينة لتصبح ملزمة للناس ، وكذلك مفهوم التعزير في الفقه الجنائي الإسلامى ، وهو العقوبة التي يقررها الحاكم للجرائم التي لا حد فيها ولا

كفارة ولا قصــاص ، فهذا المفهوم يفيد حق الدولة في تبنى عقوبات معينة ، كجزاء على مخالفات معينة للنظام القانوني، لتصــبح ملزمة أى من حق الدولة إيقاعها على من يخالف هذا النظام ، رغم أنها لم ترد في الشرع .

الدلالة الدينية (الشرع) : والتشريع طبقا لهذه الدلالة هو حق وضع القواعد – الحدود التي لا يباح تجاوزها ، والتي اسماها الفقهاء والأصوليون «الأصول» ، وهوما ينفرد به الله تعالى . لذا اسند القرآن فعل (شرع) إلى الله : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾. ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الأكثرون من المفسرين قالوا(ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم). وقد ميز الفقه الإسلامى بين التشريع على الوجه السابق ذكره ، والاجتهاد وهو سلطة وضع القواعد القانونية التي يباح للناس تجاوزها بإلغائها أو تعديلها ، والتي أطلق عليها الفقهاء والأصوليون اسم «الفروع » ، وهذه القواعد محلها الفقه في الإسلام.

وليس النظام القانوني الإســلامى بدعا في النظم القانونية ، في القول بالقواعد – الحدود ، إذ لا يمكن أن يوجد مجتمع بدون نظام قانوني، و لا يوجد نظام قانوني بغير حدود، تســمى في علم القانون «قواعد النظام العام» ، لأنها الحل الوحيد لدفع التناقض الدائم بين وحدة المجتمع وتعدد الناس فيه ، وهى مجموعة من القواعد لها خصــائص قواعد النظام الأخرى(عامة مجردة ملزمة)، إنما تتميز بأنها غير مباح مخالفتها أو الاتفاق على مخالفتها، وبالتالي تصــلح مميزا للنظام عن غيره، ويحمل أى نظام اســم مصــدره الفكري أو العقائدي(نظام ليبرالي أو ماركســي أو إســلامى...) بمعنى أن تلك المذاهب أو العقائد هي مصــدر تلك القواعد – الحدود ومثالها الحرية الفردية التي منحها للإنســان« القانون الطبيعي» في الليبرالية، أو «الملكية الجماعية» لو سائل الإنتاج في الماركسية... إذا وجه الخلاف بين النظام القانوني الإ سلامى وغيره من النظم القانونية ، ليس في إنكار أو إقرار هذه القواعد – الحدود ، بل في مصدرها ، إذ أن مصدرها فى النظام القانوني الإسلامى هو الإسلام .

مصطلح الشريعة : إذا التشريع طبقا لهذه الدلالة الدينية هو ما يقابل مصطلح الشرع أو الشريعة. وقد شاع في العصر الحديث ا ستخدام مصطلح الشريعة مقصورا على دلالة النظام القانوني الإ سلامى، وقصره البعض على العقوبات الواردة في النصـوص ، بينما دلالته الأصـلية أشـمل من ذلك ، فهي تشـمل العبادات والمعاملات بنوعيها : المعاملات الفردية من أحوال شـخصـية ومعاملات الفرد من بيع وأجاره ورهن وكفالة... والمعاملات التي تنظم العلاقة بين الأفراد في الجماعة، وتشمل القواعد الكلية التي تستند إليها

النظم الاقتصادية والسياسية والقانونية... ورد فى لسان العرب : (والشريعةُ والشِّرْعةُ: ما سنَّ الله من الدِّين وأَمَر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة و سائر أَعمال البرِّ مشتقٌّ من شاطئ البحر؛ عن كراع؛ ومنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾، ويقول ابن تيميه (.... فالشريعة جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي كتاب الله وسنة رسوله، وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والسياسات والأحكام والولايات والعطيات...) .إذا فهذه الدلالة لمصطلح تشريع تتعلق بمصدر القواعد القانونية وطبيعتها[1].

لكن ماهى حدود العلاقة بين الدلالتين الدينية والقانونية ؟ يقول الدكتور صبرى محمد خليل : والفكر القانوني الإسلامى يجعل العلاقة بين الدلالتين الدينية والقانونبة لمصطلح تشريع علاقة تحديد وتكامل ، بمعنى أن الفكر القانوني الإسلامى لا ينفى حق الدولة في إصدار قواعد قانونية ، لكن يحدد مصدر هذه القواعد وطبيعتها من خلال تحديده لهذه القواعد القانونية بالقواعد – الحدود التي ينفرد بحق وضعها الله تعالى-، يقول الهضيبي - المستشار- (اعتقاد عامة الناس أن لأولي الأمر حق إصدار أو وضع التنظيمات التي تنظم جوانب من حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بناء علي نصوص من القرآن الكريم والسنة الشريفة هواعتقاد ليس فيه شبهة الكفر أو الشرك بل هو اعتقاد في أصله حق) (دعاة لا قضاة ص ٧٣).

إذا الفكر القانوني الإسلامى يرفض جعل العلاقة بين دلالتي مصطلح «تشريع» علاقة إلغاء وتناقض، كما في الفكر القانوني الليبرالي ومذهبه في العلمانية الذى يفصل تماما بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة . أو علاقة خلط كما في بعض المذاهب الإسلامية الغالية التى تنفى حق الدولة في وضع القواعد والقوانين التى تضمن مصلحة وأمن وسلامة المجتمع بحجة عدم انتزاع حق التشريع من الله المشرع الواحد . ويرجع هذا الخلط إلى أسباب عديد أهمها :

الدلالة القانونية للمصطلح- التشريع - ومشكلة الترجمة : إذا كان مضمون الدلالة القانونية لمصطلح تشريع له ما يقابله في الفقه الإسلامى، فان استخدام مصطلح تشريع للاشارة إلى هذا المضمون حديث في اللغة العربية، إذ وضع اللفظ بما يقابل المصطلح الانجليزي (Legislation) وترجمته : تشريع، شرائع، قوانين - (المورد القريب، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ)- ، وهذا الاستخدام اللغوي هو الذى مهد الطريق أمام حدوث خلط بين الدلالتين الدينية والقانونية لمصطلح التشريع ، وكان بالأحرى استخدام مصطلح التقنين، لأنه الأقرب إلى الصحة، بالاضافة إلى أنه لا يلزم منه هذا الخلط السابق ذكره .

---

(١) وهى أوسع من مجموعة القوانين التى يشير اليها البعض عند حديثهم عن الشريعة ومطالبتهم بتطبيقها حيث تشمل كل ماانزل على الرسول ﷺ على سبيل التكليف العلمى أو العملى .

الدلالة الدينية للمصطلح وموضع اللبس : كما رتب البعض علي مقولة الشارع هو الله تعالى –وهى مضمون الدلالة الدينية لمصطلح تشريع – نفي حق البشر في و ضع القواعد القانونية إطلاقا، فضلا عن نفى حق الدولة في إصدار قواعد قانونية. وذلك استنادا إلى ما فهموه من مقولات المودودي وسيد قطب في تفسير مفهوم الحاكمية الالهية، مثل قول المودودى (... إن محور نظرية الإسلام السياسية تتمثل في نزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدي البشر..لأن ذلك أمر مختص بالله وحدة) ، وقول قطب (هذه الجاهلية القانونية تقوم علي أساس الاعتداء علي سلطان الله في الأرض وعلي أخص خصائص الإلوهية .. وهي الحاكمية .. أنها تسند الحاكمية إلى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض أربابا ، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والأنظمة والأوضاع بما لم يأذن الله) ، وقد أشار الهضيبى إلى هولاء بقوله (وقد توهم البعض أن قائل تلك المقولة –ألحاكمية لله – يري استحالة أن يأذن الله تعالي للناس أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات أو التشريعات التي تنظم جانبا من شئون حياتهم) وهو مفهوم تشبيهي يتناقض مع المفهوم التنزيهي لكون الشارع هو الله بمعني أن له تعالي وحدة حق و ضع القواعد – الأ صول، المطلقة عن قيود المكان والزمان ، والتي لا تخ ضع للتغير والتطور مكانا وزمانا(التشريع) ، وأنه تعالي متنزه عن المكان والزمان، وا ستخلف الجماعة المسلمة في إظهار شرعه في الأرض، بأن أوكل إليها حق و ضع القواعد – الفروع ، المحدودة بالمكان والزمان وبالتالي تخ ضع للتغير والتطور مكانا وزمانا (الاجتهاد) ، والتي هي إظهار للقواعد – الأصول في زمان معين ومكان معين .

والمقصود باستخلاف الجماعة في إظهار شرعه تعالى معنيين :

الأول : أن الاجتهاد حق الجماعة ابتداء ، إذ لكل م سلم الحق في الاجتهاد مادامت شروطه متوافرة فيه ، ولا ينفرد به فرد أو فئة دون الجماعة ، ووجود فئة من الفقهاء في المجتمع هو علي وجه التخصيص لا الانفراد ، ففي الإسلام علماء بالدين وليس به رجال دين .

الثاني : أن السلطة في الدولة الإسلامية نائب عن الجماعة المسلمة في إظهار شرعه تعالي ، وذلك بأن ينوب عنها في ضمان نفاذ القواعد – الأصول التي هي وضع الشارع تعالي، و القواعد – الفرع التي هي اجتهاد ارتضته الجماعة أو أغلبيتها – ، فللجماعة المسلمة حق تعيين ومراقبة وعزل هذه السلطة لضمان قيامها بهذا الأمر ، وعدم الانفراد به دونها و أدلة ذلك ما ورد عن أبى بكر ﷺ .. «فإن استقمت فأعينوني وان زغت فقوموني » . وما ورد عن عمر بن الخطاب ﷺ «إن رأيتم في اعوجاجا فقوموني» . ويقول المودودى: (كما لا يعتبر أي من أحكام الإسلام مما جاء به عالم من علماء المسلمين ، ولا كل مسألة استخرجها إمام من

أئمتهم بقياس أو اجتهاد علي أساس الاستحسان القانون في حدها ذاتها ... كما لا تعتبر أي حكم من أحكام الله تعالي و رسوله أو قياس أو اجتهاد أو استحسان لم ينعقد علية إجماع أهل الحل والعقد في بلد من بلاد المسلمين أو اختارته أغلبيتهم قانون لذلك البلد...) (المودودي ،القانون وطرق تنفيذه ، مؤسسه الرسالة، ص٤٣ .

ثانيا : يرجع تعدد المواقف من العلاقة بين الشريعة الإسلامية و مصادر التشريع إلى تعدد المواقف من مشكلة علاقة الدين بالدولة ، والتي يمكن إجمالها في ثلاثة مواقف :

الأول الخلط : باعتبار الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع ويقوم الموقف الأول على الخلط بين الدين والدولة، ومن ممثليه في الفكر الغربي الثيوقراطية والتي تعنى لغويا الحكم الالهى، ومن مذاهبها نظريتي الحكم بالحق الالهى والعناية الالهية. وفى الفكر الإسلامي نجد أن هناك مذهبا يجعل العلاقة بين الدولة (ومن ثم التشريع طبقا لدلالته القانونية، أى حق الدولة في إصدار القواعد القانونية بواسطة أحد أجهزتها المختصة). والدين (ومن ثم التشريع طبقا لدلالته الدينية ، أى حق وضع القواعد – الحدود التي لا يباح تجاوزها، والذي ينفرد به الله تعالى) علاقة خلط ويعبر هذا الموقف عن ذاته بطرحه لصيغه معينه للعلاقة بين الشريعة الإسلاميه ومصادر التشريع هي : ان الشريعة المصدر الوحيد للتشريع ، واعتبار أن إسناد التشريع لغيره تعالى هو شرك. دون الانتباه إلى أن المقصود بالتشريع في هذه الصيغة حق وضع القواعد – الحدود التي لا يباح تجاوزها، والذي ينفرد به الله تعالى ، وإسناده لسواه هو شرك « وهذه هى الدلالة الدينية لمصطلح التشريع» ، بينما المقصود بالتشريع في دستور الدولة حق الدولة في إصدار القواعد القانونية بواسطة أحد أجهزتها « الدلالة القانونية لمصطلح التشريع»، وهو ما لا يمكن أن توجد دولة بدونه ، ونجد في الفقه الإسلامى ما يقابله كما سبق ذكره. فضلا عن هذه الصيغة ذاتها هي شكل من أشكال الشرك، لأنها تخلط بين الشرع» – احد قسمى الدين بالاضافة إلى العقيدة كوضع الهي ، وكل من التشريع طبقا لدلالته القانونية – أحد أنشطة الدولة المخول لأحد أجهزتها – ، والاجتهاد – حق وضع القواعد- الفروع – باعتبارهما وضع انسانى.فضلا عن مساواتها بين مصادر النظام القانوني الإسلامى الأصلية (الكتاب والسنة)،

ومصـــادره التبعية (الإجماع والقياس والاســتحســـان والاســتصــحاب وشــرع من قبلنا والمصـــالح ألمرسلة...)[٢] ، يقول الشافعي – جماع العلم ١١ - (ولا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله ، أو سنة رسوله ﷺ ، وما سواهما تبع لهما) .

الثانى الفصل : بجعل الشريعة ليست مصدرا للتشريع : ويقوم هذا الموقف الثاني على فصل الدين عن الدولة ، وأهم ممثل له العلمانية التي كانت في الأ صل جزء من الديانة المسيحية، تحول إلي تيار فكرى معين ظهر في مرحلة معينة من مراحل التاريخ الأوربى، تحول إلي ثورة ضـــد تدخل الكنيســـة في الحكم ، انتهى إلي أ قا مه نظام علماني في موقفه من ا لدين ، فردى في موقفه من المجتمع، رأســمالى في موقفه من الاقتصاد،ديمقراطي ليبرالي في موقفه من الدولة، كان محصلة عوامل ثقافية ونفسية وتاريخية وحضارية... سادت أوربا نحو سبعة قرون. وأ ضافة إلى أن هذا الحل لا يعبر عن الحل الإ سلامي للمشكلة، فان جوهر الدعوة إلى العلمانية في المجتمعات الإسلامية هو أن تستبدل القيم والآداب والقواعد الإسلامية (التي تشكل الهيكل الحضـــاري لهذ هالمجتمعات) بالقيم والآداب والقوا عد الغربية لتحقيق قدر من الشـــعور المستقر بالانتماء إلى الحضارة الغربية (التغريب) ، وتطبيق هذا الموقف في قضيةالعلاقة بين الشريعة ومصادر التشريع هو الفصل بين التشريع طبقا لدلالته القانونية (اى حق الدولة في إصدار القواعد القانونية بواسطة احد أجهزتها المختصـــة). و التشــريع طبقا لدلالته الدينية (اى حق وضـــع القواعد – الحدود التي لا يباح تجاوزها، والذي ينفرد به الله تعالى ،هذا الموقف يعبر عن ذاته بطرحه لصيغ معينه للعلاقة بين الشريعة الإسلامية ومصادر التشــريع ، وفى الأصــل فان صــيغة نفى كون الشــريعة مصــدر للتشــريع هي الصــيغة التي تتســق معه، لكن هذه الصــيغة يمكن طرحها في المجتمعات الغربية العلمانية، لكن يصـــعب طرحها في المجتمعات المســـلمة، لذا يطرح هذا الموقف صيغ أخرى اقل حده منها: الشريعة مصدر من مصادر التشريع[٣] .

---

(٢) فهذا الاطلاق وعدم التفصيل يؤدى إلى التسوية بين أحكام العقيدة والأحكام الفقهية العملية ، كما يؤدى إلى التسوية بين الأ صول الكلية والفروع الجزئية ، بما يعنى نسبة الاجتهاد البشـرى إلى الله قطعا ، وهذا خطأ كبير يؤدى إلى اسـباغ القداسـة والعصـمة على الآراء الفقهية الاجتهادية ، وهذا بعينه هو مذهب الرافضـة من الشـيعة الامامية الذين يمنحون العصـمة للأئمة ، ويخلعون على أقوالهم خلعة القداسة

(٣) بل قد يؤخر الشــريعة فى الترتيب إلى مابعد التشــريع البشــرى والعرف ، بل والقانون الطبيعى ويقدم هذه كلها على شــريعة الله ، ولايعطى للشريعة الحق الأول فى الالزام وعدم جواز الخروج على قواعدها وأحكامها الثابتة الملزمة.

الثالث الوحدة والتمييز: باعتبار القواعد الأصولية للشريعة هي المصدر الأساسى للتشريع ويقوم الموقف الثالث على أن علاقة الدين بالدولة – وبالتالي بين الدلالتين الدينية والقانونبة لمصطلح تشريع – هي علاقة وحدة (لا خلط كما في الثيوقراطية)، وتمييز (لا فصل كما في العلمانية). فهي علاقة وحدة (لا خلط) لان السلطة(بأجهزتها الثلاثة التشريعية والقضائية والتنفيذية) في الإسلام مقيدة بالقواعد – الحدود التي لا يباح تجاوزها في الـ شريعة .كما أنها علاقة تمييز (لا فـ صل كما في الثيوقراطية) لأن الإ سلام ميز بين النوع الـ سابق من القواعد القانونية والتي أسماها تشريعا« طبقا لدلالته الدينية»، وجعل حق وضعها لله تعالى وحده استنادا إلي مفهوم التوحيد . والقواعد القانونية التي تخضع للتطور والتغير زمانا ومكانا، والتي اسماها اجتهادا ، ومحلها الفقه في الإ سلام ،والتي جعل سلطة و ضعها للجماعة ا ستنادا إلي مفهوم الا ستخلاف. وطبقا لهذا الموقف فان الدلالة الدينية لمصطلح التشريع لا تلغى دلالته القانونبة ولكن تحددها ، بمعنى ان هذا الموقف لا ينفى حق الدولة في إصدار قواعد قانونية، لكن يحدد مصدر هذه القواعد وطبيعتها من خلال تحديده لهذه القواعد القانونية بالقواعد – الحدود التي ينفرد بحق وضعها الله تعالى.ويعبر هذا الموقف عن ذاته بصيغ أهمها أن الشريعة هي المـ صدر الرئيـسي – الأ سا سى للتـ شريع. باعتبار أن المـ صدر الرئيـسي أو الأ سا سى هو الذى يحدد المـ صادر الفرعية.

غير أن الصيغ الأدق في التعبير عن هذا الموقف هي القائمة على اعتبار أن القواعد الأصولية للشريعة الإ سلامية هي المـ صدر الأ سا سي للتـ شريع،لأنها تميز بين القواعد – الأ صول، والتي مـ صدرها النـ صوص اليقينية الورود القطعية الدلالة، و مصادر النظام القانوني الإسلامى الأصلية (الكتاب والسنة)،– وبين القواعد– الفروع ،والتي مصدرها النصوص الظنية الورود والدلالة و مصادر النظام القانوني الإسلامى التبعية. وهذا التمييز بين النوعين من القواعد قرره العديد من علماء الإسلام ، يقول ابن تيمية : (إن الله بعث محمدا بجوامع الكلم، فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التي هي قاعدة عامة تتناول أنواعا كثيرة ، وتلك الأنواع تتناول أحيانا جزئيات، فبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد) (الفتاوى، ج ١ ص ٤١٠)، ويقول ابن القيم (الأحكام على نوعين : نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها... والثاني ما يتغير بحـ سب اقتـ ضاء المـ صلحة زمانا ومكانا وحالا)(أعلام الموقعين)، ولأن مـ صطلح الـ شريعة ا ستعمل تاريخيا أيضا بمعنى النظام القانوني الإسلامى بأصوله التشريعية وفروعه الاجتهادية ومصادره الأصلية والتبعية يقول ابن تيمية عن مفهوم الـ شريعة (ثم هي مـ ستعملة في كلام الناس على ثلاثة أنحاء: شرع مُنَزَّل، وهو: ما شرعه الله ورسوله. وشرع مُتَأَوَّل، وهو ما ساغ فيه الاجتهاد. وشرع مُبَدَّل، وهو: ما كان من الكذب

والفجور الذي يفعله المبطلون بظاهر من الشرع، أو البدع، أو الضلال الذي يضيفه الضالون إلى الشرع.). وهى الصيغة التي تقارب ماورد في في وثيقة الأزهر حول مستقبل مصربتاريخ ٢٠/٦/ ٢٠١١ (دعم تأسيس الدولة الوطنية الدستورية الديمقراطية الحديثة، التي تعتمد على دستور ترتضيه الأمة، يفصل بين سلطات الدولة ومؤسساتها القانونية الحاكمة. ويحدد إطار الحكم، ويضمن الحقوق والواجبات لكل أفرادها على قدم المساواة، بحيث تكون سلطة التشريع فيها لنواب الشعب؛ بما يتوافق مع المفهوم الإسلامي الصحيح، حيث لم يعرف الإسلام لا في تشريعاته ولا حضارته ولا تاريخه ما يعرف فى الثقافات الأخرى بالدولة الدينية الكهنوتية التي تسلطت على الناس، وعانت منها البشرية في بعض مراحل التاريخ، بل ترك للناس إدارة مجتمعاتهم واختيار الآليات والمؤسسات المحققة لمصالحهم، شريطة أن تكون المبادئ الكلية للشريعة الإسلامية هي المصدر الأساس للتشريع، .

الخلاصة : الإسلام يفرق بين نوعين من القواعد التشريعية، القواعد الكلية الأصولية التى لاتقيد بحدود الزمان ولاالمكان ولايجوز مخالفتها لكونها قطعية الثبوت قطعية الدلالة، وهى خالص حق الله لايمنحها لأحد من البشر، ولايجوز مخالفتها ولاتغييرها ولاالخروج عنها ولاادعائها لأحد مهما كانت سلطنه، والقواعد القانونية الفرعية التى لم يثبت فيها نص صحيح قاطع الدلالة وهذه تخضع للتغيير والتجديد والتطوير لأنها اجتهاد فقهى يخضع للتقدير، وهذه القواعد منوطة بأهل الاجتهاد للنظر فيها وتجديدها. وبالتالى يجوز للبشر ممارسة التشريع فى هذا المجال، ولئن جاز الاجتهاد والتشريع فى حالة ورود نص ظنى الثبوت أو ظنى الدلالة فجوازه فيما لم يرد به نص هو أولى، بل قد يفتى بندبه أو ايجابه بحسب المصلحة والحاجة والضابط إنما يكون بعدم الخروج عن النصوص الشرعية ولاالقواعد الكلية للشريعة الإسلامية[٤] .

وأعرض هنا لسؤال ذكره الإمام القرافى فى كتابه الاحكام قال : كيف يمكن أن يقال ان الله تعالى جعل لأحد أن ينشيء حكما على العباد ؟ وهل ينشيء الأحكام الا الله ؟ فهل لذلك نظير وقع فى الشريعة و مايؤنس هذا المكان ويوضحه ؟

---

(٤) لقد اكتفيت هنا بالنقل عن الدكتور صبرى خليل، وأحيلك أيها الأمير إلى كتاب الحاكمية للدكتور ناجح ابراهيم حيث يقرر ماذكرته لك هنا بطريقة أيسر وأسهل، وكذلك دعاة لاقضاة للهضيبى الذى كتب خصيصا للرد على هذه الافكار وقت ظهورها داخل السجن الحربى وغيره= =من السجون. ولايفوتنا التذكير بكتاب « الحكم وقضية تكفير المسلم » لسالم البهنساوى فقد كان شاهدا على ميلاد هذا الفكر ومناظراته، وكتب مارآه بعينيه وسمعه بأذنه. راجع «الحاكمية والضوابط المنسية» للمؤلف .

جوابه : لاغرو فى ذلك ولانكير ، بل الله تعالى قرر الواجبات والمندوبات والمحرمات والمكروهات والمباحات على لسان نبيه ، وأنزل فى كتابه الكريم ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ومع ذلك قرر فى أصل شريعته أن للمكلف أن ينشىء الوجوب فيماليس بواجب من أصل الشرع فينقل أى مندوب شاء فيجعله واجبا عليه ....الى قوله رحمه الله : « إذا تقرر أن الله تعالى جعل لكل مكلف – إن كان عاميا جاهلا – الانشاء فى الشريعة لغير ضرورة ، فأولى أن يجعل للحكام مع علمهم وجلالتهم لضرورة درء العناد ودفع الفساد واخماد الثائرة وابطال الخصومة ...ثم قال : وأما الدليل على ذلك فهو الاجماع من العلماء قاطبة أن حكم الله تعالى ماحكم به الحاكم فى مسائل الاجتهاد ،.... وأن ذلك الحكم يجب اتباعه على جميع الأمة ويحرم على كل أحد نقضه ..» . هكذا يجيب القرافى بجواز انشاء الحاكم لأحكام لم تكن فى الشريعة متى توافرت مقتضياتها ، ووضح أن الواجب عليه ألا يفعله اتباعا للهوى وانما للمصلحة وللمقتضى . أى الانضباط بقواعد الشريعة الحاكمة لكل ماتحتها من الفروع والاجتهادات فتنبه . كما ذكر الامام مزيد بيان لهذة المسألة فى كتابه الفروق . ويتحدث الدكتور القرضاوى فى المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية حول هذه القضية فيقول : « مالا نص فيه ، ويراد به ماليس فيه دليل شرعى نقلى من كتاب أو سنة صحيحة فهذا المجال يمثل منطقة حرة أو منطقة فراغ من النصوص الشرعية الخاصة وهى التى سميناها ...منطقة العفو ... الشارع الحكيم لم ينص على كل شىء ، بل هناك أشياء ترك النص عليها مطلقا ، وأشياء نص عليها باجمال على وجه كلى ، وأشياء نص عليها بالتفصيل المناسب لها . وبالاستقراء عرفنا أن مايتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان تغيرا كليا وجذريا ترك الشارع النص عليه وهو منطقة العفو .. وهى متروكة للعقل الإسلامى يشرع لها ماينا سب زمانه ومكانه فى ضوء النصوص والمقاصد العامة للشريعة ..» . ويتعرض الدكتور ناجح ابراهيم فى كتابه الحاكمية لقضية تشريع البشر فيقول : « وهذا التشريع الذى أذن الله تعالى بشىء منه للبشر ليس كلأ مباحا لأى أحد من الناس وفى أى مجال من المجالات فهو مقيد بقيود وضوابط ، فقد أذن الله فيه للمؤهلين شرعا من العلماء والحكام والمفكرين وأهل الحل والعقد فى الامة ممن بلغوا رتبة الاجتهاد فى الشريعة فهؤلاء هم اولو الأمر الذين اذن الله لهم فى التشريع شريطة الالتزام بثوابت الدين ومبادئه وعدم الاخلال بشىء من اصوله وقواعده الثابتة .» . بهذا العرض يتبين أن العلماء لايختلفون حول أصل المسألة – للبشر الحق فى شىء من التشريع – لكنهم فقط يضعون الضوابط والشروط ، ويحددون مجال اعمال هذه القاعدة حتى نحمى الشريعة من الاهمال ، ونصونها كذلك من الغلو والضلال .

وأختم هذا الفصل بنقل عن الإمام الشنقيطى يضع الحد الفاصل بين المشروع والممنوع فى مسألة التشريع فيقول رحمه الله بعد كلام له حول التشريع والحكم بغير ماأنزل الله : « اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعى الذى يقتضى تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض وبين النظام الذى لايقتضى ذلك، وايضاح ذلك أن النظام قسمان : ادارى وشرعى ، أما الادارى الذى يراد به ضبط الأمور واتقانها على وجه غير مخالف للشرع فهذا لامانع منه ، ولامخالف فيه من الصحابة فمن بعدهم ، وقد عمل عمر من ذلك أشياء كثيرة ماكانت زمن النبى ﷺ ككتبه أسماء الجند فى ديوان من أجل الضبط ، ومعرفة من غاب ومن حضر ، ..... مع أن النبى ﷺ لم يفعل ولم يعلم بتخلف كعب بن مالك من غزوة تبوك الا بعد أن وصل تبوك ، وكا شترائه أعنى عمر دار صفوان بن أمية وجعله اياها سجنا فى مكة المكرمة مع أنه ﷺ لم يتخذ سجنا هو ولاأبو بكر ﵁ . . فمثل هذه الأمور الادارية التى تفعل لاتقان الأمور مما لايخالف الشرع لا بأس بها ، كتنظيم شؤون الموظفين ، وتنظيم ادارة الأعمال على وجه لايخالف الشرع فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لابأس به ولايخرج عن قواعد الشرع من مراعاة المصالح العامة .

وأما النظام الشرعى المخالف لتشريع خالق السموات والأرض فتحكيمه كفر بخاق السموات والأرض « ولايترك الإمام الشنقيطى القول هكذا بلا بيان فيستغله قليلوالعلم فى تكفير الآخرين بمجرد سنهم القوانين وانما يبين المقصود من كلامه فيزيد : « كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى فى الميراث ليس بانصاف وأنهما يلزم استواؤهما فى الميراث ، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم ، وأن الطلاق ظلم للمرأة ، وأن القطع والرجم ونحوهما أعمال وحشية لايسوغ فعلها بالإنسان ونحو

ذلك ، فتحكيم هذا النوع من النظام فى أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السموات والارض ، وتمرد على نظام السماء الذى وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوا كبيرا » ، وهانحن نردد مع الشنقيطى ماقاله ونقول بأن من اتهم الشريعة بالظلم والمحاباة والقسوة وعدم الملائمة ولاالمناسبة للعصر فهو بلا شك كافر بعد اقامة الحجة عليه حتى لولم يشرع قانونا للناس فكيف لوقال ذلك و اعتقده ثم شرع قانونا منطلقا من هذا الاعتقاد المسىء والمتنقص لـ شريعة الله تعالى ؟ لا شك أنه بذلك يكون قد وقع فى الكفر وزيادة ، أما القول بنفى حق التشريع عن البشر باطلاق ومنعهم منه جملة وتفصيلا فهو كذلك مجاف للحق مصادم للحقيقة يتبناه نفر من الغلاة بلا روية ولادليل صحيح .

الفصل الثاني
الطاعة حقيقتها وضوابطها

قال الشيخ : بعدما انتهينا من عرض علمى دقيق لمفهوم التشريع ، ووضحنا الفارق بين مايكون منه كفرا ومالايكون كفرا ، وكذلك عرفنا مجاله وحدوده ، لابد من وقفة مع مفهوم الطاعة ، نتبين معناها وماهو الفارق بين الطاعة وبين العبادة ؟ ومتى تكون الطاعة مشـروعة ؟ ومتى تكون ممنوعة ؟ وماهو الفاصـل بين الطاعة التى تكون كفرا ، وغيرها من الطاعات ؟ وذلك لأن الكثير ممن لم يكتمل علمه نراه يكفر الشـعوب والمجتمعات بدعوى اطاعتهم للقوانين الوضـعية ، ويعتبر أن مجرد هذه الطاعة كفيل باخراج الناس من الإسـلام ، لأنهم فى نظره يتبعون التشـريع الوضـعى وحكم الطاغوت كما يقول ، ولذلك كان لابد من تناول قضية الطاعة هذه ، لبيان معناها وأقسامها وحكمها ، ونقسم الحديث فى عدة مباحث.

المبحث الأول : معنى الطاعة

الطاعة لغة : اسم للطوع الذي هو مصدر طاع يطوع بمعنى انقاد وفعل ما يؤمر به عن رضى دون ممانعة ، فالطاعة ضد الكره . والطاعة : امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، قالوا ولا تكون الطاعة إلا عن أمر كما أن الجواب لا يكون إلا عن سؤال، يقال أمره (فَأَطَاعَ) ، والطوع الانقياد بسهولة ، والطاعة مثله ، لكن أكثر ما يقال في الائتمار فيما أمر والارتسام فيما رسم وقيل : طَاعَ : إذا انْقَاد ، وأَطِاع : اتَّبَع الأَمْرَ ولم يُخَالفه، فإذا مَضى لأَمرِه فقد أَطاعَهُ فإذا وافقَه فقد طاوَعَهُ ، قال الفيومي : قالوا: ولا تكون الطاعة إلا عن أمر، كما أن الجواب لا يكون إلا عن سؤال ، يقال: (أمره فأطاع، وطوعت له نفسه): أي رخصت وسهلت. وقال ابن فارس: إذا مضى لأمر فقد أطاعه إطاعة، وإذا وافقه فقد طاوعه أ.هـ ـ تاج العروس١/ ٥٤٢٦ –٥٤٢٧، لسان العرب ٨ / ٢٤٠، القاموس المحيط ١/ ٩٦٢، مختار الصحاح١/ ٤٠٣، المصباح المنير٢/ ٣٨٠، النهاية في غريب الأثر٣/ ٣٢٢ ، كتاب العين٢/ ٢٠٩، التعريفات١/ ١٨٢، التحرير والتنوير١/ ١٤٠٠، ٢٩٢٧.

فالطاعة هي امتثال الأمر ، والتي تعني الرضى وعدم الكره أي المحبة، وامتثل أمره: احتَذاه وعمل على مِثاله، وامْتَثَلْتُ أمره : أطعته، ورَسَمْتُ له كذا فارْتَسَمَه إذا امتَثله أ.ه لسان العرب١١/ ٦١٠، ١٢/ ٢٤١، المصباح المنير ٢/ ٥... الطاعة: الانقياد والموافقة...

الطاعة اصطلاحا : اتفقت تعاريف الفقهاء للطاعة من حيث المعنى وإن اختلفت من حيث اللفظ.

قال السمرقندي: هي موافقة الأمر، وقيل: هو العمل لغيره بأمر طوعا. وقال ابن النجار: (موافقة الأمر): أي فعل المأمور به على وفاق الأمر به.

وعرفت أيضا: بأنها كل ما فيه رضى وتقرب إلى الله و ضدها المعصية.، ونقل ابن عابدين تعريف شيخ الإسلام زكريا للطاعة ، وهو فعل ما يثاب عليه توقف على نية أولا، عرف من يفعله لأجله أو لا، قال: وقواعد مذهبنا لا تأباه.

وقال أبو البقاء الكفوى : هي فعل المأمورات ولو ندبا وترك المنهيات ولو كراهة، وقيل: هي امتثال الأمر والنهى، وهي توجد بدون العبادة والقربة في النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى أو معرفته إنما تحصل بتمام النظر، والقربة توجد بدون العبادة في القرب التي لا تحتاج إلى نية كالعتق والوقف.

وعرف الجرجاني وصاحب (دستور العلماء) الطاعة بأنها موافقة الأمر طوعا ، وقال الشرقاوى الشافعي: الطاعة: امتثال الأمر والنهى. و قال ابن حجر: الطاعة: هي الإتيان بالمأمور به والانتهاء عن المنهي عنه والعصيان بخلافه. وعرفت أيضا: بأنها موافقة الأمر بامتثاله سواء أكان من الله أم من غيره، قال الله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩].

معنى الطاعة في السنة :

١ - قَالَ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ : إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ أ.ه صحيح البخاري.

أ- قوله : فادعهم إلى شهادة أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فسرتها رواية مسلم بلفظ:فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وقوله فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فسرتها رواية مسلم بلفظ: فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، ورواية البيهقي بلفظ : فان هم اجابوك لذلك.

ب- قوله: فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فسرتها رواية مسلم بلفظ : فَإِذَا فَعَلُوا، ورواية البيهقي بلفظ: فان هم أجابوك لذلك، وقال ابن دقيق العيد كما في الفتح لابن حجر : وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَلَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ الصَّلَاةِ » فَإِذَا صَلَّوْا أ.هـ٥/ ١٢٣.

فالطاعة المقصود منها فعل الصلاة، لأنها تقضي فعلا في وقتها ووقت إسلامهم لا بد من أن يكون في وقت صلاة معينة يجب فعلها..

ت- قوله : فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فسرتها رواية مسلم بلفظ : فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، ورواية البيهقي بلفظ: فان هم أجابوك لذلك، وقال ابن دقيق العيد كما في الفتح لابن حجر: وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَلَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ الصَّلَاةِ « فَإِذَا صَلَّوْا « وَبَعْدَ ذِكْرِ الزَّكَاةِ » فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ أ.هـ ٥/ ١٢٣. فالطاعة المتعلقة بالزكاة هي الاجابة بالإقرار لأن الزكاة لا تجب إلا بعد الحول بالنصاب الشرعي فالطاعة جاءت بمعنى امتثال الأمر(الإتيان بالفعل)،قال محمد شمس الحق العظيم آبادي رحمه الله تعالى: فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ:اُسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْكُفَّار غَيْر

مُخَاطَبِينَ بِالْفُرُوعِ حَيْثُ دُعُوا أَوَّلًا إلى الْإِيمَان فَقَطْ ثُمَّ دُعُوا إلى الْعَمَل أ.هـــــ عون المعبود٤/ ١، وهذا العمل الظاهر دلالة على القبول الباطني ... وَفِي حَدِيث اِبْنِ عَبَّاس من الْفَوَائِد غَيْر مَا تَقَدَّمَ الِاقْتِصَـــار فِي الْحُكْم بِإِسْلَامِ الْكَافِرِ إِذَا أَقَرَّ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، فَإِنَّ مِنْ لَازِمِ الْإِيمَان بِاَللَّهِ وَرَسُوله التَّصْدِيق بِكُلِّ مَا ثَبَتَ عَنْهُمَا وَالْتِزَام ذَلِكَ أ.هـ فتح الباري ٢٠/ ٤٤٠.

قَالَ اِبْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ إِقْرَارَهُمْ بِوُجُوبِهَا عَلَيْهِمْ وَالْتِزَامِهِمْ لَهَا ، وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الطَّاعَةَ بِالْفِعْلِ ، وَقَدْ يُرَجَّحُ الْأَوَّلُ بِأَنَّ الْمَذْكُورَ هُوَ الْإِخْبَارُ بِالْفَرِيضَـةِ فَتَعُودُ الْإِشَـارَةُ بِذَلِكَ إِلَيْهَا ، وَيَتَرَجَّحُ الثَّانِي بِأَنَّهُمْ لَوْ أُخْبِرُوا بِالْفَرِيضَـةِ فَبَادَرُوا إلى الِامْتِثَال بِالْفِعْلِ لَكَفَى وَلَمْ يُشْـتَرَطْ التَّلَفُّظُ بِخِلَافِ الشَّهَادَتَيْنِ ، فَالشَّرْطُ عَدَمُ الْإِنْكَارِ وَالْإِذْعَانُ لِلْوُجُوبِ اِنْتَهَى . وَاَلَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، فَمَنْ اِمْتَثَلَ بِالْإِقْرَارِ أَوْ بِالْفِعْلِ كَفَاهُ أَوْ بِهِمَا فَأَوْلَى ، أ.هـــــ فتح الباري٥/ ١٢٣. وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: وَاَلَّذِي وَقَعَ فِي حَدِيث مُعَاذ « فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا » فَإِنَّ عِنْد بَعْض رُوَاته كَمَا ذَكَرَهُ اِبْن التِّين « فَإِنْ هُمْ طَاعُوا » بِغَيْرِ أَلْف ، وَقَدْ قَرَأَ الْحَسَن الْبَصْرِيّ وَطَائِفَة مَعَهُ « فَطَاوَعَتْ لَهُ نَفْسه » قَالَ اِبْن التِّين : إِذَا اِمْتَثَلَ أَمَرَهُ فَقَدْ أَطَاعَهُ ، وَإِذَا وَافَقَهُ فَقَدْ طَاوَعَهُ ، قَالَ الْأَزْهَرِيّ . الطَّوْع نَقِيض الْكُرْه ، وَطَاعَ لَهُ اِنْقَادَ ، فَإِذَا مَضَـى لِأَمْرِهِ فَقَدْ أَطَاعَهُ . وَقَالَ يَعْقُوب بْن السِّكِّيت : طَاعَ وَأَطَاعَ بِمَعْنَى أ.هـ فتح الباري٨/ ٦٨.

٢- عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَـيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْـتَطَعْتُمْ » صـحيح البخاري٢٢/ ٢٥٥.

قوله : وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ أ.ه فسرتها رواية الامام أحمد بلفظ: فَاتَّبِعُوهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ أ.هـ ورواية أخرى له بلفظ: فَأْتُوهُ مَا اسْـتَطَعْتُمْ أ.هـــــ ، ورواية الطحاوي في مشـكل الآثار بلفظ: فافعلوا منه ما استطعتم أ.هـ

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى: وأشـار – ص – في هذا الحديث إلى أنَّ في الاشـتغال بامتثالِ أمرِه ، واجتنابِ نهيه شغلاً عن المسائل ، فقال : ((إذا نهيتُكم عن شيءٍ ، فاجتنبوه ، وإذا أمرتُكم بأمرٍ ، فأتوا منه ما استطعتم)) فالذي يتعيَّنُ على المسلم الاعتناءُ به والاهتمامُ أنْ يبحثَ عمَّا جاءَ عن الله ورسوله ﷺ، ثم يجتهدُ في فهم ذلك ، والوقوف على معانيه ، ثم يشـتغل بالتصـديقِ بذلك إنْ كان من الأمور العلمية ، وإنْ كان من الأمور العملية ، بذل وسْـعَهُ في الاجتهاد في فعل ما يسـتطيعه من الأوامر ، واجتناب ما يُنهى عنه أ.ه جامع العلوم والحكم ص١١.

٣- عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ:بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَا سْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا فَجَمَعُوا فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا فَأَوْقَدُوهَا فَقَالَ ادْخُلُوهَا فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ النَّارِ فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ فَسَكَنَ غَضَبُهُ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ أ.هـ صحيح البخاري١٣/ ٢٣٧.

انظر إلى فهم الصــحابة ﷺ من لفظ الطاعة فعندما قال لهم: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى أ.ه فعندما أمرهم بجمع الحطب وإيقاد النار فعلوا ذلك وعن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال : أربعة يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئا ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا وأما الأحمق فيقول رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر وأما الهرم فيقول ربي لقد جاء الإ سلام وما أعقل شيئا وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني لك ر سول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم ان أدخلوا النار قال فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما.ا.هـ مسند أحمد بن حنبل٤/ ٢٤. تعليق شعيب الأرنؤوط .

٤- عن أبي هريرة : مثل هذا غير انه قال في آخره فمن دخلها كانت عليه بردا وســلاما ومن لم يدخلها يسحب إليها أ.هـ مسند أحمد بن حنبل٤/ ٢٤.تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن .

انظر إلى قوله: فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه أ.هــــ. وفـسر معنى الطاعة هنا بقوله: فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها يسحب إليها أ.ه فثبت هنا أيضا أن الطاعة هي امتثال الأمر بفعل المأمور به

٥- عن أبي هريرة ﷺ :أن ر سول الله ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عـصاني فقد عـصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني أ.هـ متفق عليه .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: والطاعة هي الإتيان بالمأمور به والانتهاء عن المنهي عنه والعـصيان بخلافه قوله ومن أطاع أميري فقد أطاعني في رواية همام والأعرج وغيرهما عند مســلم ومن أطاع الأمير ويمكن رد اللفظين لمعنى واحد فان كل من يأمر بحق وكان عادلا فهو أمير الشــارع لأنه تولى بأمره وبشــريعته ويؤيده توحيد الجواب في الأمرين وهو قوله فقد أطاعني أي عمل بما شرعته أ.هـ فتح الباري١٣/ ١١٢ .

إن معنى الطاعة يقوم عليه مدار الدين لأنه المعنى العملي للعبادة والعَبْدِيَّةُ والعُبودِيَّةُ والعُبودَةُ والعِبادَةُ : الطَّاعَةُ أ.هـ القاموس المحيط ١/ ٣٧٨، وقال آخَرُونَ : العُبُودَةُ : الرِّضا بما يَفْعَلُ الرَّبُّ والعِبَادَةُ : فِعْلُ ما

يَرْضَــى به الرَّبُّ، وأما عَبَدَ الله فَمَصْــدَرهُ : عِبَادَة وعُبُودة وعُبُودِيّة أَي أَطاعه.وفي اللســان : وعَبَد اللهَ يَعبُده عِبادَةً ومَعْبَداً : تَأَلَّه له .

المبحث الثاني : أنواع الطاعة

قال الشـيخ : الطاعة نوعان مشـروعة وهى الواجب والمندوب وممنوعة وهى الحرام والمكروه ، أما المباح فمشروع فعله ومشروع تركه ، واليك التفصيل:

المطلب الأول : الطاعة المشروعة :

تتبوأ الطاعة فى الإسلام مكانة عظيمة ، ومنزلة عالية ، ، فمظهر العبودية لله عز وجل هو الطاعة ، كما يتبين أن الطاعة أمر واجب فقد أرسل الله الرسل ليطاعوا بإذن الله يقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، والكون بكل ما فيه يقوم على أساس الطاعة والانقياد والتسليم لله عز وجل قال تعالى [﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾، فسجود كافة المخلوقات لله تعلن عن الخضوع التام والطاعة المطلقة للمولى عز وجل ، ولا يمكن لهذه المخلوقات ولا ينبغى لها أن تختار بديلا عن طاعة الله قال تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ، ولا يمكن لهذا الكون أن يسير إلا بالطاعة التامة والانقياد المطلق لله وحده ،وإذا لم تتحقق هذه الطاعة فالفساد والخراب عاقبة ذلك ،يقول المولى عز وجل﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، كما أن الطاعة بضوابطها واجبة لتحقيق الإسلام ،لأن في معانيه الاستسلام لرب العالمين فى كل صغيرة وكبيرة ، ولا يتحقق الإسلام كاملا إلا بالطاعة الكاملة لصاحب الأمر والنهى فى هذا الكون وهو الله رب العالمين

وقد حث القرآن الكريم على طاعة الله ورسـوله وأولى الأمر قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ،فى هذه الأية يخاطب الله تعالى الأمة الإسـلامية بوجوب طاعة الله عز وجل أولا ، ووجوب طاعة رسـول الله ﷺ ثانيا ، ثم طاعة أولى الأمر ثالثا ، والفعل أطيعوا أمر يقتضى الوجوب

طاعة الله عز وجل فى القرآن الكريم : وهى فرض على كل مسـلم مكلف قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ ، ومن حق الله تعالى على من أبدعه أن يكون حكمه نافذا عليه ، وطاعته لازمة يقول المولى عز وجل : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصـلت]، لزمت جميع العباد طاعته سـبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾.

وقد حذر المولى عز وجل العباد من أى طاعة تتعارض مع طاعته ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق تبارك وتعالى القائل : ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

طاعة الرسـول ﷺ : من البديهى أنه إذا وجب الإيمان برسـول الله ﷺ وتصـديقه فيما جاء به وهو القرآن الكريم ، فقد وجبت طاعته وعدم معصيته ،وقد تضافرت الأدلة وتواترت على وجوب طاعة الرسول ﷺ ، حيث قال المولى عز وجل : ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ،وكذلك فإن الهداية مناطها فى طاعة رسول الله ﷺ: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ، ثم قرن الله طاعة رسوله بطاعته عز وجل حيث قال : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

طاعة ولى الأمر: أجمع العلماء على وجوب طاعة ولى الأمر من الأمراء والحكام، وقد نقل النووى عن القاضـى عياض وغيره هذا الإجماع ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾، وقد ذهب جمهور الفقهاء والمفسرين أن المقصود بأولى الأمر فى هذه الآية الأمراء وأهل السلطة والحكم ، وقال البعض أن المقصود بأولى الأمر فى هذه الآية هم العلماء ، وقال الطبرى وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال :هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعة لله وللمسلمين مصلحة فيه، ويرى ابن كثير أنها تجمع الأمراء والعلماء فتجب طاعة الفريقين .

طاعة الوالدين :................

طاعة الناصحين المخلصين بالخير : ....

المطلب الثاني: الطاعة الممنوعة :

قال الشيخ : ليست كل طاعة تكون مشروعة ومحمودة بل ان من الطاعات مايأباه الله ورسوله ، ويحرمه على عباده المؤمنين ، ومن هذه الطاعات الغير مشروعة ، التى منع الله منها عباده ونهاهم عن اتيانها :

أ – طاعة الكفار والمنافقين قال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ فلا تطع الكافرين في ترك شيء مما أرسلتَ به ،بل ابذل جهدك في تبليغ الرسالة ، وجاهد الكافرين بهذا القرآن جهاداً كبيراً ،لا يخالطه فتور ،وقوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

ب – طاعة بعض أهل الكتاب قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ ، فلايأمنهم ولايأخذ برأيهم الا بعد درس وتمحيص .

ج – طاعة المكذبين: قال تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق ، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه ، وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار ،فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني رؤساء أهل مكة ، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه الله أن يطيعهم ، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم.

د – طاعة الحلاف المهين قال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ ، وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى ،واستعمالها في كل وقت في غير محلها.

هـ – طاعة الغافلين عن ذكر الله قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ ، هذا نهي جامع عن ملابسة شيء مما يأمره به المشركون ، والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تجاه رغبات المشركين ،وتأييس المشركين من نوال شيء مما رغبوه من النبي ﷺ.

و – طاعة المسرفين قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ لا تطيعوا أيها القوم أمر المسرفين على أنفسهم في تماديهم في معصية الله ،واجترائهم على سخطه ،وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض.

آ – طاعة المخالفين الحق المعاندين له ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، قوله تعالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي الكفار. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي عن الطريق التي تؤدي إلى ثواب الله. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ {إن} بمعنى ما ، وكذلك ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يحدسون ويقدرون ؛ ومنه الخرص ، وأصله القطع. قال الشاعر :

ترى قصد المران فينا كأنه ... تذرع خرصان بأيدي الشواطب

يعني جريدا يقطع طولا ويتخذ منه الخرص، وهو جمع الخرص ؛ ومنه خرص يخرص النخل خرصا إذا حزره ليأخذ الخراج منه. فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به ؛إذ لا يقين معه .

وعليه يتضح لنا مجموعة من النقاط :

(١) أن الطاعة تكون لأصحاب الولايات الشرعية، وهذا أمر بدهي دلت عليه الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩] . قال الشوكاني: «وأولو الأمر: هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كان له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية».

(٢) لا طاعة لجاهل إلا فيما هو سائغ شرعاً.. يقول القرطبي: «وشرط الأمراء أن يكونوا آمرين بما يقتضيه العلم، وكذلك كان أمراء رسول الله – ﷺ –، وحينئذ تجب طاعتهم، فلو أمروا بما لا يقتضيه العلم حرمت طاعتهم» ويقول العز بن عبدالسلام في هذه المسألة: «ولو أمر الإمام أو الحاكم إنساناً بما يعتقد الآمر حله والمأمور تحريمه ، فهل له فعله نظراً إلى رأي الآمر، أو يمتنع فعله نظراً إلى رأي المأمور؟ فيه خلاف وهذا مختص فيما لا ينقض حكم الآمر به، فإن كان مما ينقض حكمه به فلا سمع ولا طاعة وكذلك لا طاعة لجهلة الملوك والأمراء إلا فيما يعلم المأمور أنه مأذون في الشرع»

(٣) لا طاعة مطلقة إلا للرسل – عليهم السلام –، فليس من مخلوق من أمره حتم بإطلاق إلا الرسل – عليهم السلام –، ومن أمر بطاعة الملوك والحكام مطلقاً فهو ضال.. يقول ابن تيمية : «من نصب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضل في ذلك، كأئمة الضلال الرافضة الإمامية، حيث جعلوا في كل وقت إماماً معصوماً تجب طاعته، فإنه لا معصوم بعد الرسول، ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء»، وقال في السبعينية: «وقد اتفق المسلمون على أنه ليس من المخلوقين من أمره حتم على الإطلاق إلا الرسل الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]، وأما من دونهم فيطاع إذا أمر بما أمروا به، وأما إذا أمر بخلاف ذلك لم يطع..»

قال الطيبي عند قوله – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾: «أعاد الفعل في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يعده في أولي الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته»

(٤) من المسائل المعلومة أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق – سبحانه وتعالى –، إنما الطاعة في المعروف كما في الصحيحين عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أن النبي –ﷺ– قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة». وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس يا ابن أم عبد طاعة لمن عصى الله، قالها ثلاث مرات» [٥] .

قال الحافظ ابن حجر: «ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بني أمية لما قال له: أليس الله أمركم أن تطيعونا في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ فقال له: أليس قد نزعت عنكم يعني الطاعة إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، ويقول ابن تيمية: «اتفق العلماء أن حكم الحاكم العادل إذا خالف نصاً أو إجماعاً لم يعلمه فهومنقوض».

وقال ابن القيم: «فإن قيل: فما هي طاعتهم المختصة بهم، إذ لو كانوا إنما يُطاعون فيما يخبرون به عن الله ر سوله كانت الطاعة لله ور سوله لا لهم؟ قيل: وهذا هو الحق، وطاعتهم إنما هي تبع لا ا ستقلال، ولهذا قرنها بطاعة الر سول، ولم يُعد العامل، وأفرد طاعة الر سول، وأعاد العامل، لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعاً، كما يُطاع أولو الأمر تبعاً، وليس كذلك، بل طاعته واجبة استقلالاً..»

ويقول ابن تيمية: « .... أن أهل السنة لا يوجبون طاعة الإمام في كل ما يأمر به، بل لا يوجبون طاعته إلا فيما تسوغ طاعته في الشرعية، فلا يجوّزون طاعته في معصية الله وإن كان إماما عادلا وقال أيضاً: «والإمام العدل تجب طاعته فيما لم يعلم أنه معصية، وغير العدل تجب طاعته فيما علم أنه طاعة كالجهاد»

(٥) حذر السلف الصالح من تلك الطاعة الفاسدة طاعة المخلوق في معصية الله تعالى في آثار كثيرة فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً: (أعوذ بالله من إمارة الصبيان، قالوا وما إمارة الصبيان؟ قال إن أطعتموهم هلكتم أي في دينكم وإن عصيتموهم أهلكوكم أي في دنياكم بإزهاق النفس أو بذهاب المال أو بهما معاً)

وفي رواية لابن شيبة: (أن أبا هريرة كان يمشي في السوق ويقول: اللهم لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصبيان) قال الحافظ ابن حجر: «وفي هذا إشارة إلى أن أول الأغيلمة كان في سنة ستين، وهو كذلك فإن يزيد بن معاوية استخلف فيها..» .

---

(٥) أي لا طاعة في المعصية ذاتها وتجب طاعته فيما أمر به من المعروف.

المطلب الثالث: جزاء المعصية

قال الشيخ : كما أن جزاء الحسنة حسنة مثلها ، والذين اهتدوا زادهم الله هدى وآتاهم تقواهم ، فكذلك المعصية والسيئة لها عقوبتها العاجلة والآجلة والعياذ بالله ، ومن هذه العقوبات :

١ – ا لضلال المبين

إذا كانت الهداية ثمرة من ثمار الطاعة لله ور سوله ،ففى المقابل فإن الـ ضلال المبين ثمرة من ثمار رفض طاعة الله ور سوله وعـصيانهما ،حيث يقول المولى عز وجل﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ ، أى ومن يعص الله ور سوله فى أمر من الأمور ويعمل فيه برأيه فقد ضل طريق الحق ضلالا مبينا أى بين الانحراف عن سنن الحق.

فهذا تحذير من عصـيان الله عز وجل ورسـوله الكريم ، والتلقي عن أهل الكتاب وطاعتهم وإتباعهم ينادي الله الجماعة المسلمة ويوجهها إلى القاعدتين الأساسيتين اللتين تقوم عليهما حياتها ومنهجها ،واللتين لا بد منهما لكي تستطيع أن تضطلع بالأمانة الضخمة التي ناطها الله بها ، وأخرجها للوجود من أجلها ، هاتان القاعدتان المتلازمتان هما: الإيمان ،والطاعة الإيمان بالله وتقواه ومراقبته في كل لحظة من لحظات الحياة ، والطاعة لله ورسـوله ، تلك التي تجعل من الجماعة المسـلمة بنية حية قوية صـامدة ، قادرة على أداء دورها العظيم في الحياة البشرية ، وفي التاريخ الإنساني.

٢– الردة إلى الكفر

إن طاعة المسلمين للكفار فيما يقولون أو يفعلون تعود عليهم بخطر شديد قد يطيل إسلامهم وعقيدتهم ، وذلك لأنهم لا يرجون الخير للمسلمين ،ويسعون جاهدين لإخراجهم من نور الإ سلام إلى ظلمات الكفر والـضلال ،،وفى ذلك يقول المولى عز وجل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾، وقوله تعالى [وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً]، كما حذر المولى عز وجل المسلمين من طاعة الكفار ، مبينا فى الوقت ذاته خطر هذه الطاعة ونتائجها الوخيمة ، وفى ذلك يقول المولى عز وجل﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ ويتضـح من ذلك مدى خطورة طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها وطاعتها ، فهذه العقيدة والطاعة هي صـخرة النجاة ، وخط الدفاع ، ومصـدر القوة الدافعة للأمة المسـلمة ، لذا يبذل الكفار في سـبيل تحويل هذه الأمة عن طاعتها لربها ولرسـولها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة.

٣- الإفساد فى الأرض

إن الدعوة إلى الله دعوة صلاح وإصلاح ، لذا فهى تحارب الفساد والإفساد بشتى صوره وأشكاله ، قال المولى عز وجل على لسان شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾، وقال تعالى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

فطاعة الله عز وجل ورسوله تؤدى إلى صلاح المجتمع ، والتخلى عن هذه الطاعة تعتبر سبب فى فساد المجتمع ، لذا نجد سيدنا صالح عليه السلام قد حذر قومه من طاعة الطواغيت والمفسدين لما يترتب على هذه الطاعة من عواقب وخيمة على المجتمع بشكل عام ، فقال على لسانه﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ ، فقد أمرهم صالح عليه السلام بتقوى الله عز وجل وطاعته ، والعمل بأوامره ،واجتناب نواهيه ،ثم أمرهم بطاعته ،لأن طاعة الرسول هى طاعة رب العالمين قال تعالى﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ ، و نهاهم عن طاعة المفسدين ، ا لذين لايصلحون .

٤- العذاب المهين فى الآخرة

فكما أن طاعة الله ورسوله توجب دخول الجنة ، كذلك فإن معصية الله عز وجل وعدم طاعتهما ، تستوجب دخول النار والعذاب المهين فيها يقول المولى عز وجل ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ، ويدخل في ا سم المعصية الكفر فما دونه من المعا صي ، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله ، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب ، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه ، دخل النار وخلد فيها ، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة ، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد ،غير مخلدين في النار ، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

٥- بطلان الأعمال

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ، جعل الله عدم طاعته وطاعة رسوله ﷺ سببا فى بطلان الأعمال .

حيث يخبر الله تعالى عمن كفر و صد عن سبيل الله ، وخالف الر سول و شاقه ، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئا ،وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، و سيحبط الله عمله فلا يثيبه على ســالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضـــة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحســنات يذهبن الســيئات . لكل ذلك وغيره نرفض هذه الطاعة التى منعنا الله منها ، ونلتزم بالطاعة المشروعة فحسب فهى الغناء والكفاء والشفاء والنقاء ، والر ضى من رب السماء وحسبنا بواحدة من هذه الفوائد فكيف وهى تجتمع كلها فى الطاعة المشروعة ؟ رضينا بالله وبرسوله حظا وقسما .

المطلب الرابع: طاعة لا عبادة:

قال الشــيخ : يخلط الكثير بين مفهوم الطاعة ومفهوم العبادة ويجعلهما بمعنى واحد ، ولايفرق بينهما قائلا : العبادة هى الطاعة ، والمطيع لله عابد له ، وبالتالى لايرى فرقا بين المصطلحين – الطاعة والعبادة – ثم يرتب على ذلك أن كل طاعة عبادة فمن أطاع أحدا غير الله فقد عبده حتى لو أطاعه فى المباح ، وأولى بذلك من يطيع شخصا فى المعصية فهو عابد له ، وبرغم بطلان هذا الكلام وو ضوح خطأه لمن نظر لوهلة واحدة فى القرآن الكريم بما يغنى عن الســرد والاعادة الا أننا نعرض لكلام العلماء وتفريقهم بين مفهوم الطاعة ومفهوم العبادة ، بل وانكارهم على المودودى الذى يســوى بين المفهومين ، وقبل عرض أقوال العلماء أسوق عددا من الآيات التى يظهر منها ولأول وهلة بطلان مذهب التسوية بين المفهومين – الطاعة والعبادة – ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ ، وقوله سبحانه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ هذه بعض آيات ذكرت الطاعة لله وللرسول ولأولى الأمر فهل يقول عاقل أن معنى الطاعة فى هذه الآيات واحد ؟ هل يقول عاقل أن معنى طاعة الله هو نفســه معنى طاعة الرسول ، وأن كليهما لايختلف عن طاعة ولاة الأمور ، ؟ مما لاشك فيه انه لايقول عاقل بذلك ، فطاعة الله عبادته ، وطاعة الرســول اتباعه ، وطاعة الولاة تكون فى غير معصـية الله ولامخالفة الرســول ﷺ ، هل يقول عاقل أن قوله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، معناها: وما أر سلنا من ر سول الا ليعبد باذن الله ؟؟ هل يقول عاقل ذلك ؟ وما هو الفارق بينه وبين المشـركين وعباد الأصـنام اذا كان يســوى بين الطاعة والعبادة ؟ ويرى ان كل طاعة تعنى عبادة المطاع ؟ ألا يعلم انه بفكره هذا يقول بأن القرآن يدعو إلى عبادة الأنبياء والحكام وغيرهم ؟ فأى ضلال فوق هذا الضلال وأى تحريف أشد من هذا التحريف ؟

والآن نسوق بعضا من أقوال العلماء يفرقون فيها بين مفهوم الطاعة ومفهوم العبادة ليعود كل مفهوم إلى مكانه الصحيح .

. قال العلامة ابن باز رحمه الله فى مجلة البحوث الإسلامية : بسم الله الرحمن الرحيم من جوابي لفضيلة الشيخ: أبي الأعلى المودودي فيما يتعلق بالفرق بين العبادة والطاعة كان أبو الأعلى المودودي قد بعث إلي برسالة رقمها ١٥٢٦ وتاريخ ٢/ ٤/ ١٣٩٢ ه شرح فيها حاله وحال الأستاذ طفيل الذي خلف فضيلته في إمرة الجماعة الإسلامية ، وقد أجبته برسالة عندما كنت رئيسًا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في نفس العام.. ومنها : قال لي بعض الإخوان المقيمين في البلاد من أهل مليبار عن فضيلتكم إنكم ترون أن العبادة تفسر بالطاعة وأن كل من أطاع أحدًا فقد عبده ، كما تفسر بالرق والتأله. وكتب إلي الشيخ عمر بن أحمد المليباري أي صاحب مجلة السلسبيل في هذا الموضوع جازما بما ذكر عن فضيلتكم وعن الجماعة وأرسل إلي نسخة من استفتاء تعميمي في هذه المسألة أرسل إليكم نسخة منه. وقد استغربت هذا الأمر وعزمت على الكتابة إليكم فيه من قبل مجيء كتابكم المجاب للاستفسار منكم عن صحة ما نسب إليكم . وبهذه المناسبة فإني أرجو من فضيلتكم الإفادة عما لديكم في هذا الموضوع، والذي يظهر لأخيكم أن الطاعة أوسع من العبادة، فكل عبادة لله موافقة لشريعته تسمى طاعة وليس كل طاعة بالنسبة إلى غير الله تسمى عبادة، بل في ذلك تفصيل :

أما بالنسبة إلى الله سبحانه فهي عبادة له لمن أراد بها وجهه ، لكن قد تكون صحيحة وقد تكون فاسدة على حسب اشتمالها على الشروط المرعية في العبادة وتخلف بعض الشروط عنها ، فأرجو من فضيلتكم الإفادة المفصلة عما ترونه في هذه المسألة ومما يزيد الأمر وضوحا أن من أطاع الله في بعض الأمور وهو متلبس بالشرك يستحق أن تنفي عنه العبادة. كما قال الله سبحانه في حق المشركين ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ ، فنفى عنهم العبادة من أجل شركهم، ومعلوم أنهم يعبدون الله في الشدة بالتوحيد وبالحج والعمرة وبالصدقات في بعض الأحيان ونحو ذلك، ولكن لما كانت هذه العبادة مشوبة بالشرك في الرخاء وعدم الإيمان بالآخرة إلى غير ذلك من أنواع الكفر جاز أن تنفى عن أصحابها. ومما يزيد الأمر بيانا أيضا أن من أطاع الأمراء وغيرهم في معاصي الله لا يسمى عابدا لهم إذا لم يعتقد جواز طاعتهم فيما يخالف شرع الله وإنما أطاعهم خوفا من شرهم أو اتباعا للهوى، وهو يعلم أنه عاصٍ لله في ذلك فإن مثل هذا يعتبر عاصيا بهذه الطاعة ولا يعتبر مشركا إذا كانت الطاعة في غير الأمور الشركية، كما لو أطاعهم في ضرب أحد بغير حق أو قتل أحد بغير حق أو أخذ مال بغير حق ونحو ذلك، والأمثلة في هذا الباب كثيرة، وما أظن هذا الأمر يخفى

على من دونكم من أهل العلم ، لكن لما كان هذا الأمر قد أ شاعه عنكم من أ شاعه وجب عليّ أن أ سألكم عنه وأطلب من فضيلتكم تفصيل القول فيه حتى ننفي عنكم ما يجب نفيه، وندافع عنكم على بصيرة ونوضح الحق لطالبه فيما يتعلق بالجماعة الإسـلامية. وإن كان ما نسـب عنكم هو كما نسـب تذاكرنا فيه وبحثناه من جميع وجوهه وناقشـنا مواضـيع الإشـكال بالأدلة ، والحق هو ضـالة الجميع . فنسـأل الله عز وجل أن يوفقنا وإياكم لما يرضـيه وأن يمنحنا جميعا الفقه في دينه والثبات عليه وأن يصـلح قلوبنا وأعمالنا وأن يجعل الحق ضالتنا أينما كنا إنه جواد كريم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

وفي (القول المفيد شرح كتاب التوحيد) للشيخ ابن عثيمين : « وقد سئل فضيلته : عن مفهوم العبادة؟

فأجاب بقوله : العبادة لها مفهوم عام ، ومفهوم خاص ، فالمفهوم العام : هي « التذلل لله محبة وتعظيما بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه».

والمفهوم الخاص : يعني تف صيلها. قال فيه شيخ الإ سلام ابن تيمية : هي «ا سم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة كالخوف، والخشية، والتوكل، والصلاة، والزكاة، والصيام، وغير ذلك من شرائع الإسلام».

وقد يكون قصـد السـائل بمفهوم العبادة ما ذكره بعض العلماء من أن العبادة إمّا عبادة كونية ، أو عبادة شرعية، يعني أن الإنسان قد يكون متذللا لله – سبحانه وتعالى – تذللا كونيا وتذللا شرعيا.

فالعبادة الكونية تشـمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر لقوله – تعالى –: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ . فكل من في السماوات والأرض فهو خاضع لله – سبحانه وتعالى – كونا فلا يمكن أبدا أن يضاد الله أو يعارضه فيما أراد – سبحانه وتعالى – بالإرادة الكونية.

وأما العبادة الـ شرعية : فهي التذلل له – سبحانه وتعالى – شرعا فهذه خا صة بالمؤمنين بالله – سبحانه وتعالى – القائمين بأمره، ثم إن منها ما هو خاص أخص كعبودية الر سل ، عليهم الصلاة والسلام ، مثل قوله – تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ . وقوله : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾. وغير ذلك من وصف الرسل ، عليهم الصلاة والسلام، بالعبودية.

والعابدون بالعبودية الكونية لا يثابون عليها ؛ لأنهم خاضـعون لله – تعالى – شـاءوا أم أبوا، فالإنسـان يمرض، ويفقر، ويفقد محبوبه من غير أن يكون مريدا لذلك بل هو كاره لذلك لكن هذا خضـوع لله – عز وجل – خضوعا كونيا»أ.هـ.

ويوضح الدكتور محمد راتب النابلسي الفرق بين الطاعة والعبادة بقوله :

العبادة في مجملها وفي أدق معانيها : طاعةٌ لله عزَّ وجل ، لكن هذه الطاعة ليست قسريَّةً، إنما هي طوعيَّة، لو أنها قسريَّة لم تكن عبادة، والفرق بين طاعة الأُقوياء وعبادة الله عزَّ وجل أن طاعة الأقوياء قسريَّة، لكن عبادة الله طوعيَّة، لذلك الفارق الدقيق بين الطاعة والعبادة أن الأولى قسريَّة، لكن الثانية طوعيَّة.

فارقٌ آخر: العبادة طاعةٌ طوعيَّة لكنَّها ناتجةٌ عن محبَّةٍ ذاتيَّة، مع الطاعة الطوعيَّة محبَّةٌ ذاتيَّة، لكن طاعة الأقوياء أوَّلاً قسريَّة ولا تشوبها المحبَّة، طاعةٌ قد يشوبها الحقد، قد يشوبها الألم، قد يشوبها القهر. فالعبادة كما قال بعض العلماء: غاية الخضوع، مع غاية الحُب، مع غاية الإخلاص. خضوعٌ وحبٌ وإخلاص ، إنَّ النفس البشريَّة لها طبيعةٌ خاصَّة، إنها لا تحب إلا الكامل، ولا تطيع إلا ما هو في صالحها، فإذا عرف الإنسان الله ؛ عرف كماله، عرف أنه موجود، وعرف أنه واحد، وعرف أنه كامل، وعرف أنه يعلم، وعرف أنه سيحاسب سيطيعه ، هذه خمسة أفكار. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: آية ١٨٠].

أكرِّر: إذا عرف أنه موجود، وعرف أنه كامل، وعرف أنه واحد، وعرف أنه يعلم، وعرف أنه سيحاسب، إذا عرف هذه الحقائق الخمس فلا بدَّ من أن يطيع الله عزَّ و جل، إذاً: هذه العبادة التي هي طاعةٌ طوعيَّةٌ ممزوجةٌ بمحبَّةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينيَّة لكن ما الهدف ؟

ليس الهدف أن تعرف، ولا أن تطيع، الهدف أن تسعد، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم ، خلق الخلق ليرحمهم، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ﴾ [سورة هود: الآية ١١٩].

إذاً : الأصل أن تعرفه، ثمَّ تطيعه، ثم تسعد بقربه في الدنيا والآخرة، هذا هو أساس كل الدين، الدين ثلاث كلمات ؛ جانب معرفي، جانب سلوكي، جانب جمالي، والجمالي هو الهدف ، الجمالي تذوق منه طرفاً في الدنيا ، وتذوقه كلَّه في الآخرة، الهدف أن تسعد ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب].

إذاً: الدين معرفة وسلوك وسعادة، معرفة في البداية، سلوك في الوسط، سعادة في النهاية ، هذه هى نصوص العلماء وأقوالهم تفرق بين معنى الطاعة ومعنى العبادة بما لايدع مجالا لوصم الناس واتهامهم بالشرك والكفر دون مرر ولامسوغ صحيح الا الخطأ في فهم النصوص ، والا الخلط في المفاهيم .

المطلب الخامس: شرك الطاعة :

ماهو الشـرك فى الطاعة الذى يحذر منه الجميع ، ويندد به ويرفضـه لرفض الشـريعة الغراء له ، واجتماع الفقهاء على رفضه ؟

قال الشيخ : لاينبغى لنا أن نجيب فى هذه القضية الأخيرة بعلمنا نحن ولابرأينا فلربما جانبنا الصواب أو حركنا الهوى ولكن لندع فقهاء الإسلام يحددون ماهو شرك الطاعة الذى كثر الحديث عنه والتحذير منه :

ويعرف شـرك الطاعة بأنه : مسـاواة غير الله بالله في التشـريع والحكم ، أو طاعة العلماء والأمراء في المعصية ، مع استحلال ذلك ؛ فكل من أطاع مخلوقا في تحريم الحلال ، أو تحليل الحرام ؛ فهو مشرك شرك طاعة.

-يقول شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله : وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك، وأتباع القضـاة، والعامة المتبعة لهؤلاء يشـركون شـرك الطاعة.. فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال ما حلله، والدين ما شـرعه إما ديناً ، وإما دنيا ، وإما ديناً ودنيا، ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك ، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاَ في طاعته بغير سلطان من الله [مجموع الفتاوى ١ / ٩٨ .انظر إلى قوله : - فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ، والحلال ما حلله ، والدين ما شرعه – يتبين لك المقصود بشرك الطاعة ، قال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد و صحته، يذهبون إلى رأي سفيان . [فوائد من شرح كتاب التوحيد ص ١٠٤].

- قال العز بن عبد السـلام في قواعده : فيمن تجب طاعته ، ومن تجوز طاعته ، ومن لا تجوز طاعته : لا طاعة لأحد من المخلوقين إلا لمن أذن الله في طاعته كالرسـل والعلماء، والأئمة والقضـاة، والولاة، والآباء والأمهات والسادات والأزواج ، والمستأجرين في الإجارات على الأعمال والصناعات. ولا طاعة لأحد في معصية الله عز وجل ؛ لما فيها من المفسدة الموبقة في الدارين أو في إحداهما ، فمن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة له ، إلا أن يكره إنسـانا على أمر يبيحه الإكراه ، فلا إثم على مطيعه. وقد تجب طاعته لا لكونه آمرا، بل دفعا لمفسدة ما يهدده به من قتل أو قطع أو جناية على بُضع ، ولو أمر الإمام أو الحاكم إنسانا بما يعتقد الآمر حله والمأمور تحريمه ، فهل له فعله، نظرا إلى رأي الآمر، أو يمتنع نظرا إلى رأي المأمور؟ فيه خلاف، وهذا مختص فيما لا ينقض حكم الآمر به. فإذا كان مما ينقض حكمه به فلا سـمع ولا طاعة. وكذلك لا طاعة لجَهَلَة الملوك والأمراء إلا فيما يعلم المأمور أنه مأذون في الشـرع. وتفرد الإله بالطاعة لاختصـاصـه بنعم الإنشاء والإبقاء والتغذية والإصلاح الديني والدنيوي، فما من خير إلا هو جالبه وما من ضير إلا هو سالبه،

وليس بعض العباد بأن يكون مطاعا بأولى من البعض؛ إذ ليس لأحد منهم إنعام بشــيء مما ذكرته في حق الإله. وكذلك لا حكم إلا له.. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [قواعد الأحكام (١/ ١٥٧، ١٥٨).

وقال ابن تيمية : وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً – حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله – يكونون على وجهين: أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم؛ فكان من اتبع غيره في خلاف الدين –مع علمه أنه خلافُ الدين– واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم في معصــية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب» ا.هـ [الفتاوى ٧ / ٧٠].

يقول الشيخ محمد الدويش وهو يتكلم على أنواع الشرك الأكبر: ومنها شرك الطاعة، وذلك بأن يطيع غير الله سبحانه وتعالى في معصية الله سبحانه وتعالى. وهذا باب خطير جداً، حينما يأتي المشرّعون وواضعوا القوانين المخالفة لشرع الله سبحانه وتعالى فيشرّعون هذه الشرائع، ويضعون هذه النظم والقوانين، ثم يأتي هؤلاء الأتباع ويطيعونهم فيها من دون الله تعالى ، ويتّبعونهم عليها، مع علمهم أنهم مغيّرون للشــريعة، فهذا سمّاه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى شركاً أكبر حين علّق على حديث عدي بن حاتم حين دخل على رســول الله ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] فقال عدي وكان يعرف أحبار النصــارى، قال: (يا رســول الله إنهم لا يعبدونهم، يعني لا يعبدون الأحبار والرهبان، لا يســجدون لهم ولا يركعون، فقال الرســول ﷺ: أليســوا يحلون الحرام فيحلونه، ويحرمون الحلال فيحرمونه؟ قال: بلى، قال: فتلك عبادتهم) وهذا حديث حسن. ومن ثم فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قال : وهؤلاء الأتباع نوعان: نوع منهم اتبعوهم على تبديلهم، يعني علموا أنهم مغيرون لشــرع الله واتبعوهم على ذلك، فهؤلاء مثلهم. والنوع الثاني : أناس علموا شــرع الله الحق ولكنهم اتبعوا أولئك معصية، أي أنهم فعلوا ما يخالف الشرع من باب المعصية، فهؤلاء فسّاق عصاة وليسوا بكفار، أما بالنسبة للأحبار والرهبان أنفسهم المغيرين لشرع الله تعالى فهؤلاء لا شك في أنهم واقعون في الشرك الأكبر الذي هو شرك الطاعات – دروس الشيخ محمد الدويش.

لعلنا بذلك نكون قد و ضعنا النقاط فوق الحروف فى مو ضوع الطاعة والعبادة وعرفنا أن كل عبادة طاعة وليست كل طاعة يقال لها عبادة ، وبالتالى ليست كل مخالفة أو معصية فى مو ضوع الطاعة يقال عنها شرك طاعة ، وإنما شـرك الطاعة هو ماكان طاعة فى تحليل الحرام أو تحريم الحلال واعتقاد صـحة ماهم عليه من باطل، أو اعطائهم الحق فى فعلهم المحرم وطاعتهم فيه ، أما مجرد الطاعة مع صـحة الاعتقاد فلايقال عنها شرك ولاكفر على معناهما الاكبر ، وإنما هى معصية كبيرة والعياذ بالله يجب التوبة منها والإقلاع عنها ولزوم طاعة الله ورسوله قولا وعملا واعتقادا . .

الفصل الثالث
البيان والإذاعة لآيات التشريع والطاعة

قال الشـيخ : قد ذكرت أيها الأمير فى ثنايا حديثك عن ردة الحكام وكفرهم بسـبب سـنهم وتشـريعهم للقوانين المخالفة للشريعة مجموعة من الآيات القرآنية مستدلا بها على صحة ماذهبت اليه من تكفير الحكام لمجرد التشريع ، بل وذهبت إلى كفر من أطاع هذه التشريعات والقوانين بدعوى أنه اطاع فى الشرك وجعلته بذلك مشـركا ، لأنه صـرف الطاعة التى فسـرتها بالعبادة إلى غير الله فاتخذهم بذلك أربابا وشـركاء مع الله بطاعته اياهم وهاهو نص كلامك ، واستدلالك بمجموعة الآيات على ماذهبت اليه :

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام] ، لقد سمى من زين للناس قتل الأولاد بالشركاء ، وسمى الناس الذين استجابوا لهم فى ذلك بالمشركين .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ، لقد و صف الله فى هذه الآية من يدعو القوم لأكل الميتة بالشياطين ، وحذر القوم من طاعتهم فى أكل الميتة لأنهم ان فعلوا ذلك وأطاعوهم صـاروا بهذا العمل وتلك الطاعة مشـركين ، فهل الشياطين ليسوا كفارا ؟ وهل من يطيع الشياطين يكون مسلما مع أن الله قال عنهم ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ؟

وثالث الآيات فى مو ضوعنا هى قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى] - أنظر كيف جعل الذين يشرعون قانونا لم يأذن به الله شركاء له سبحانه ، فكيف بمن يشرع على خلاف ماشرعه الله لعباده . ؟

الدليل الرابع قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة] ، لقد نزلت هذه الآيات فى حق من كانوا يغيرون مواقيت الأشهر الحرم ويستبدلون الشهور بعضها ببعض ، وينقلون التحليل أو التحريم من شهر إلى شهر آخر ، لقد وصف الله فعلهم هذا بأنه كفر وزيادة فى الكفر ، فهل من غير فى الشهور ومواعيد القتال يكون كافرا وزيادة بينما نقول نحن : ان الذى يشرع للناس غير شرع الله ليس كافرا انما هو مسلم عاص مالم يستحل ؟ هل تغيير الشهور والأيام أشد من تغيير الشريعة والأحكام ؟

وخامس الآيات اتى استدللت بها أيها الأمير على كفر المشرعين خلاف شرع الله وكذلك كفر من يطيعهم فى ذلك قوله تعالى فى سـورة التوبة : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ ، ثم عقبت بقولك : ومعلوم انهم لم يسجدوا لهم ولم يصلوا لهم ولم يعتبروهم أربابا خالقين لهم ، وانما أطاعوا أوامرهم في خلاف ما حرم الله ، وتركوا الحلال الذى أحله الله تعالى طاعة لهؤلاء الأحبار والرهبان ، لقد سـماهم الله أربابا ، وسـمى طاعة الناس لهم عبادة فقال ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، ليبين أن من اطاعهم فى غير ماشـرعه الله فقد عبدهم واتخذهم أربابا ، وبذلك يصير الأحبار والرهبان كفارا ، ويصبح الناس الذين أطاعوهم على خطئهم كذلك كفارا ومشركين .

ثم ختمت كلامك أيها الأمير بعبارة : « هذا هو كتاب الله تعالى بين لالبس فيه ولاغموض ، وأكتفى بهذه الآيات الخمس ، وغيرها كثير فى كتاب الله تعالى « فأنى تصـرفون » ؟ وأنتم ايها الشـيوخ « ماكم كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسـون؟ إن لكم لما تخيرون » . « ان المشـرع خلاف شـرع الله كافر، ومن أطاعه فى هذا التشريع فهو كافر مثله ، لاخلاف فى ذلك ولامراء » . هكذا قلت أيها الأمير وا ستدللت بالقرآن على قولك ، وإن كانت الآيات لاتؤيد ماذهبت اليه ، ولاتسعفك فى الاستدلال بها على مذهبك ، إلا أنه لامانع لدينا من الإيضاح والبيان، عسى أن تنتفع أو ينتفع غيرك ، وها نحن هنا بفضل الله وقوته نعرض لهذه الآيات موضحين معناها ، كاشفين اللبس الذى علق بفهمها ، مستبصرين ومسترشدين بفهوم العلماء المشهود لهم بالاجتهاد والتقى ، وذلك فى مبحثين ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

المبحث الأول : وفيه مطلبان :

المطلب الأول : قوله سـبحانه : ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام].

ظاهر الآية يوهم أن من أطاع الـشيطان فى أكل مالم يذكر ا سم الله عليه صار مـشركا بتلك الطاعة ، ولكن العلماء لم يفهموا ذلك من الآية ولم يقولوا به، وانما فـصلوا فى بيان المراد منها ، وو ضحوا حدود الطاعة التى تكون شركا ، وفرقوا بين الطاعة الشركية والطاعة التى هى معصية كبيرة ، وهذه بعض أقوالهم .

يقول الشيخ عبد اللطيف بن حسن ال الشيخ : « وتأمل قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ ﴾ .. الآية كيف حكم على من أطاع أولياء الشيطان فى تحليل ماحرم الله انه مشرك ؟ .

ويقول الامام ابن العربى : « انما يكون المؤمن بطاعة المشـرك مشـركا إذا أطاعه فى الاعتقاد ، فان أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص فافهموه » .

ويقول الامام الطبرى : « وأما قوله : (إنكم لمشـــركون) ، يعني : إنكم إذا مثلهم ، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالا . فإذا أنتم أكلتموها كذلك ، فقد صرتم مثلهم مشركين .

ويقول القرطبى : « قوله تعالى : ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ أي في تحليل الميتة ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ فدلت الآية على أن من ا ستحل شيئا مما حرم الله تعالى صار به مشركا . وقد حرم الله سبحانه الميتة نصا ; فإذا قبل تحليلها من غيره فقد أشرك ثم ذكر كلام ابن العربى السابق .

و قال الطاهر بن عاشـــور فى التحرير والتنوير : « وقوله : ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ حذف متعلق (أطعتموهم) لدلالة المقام عليه ؛ أي : إن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه ، وهو الطعن في الإ سلام ، والشك في صحة أحكامه . وجملة ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ جواب الشرط . وتأكيد الخبر بإن لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوا الشياطين ، وإن لم يدعوا لله شركاء ؛ لأن تخطئة أحكام الإ سلام تساوي الشرك ، فلذلك احتيج إلى التأكيد ، أو أراد : إنكم لصائرون إلى الشرك ، فإن الشياطين تستدرجكم بالمجادلة حتى يبلغوا بكم إلى الشرك ، فيكون اسم الفاعل مرادا به الاستقبال .

أما الامام ابن كثير فيروى عن السـدى يقول : « وقال السـدي في تفسـير هذه الآية : إن المشـركين قالوا للمؤمنين : كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضـــاة الله ، وما ذبح الله فلا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه؟ فقال الله : ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ فأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾. وهكذا قاله مجاهد ، والضـــحاك ، وغير واحد من علماء السـلف ، رحمهم الله . وقوله تعالى : ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ (أي : حيث عدلتم عن أمر الله لكم و شرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] . [ص ٣٣٠] : وقد روى الترمذي في تفسـيرها، عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رســول الله ، ما عبدوهم ، فقال : « بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . فإنت ترى مما نقله ابن كثير عن السدى أن ثمة جدال ومحاورة دارت بين المشركين والمســلمين عن حكم أكل الميتة ، ومعلوم أن الجدال والحوار لايكون فقط لتغيير السـلوك وانما لتغيير الأفكار والعقائد والتصورات ، حيث أراد المشركون تغيير عقيدة المسلمين حول تحريم كل الميتة ومالم

يسم عليه ، وهذا ليس مجرد تغيير فى العمل كما هو معلوم ، ولذلك نجد الامام ابن كثير يفسرها بحديث عدى و يذكر قو له ﷺ: بل انهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذ لك عبادتهم « أى فسرها بالا ستحلال كغيره من الأئمة ، وبذلك نفهم قوله : حيث عدلتم عن أمر الله لكم و شرعه إلى قول غيره » أنه يعنى عدول عن التحريم إلى التحليل ، وهذا هو الاستحلال الاعتقادى كما قلنا وكما يقوله العلماء، وليس مجرد الطاعة فى الفعل ، ولامجرد الاستحلال العملى فهذا وحده لايكفر فاعله كما نص على ذلك ابن تيمية فى الصارم المسلول .

ونقل الشوكانى فى فتح القدير عن الشافعى رحمهما الله قوله : « قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهذا مخصوص بما ذبح على النصب ، يعني لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت على اسم إلاهية الأوثان فقد ر ضيتم بإلاهيتها وذلك يوجب الشرك انظر لقوله« يعنى لو ر ضيتم » لتعلم أن المقصود بالطاعة هنا هى المقترنة بالرضا عن المعصية وقبولها وليس مجرد الطاعة كما يقول البعض . وقد تكلمنا عن حكم المشرعين فى مبحث سابق فليراجع للاهمية .

هذه هى نصوص العلماء ليس فيها أن الطاعة المجردة فى المعصية تعد كفرا، فمن أين جئتم بمذهبكم فى التكفير بطاعة المشركين أو طاعة العصاة يرحمكم الله ؟ وهل رئيس اللصوص الذى يضع لهم الخطط ويحدد الأهداف ويوزع المهام على أفراد عصابته يعتبر كافرا بهذا العمل رغم اقراره ومعرفته أنه سارق ، وان السرقة حرام ، يأباها الله ويأباها الناس ، هل يعد هذا الرجل كافرا ؟ وهل أفراد عصابته الذين يطيعونه فى المعصية وينفذون خططه ويلتزمون أوامره صاروا كفارا رغم اقرارهم بذنبهم بل وسؤال الكثير منهم التوبة من هذا الذنب ؟ هل نعدهم كفارا بحجة أنهم أطاعوا فى المعصية والتزموا لوائحها وانضبطوا بنظامها ؟ أليس هذا هو مذهب الخوارج فى التكفير بالمعصية أو بالاصرار عليها ؟ خبرونا هداكم الله .

المطلب الثاني : قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى] . ونتكلم عن هذه الآية فى نقاط محددة :

-**أولا** : هذه الآية ليست نصا فى موضوع الطاعة والاتباع الذى هو محور حديثنا فى هذا المبحث وانما تدخل فى موضوع التشريع وقد سبق الكلام عنه فى مواضع متفرقة مضت من كتاب « الشموس الساطعة » ، « وكتاب والحاكمية والضوابط المنسية » فليراجع ..

ثانيا : هذه الآية لاتتكلم عن كل المشرعين وانما تعرض لنوع واحد منهم وهو الذى شرع للناس ما لم يأذن به الله .

ثالثا : انهم شرعوا ماشرعوه وجعلوه للناس دينا وهذا مانصت عليه الآية بقولها ﴿ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ وليس مجرد التشريع وحده وانما اعتبروه للناس دينا أو اعتبره الناس دينا لهم .

رابعا : هذه الآية نفسها تحمل بموجب مفهوم المخالفة أن من شرع للناس دينا قد أذن به الله فلايعتبر بهذه الفعلة شريكا مع الله ، لأنها اعتبرت الشركاء هم من يشرعون بغير إذنه سبحانه وتعالى . فمثلا لو شرع الحاكم للناس قانونا يحقق مصلحتهم المعتبرة شرعا ، أو يدفع عنهم مفسدة متحققة ومعتبرة الدفع شرعا لايكون بهذا التشريع منازعا لله فى صفاته ولا شريكا له فى ربوبيته سبحانه ، كيف وقد جاءت الشريعة نفسها لتحقيق المصالح وتحصيلها ودرء المفاسد وتقليلها ؟ هل يقال لمن حقق مقاصد الشريعة أنه نازع الله سلطانه ؟ فكيف يقال عمن يحاربها ويعاديها ؟

خامسا : اذا اختلفت الآراء الفقهية فى مسألة ظنية الثبوت أو ظنية الدلالة وأخذ الحاكم بمذهب من المذاهب الواردة فى المسألة وجعله قانونا ورأيا موحدا هل يقال عنه أنه شرع بغير حق ونازع الله سلطانه ؟ وأيضا لو ترك الآراء الاجتهادية الواردة فى المسألة وأتى برأى واجتهاد جديد لايصادم ولايخالف نصوص ولامقاصد الشريعة هل يقال عنه أنه شريك مع الله ؟ هل نقبل منه أن يقلد السابقين فى مذاهبهم الاجتهادية ولانقبل منه أن يأتى باجتهاد جديد يكون أكثر ملاءمة لواقع وحياة الناس فى زمانه ؟ هل نرضى أن يظل حبيسا وأسيرا لما فى بطون الكتب لايخرج عنها رغم نهى الفقهاء عن الافتاء فقط بما فى بطون الكتب ، وانما أمروا المفتى أن يعرف زمانه وواقعه عند تعرضه للفتوى ؟ .

سادسا : ألا توجد فى الشريعة الإسلامية منطقة تسمى بمنطقة الفراغ التشريعى؟ تركها الإسلام عمدا بلا تشريع حتى يشرع المسلمون لأنفسهم مايناسب واقعهم ويخدم اسلامهم ويسمح بمواكبة الشريعة الربانية لتطورات ومستجدات الأيام والأحداث ؟ أفئن جاء حاكم أو فقيه ليملأ هذه المساحة فى قضية أو قضايا معينة ليخدم الناس فى حياتهم ويحبب اليهم شريعة ربهم ويسهلها لهم هل نقول له لقد شاركت الله فى التشريع ؟ أى فهم هذا الذى يريدونه للناس وللاسلام ؟

سابعا : لقد نقلنا فيما سبق عشرات الأقوال عن العلماء والمجتهدين التى تبين أن ليس كل تشريع يعد كفرا ولا كل مشرع يعتبر كافرا حتى لوكان مخالفا لشريعة الله ، انما التشريع المكفر لصاحبه هو الذى يستحل معه الحرام أو يحرم الحلال ، او يكذب او يجحد او ينتقص من شريعة الله ، وكذلك الذى ينسب تشريعه الباطل إلى الإسلام ، وأيضا من يسوى تشريعه بشريعة الإسلام وأولى منه من يفضله على الشريعة المطهرة ، وكذلك من شرع لشكه فى صلاحية الشريعة وقدرتها على حل مشاكل الناس ومواكبة العصر ، ان

كل من اعتقد هذه المعتقدات أو واحدا منها لاشك أنه كافر سواء شرع أو لم يشرع ، فالمسألة مسألة قلب واعتقاد وليست فى كل الأحوال أعمالا فقط أو مخالفة بالمعا صى والذنوب فحسب مهما كثرت أواتسعت وتنوعت .

ثامنا : لقد جاءت هذه الآية ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فى سورة الشورى بعد قوله سبحانه وتعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾[الآيات] ، ثم يقول سبحانه بعدها ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم ﴾ ، فهو سبحانه يعرفهم بذاته سبحانه أنه هو الذى أنزل الشرائع وأرسل الرسل ، فماذا فعل لكم شركاؤكم ؟هل شرعوا لكم دينا لم يشرعه الله ؟ هل هذه الأصنام والأوثان التى تعبدونها من دون الله أنزلت لكم شرائع وأرسلت اليكم رسلا ؟ واذا كانت هذه الآلهة لم تفعل شيئا من ذلك – وهى لم تفعل – فلايحق لكم أن تجعلوها شركاء مع الله فى العبادة والدين ، هذا هو مقصود الآية وليس معناها القطع بأن كل من شرع فقد كفر وجعل نفسه شريكا مع الله لأنه خالف بهذا التشريع شريعته سبحانه ، وانما كما وضحنا هم مشرعون معينون وتشريع على وجه خاص وليس مطلق المشرعين ولامطلق التشريع كما سبق بيانه . و لمزيد بيان حول هذه الآية راجع كتاب الحاكمية للدكتور ناجح ابراهيم ، وكتاب « فتوى التتار قراءة جديدة » لفضيلته ففيهما غناء ان شاء الله تعالى.

المبحث الثانى : وفيه مطلبان:

المطلب الأول: قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة:٣٧] .

قال الشيخ : أما عن معنى (النَّسِيءُ) المذكور في الآية، فقد قال الشوكاني في (فتح القدير ٢/ ٤٥٩) :كانت العرب تحرم القتال في الأشـهر الحرم ، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرموا غيرها ، فإذا قاتلوا في المحرم حرموا بدله شـهر صـفر، وهكذا في غيره، وكان الذي يحملهم على هذا أن كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض... وكان الأشهر الثلاثة المسرودة يضر بهم تواليها، وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم، فيحللون بعضـها ويحرمون مكانه بقدره من غير الأشـهر الحرم، فهذا هو معنى (النَّسِـيءُ) الذي كانوا يفعلونه. اسـتدل البعض بهذة الاية على كفر المشـرعين باطلاق ، وكذلك كفر من أطاعهم ونفذ تشريعهم مستأنسين بقول العلامة ابن حزم رحمه الله فى الفصل : « وبحكم اللغة التى نزل بها القران أن الزيادة

فى الشىء لاتكون الا منه لامن غيره ، فصح أن النسىء كفر وهو عمل من الأعمال ، وهو تحليل ماحرم الله تعالى ، فمن أحل ماحرمه الله تعالى وهو عالم بأن الله حرمه فهو كافر بذلك الفعل » . يقول الدكتور عمر عبد الرحمن فى محاضرة له فى تفسير سورة المائدة : « النسىء تأخير حرمة شهر لشهر آخر يقول عنها القرآن « زيادة فى الكفر » لكن الحكم بغير ماأنزل الله – لامفيش حاجة أبدا ، يبقى مسلم – أى عقول وأى أفهام تردت وهبطت حتى جعلت الحكم بغير ما أنزل الله يبقى مسلما ولايخرج من الإسلام ؟ » .

ولتوضيح اللبس فى توجيه الآية نقول : قال ابن كثير : هذا مما ذم الله به المشركين فى تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفا سدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الفا سدة ، وتحليلهم ماحرم الله وتحريمهم ماأحل الله فإنهم كان فيهم القوة والعصبية والشهامة والحمية .. ماا ستطالوا به مدة الا شهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء اوطارهم فكانوا قد احدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فاخروه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ماحرم الله الاشهر الاربعة ، كما قال شاعرهم :

لقد علمت معد بأن قومى — كرام الناس أن لهم كراما

ألسنا الناسئين على معد — شهور الحل نجعلها حراما ؟

عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ قال : النسىء أن جناد بن عوف بن أمية كان يوافى فى الموسم كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادى : ألا ان أباثمامة لايجاب ولايعاب ، ألا وان صفر العام الاول العام حلال فيحله للناس ، فيحرم صفر عاما ويحرم المحرم عاما » . وهذا كما هو واضح من الكلام ليس مجرد عمل ، وانما هو نطق واعلان ومجاهرة بتبديل الأحكام وتغييرها ، وأنهم استحلوا ماحرم الله ، وحرموا ما أحله سبحانه ويتفق القوم على ذلك الوصف الجديد للشهر ، ونحن لانختلف فى أن من صرح بتحريم الحلال أو تحليل الحرام وأعلن ذلك وجاهر به بقوله ولسانه فهو كافرعندنا ، حتى وان كانت عقيدته خلاف قوله ، فحقيقته إلى الله وأما بالنسبة لنا فقد جعل اللسان على الفؤاد دليلا ، وكل من قال بقوله فهو مثله كذلك كافر ، ومن صدقه واعتقد صحة كلامه فهو مثله أيضا متى توفرت الشروط وانتفت الموانع ، لكن ليس كل من قاتل فى الأشهر الحرم يعد كافرا ولايعتبر ناسئا لحكم الله ولانجزم بأنه استحل محارم الله ، وانما يقال عنه أنه خالف وعصى أوامر الله بمنع القتال فى الأ شهر الحرم ، انما النا سىء الكافر هو من ا ستحل أوأعلن استحلال القتال فى الاشهر الحرم ،أوحر أو أعلن تحريم القتال فى غيرها ، ومن اتفق معه على ذلك فحكمه حكمه ، كما أنه يظهر مما نقله ابن كثير كيف كانوا يفعلون هذا الأمر انهم يعتبرونه منقبة وميزة من مزاياهم ومدعاة فخر لهم بين الناس ، لقد رأينا شاعرهم يفخر بهذا الفعل ويمجده ، ولاشك أن من مجد المعصية

واعتبرها مزية وكرامة وصـرح باسـتحلالها ولم يعد يعدها ذنبا وائما يعتبرها حلالا وفخرا مع علمه بتحريمها فهو كافر بذلك ، لكن ماعلاقة هذا بالحاكم أو العالم الذى يخالف الشـريعة فى قليل أو كثير من أحواله وأعماله وهو يقول هذا خطأ منى وأتمنى أن تساعدنى الظروف لازالته والتخلص من هذه المخالفات ، بل ويعلن فى كل المناسـبات أن الإسـلام هو الواجب الاتباع وهو الأفضـل والأحسـن والأقوم والأكمل والأشمل ، ويدعو الله أن يوفقه ويغفر له برغم ماعنده من ذنوب ومخالفات ؟

ويقول الدكتور عبد الرحمن بن معلا فى كتابه الغلو فى الدين : « قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾هذه الآية بين الله عز وجل فيها أن النسـىء زيادة فى كفر واقع ، يقول ابن العربى فى تفسـير هذه الآية » بيان لما فعلته العرب من جمعها لأنواع من الكفر فإنها أنكرت وجود البارى ، فقالت : « وما الرحمن » ؟ وأنكرث البعث فقالت « من يحيى العظام وهى رميم » وأنكرت بعثة الرسل فقالوا « أبشرا منا واحدا نتبعه » ؟ وزعمت أن التحليل والتحريم اليها ، فابتدعت من ذاتها مقتفية لشـهواتها التحليل والتحريم ، ثم زادت على ذلك كله بأن غيرت دين الله وأحلت ماحرم وحرمت ماأحل تبديلا وتحريفا » ، أه أحكام القران ، وتفسير القرطبى . ثم يعقب الدكتور عبد الرحمن بن معلا قائلا : « فهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم ، فكون النسىء زيادة فى الكفر انما هو لوقوع التحليل والتحريم » . ولقد عرضنا كيف كان التحليل والتحريم يقع منهم ، وكيف كانوا يعلنون ذلك لايستحيون منه ، بل كيف كانوا يعتبرونه فخرا لهم وكرامة . فهل شىء من ذلك يقع من الحكام الذين يشـرعون القوانين المخالفة للشـريعة الإسـلامية ؟ وهل يعلنون ويصـرحون أن ماحرمه الله قد صـار حلالا ؟ او ان ما احله البارىء سـبحانه قد صـار حراما ؟ ، وبذلك يتبين أنه ليس كل مخالف ناسـىء كافر ، وانما النا سىء الكافر هو من ا ستحل الحرام أو حرم الحلال وهذه م سألة قلبية لايتو صل اليها الا بتـ صريح واعلان فمن صرح بذلك فهو عندنا كافر ولاخلاف فى كفره .

المطلب الثاني: قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾[التوبة] .

-**قال الشيخ** : عن عدي بن حاتم – ر– قال: أتيت النبي – ﷺ – وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : « يا عدي اطرح عنك هذا الوثن »، فطرحته ، وسمعته يقرأ في سورة براءة : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] فقلت : إنا لسنا نعبدهم ، فقال : «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ،

ويحلون ما حرم الله فتستحلونه ؟ » قلت: بلى ، قال : « فتلك عبادتهم» - رواه الترمذي (٣٠٩٥) وحسنه الألباني وحسنه في غاية المرام .

- قال حذيفة في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التّوبَة: ٣١]: لم يعبدوهم ولكنهم أطاعوهم في المعا صي. وقال : كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً ا ستحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه - رواه ابن جرير في تفسيره من طريق أبي البختري .

- عن عطاء عن أبي البختري في قوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال : أطاعوهم فيما أمروهم به من تحريم حلال وتحليل حرام فعبدوهم بذلك - عبد الرزاق في مصنفه (٧/ ١٥٦) رقم: (٣٤٩٣٦).

- قال ابن تيمية رحمه الله : « .... وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً - حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله - يكونون على وجهين : أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل؛ فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم؛ فكان من اتبع غيره في خلاف الدين -مع علمه أنه خلافُ الدين- واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعا صي التي يعتقد أنها معا صي؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب» اهـ الفتاوى- ٧ / ٧٠ .

ويلزم التركيز هنا على حكم الأتباع الذين يطيعون وينفذون هذه القوانين المخالفة للشريعة ، أى ما حكم الشعوب المحكومة بغير شريعة الإسلام .؟

وللإجابة عن هذا السؤال : يقول العلامة ابن عثيمين رحمه الله « أتباع العلماء والأمراء فى تحليل ماحرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة اقسام :

القسم الأول : ان يتابعهم فى ذك راضيا بقولهم مقدما له ساخطا لحكم الله فهو كافر لأنه كره ماانزل الله ، وكراهية ماأنزل الله كفر لقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ ، ولاتحبط الأعمال الا بالكفر ، فكل من كره ماأنزل الله فهو كافر .

القســـم الثانى : أن يتابعهم فى ذلك راضـيا بحكم الله ، وعالما بأنه أمثل وأصــلح للعباد والبلاد ، ولكن لهوى فى نفســه تابعهم فى ذلك فهذا لايكفر ولكنه فاســق . فإن قيل لماذا لايكفر ؟ أجيب بأنه لم يرفض حكم الله ولكنه رضى به وخالفه لهوى فهو كسائر المعاصى .

القسم الثالث : ان يتابعهم جاهلا يظن ان ذلك حكم الله فينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : أن يمكنه معرفة الحق بنفسـه فهو مفرط أو مقصـر فهو آثم لأن الله أمر بسـؤال أهل العلم عند عدم العلم القســم الثانى : أن يكون جاهلا ولايمكنه معرفة الحق بنفســه فيتابعهم بغرض التقليد يظن أن هذا هو الحق فلا شىء عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معذورا بذلك » انتهى من المجموع الثمين ج٢ ص ١٢٩ – ١٣٠ .

انظر كيف يفرق الشـيخ بين من رضـى بحكم الجاهلية وعاب حكم الله تعالى ، وبين من جهل الحكم ولايتمكن من معرفته ، وبين من جهل الحكم مع قدرته على التعلم فأفتى بكفر الاول فقط دون القســمين الآخرين لتعلم معنى طاعة الحكام التى يقال عنها أنها كفر ، وأنها ليســت مطلق الطاعة وانما هى طاعة من نوع خاص كما سلف بيانه .

ويقول الدكتور عبد الرحمن المحمود : « وعلى هذا فالأتباع المحكومون بغير شــرع الله لايكفرون الا بشروط أهمها:

١) أن يعلموا أن الحكام الحاكمين بغير شــرع الله مبدلون ومغيرون لشــرع الله فيتبعونهم فى هذا التبديل والتغيير .

١ –) وجود مايدل عى الرضا والقبول منهم بحيث يشاركون المشرعين من دون الله فى اعتقاد التحليل والتحريم اتباعا لهم .

دقق معى فى قوله « وجود مايدل على الرضا والقبول ، وقوله : أن يعلموا ..» لتعرف كذلك شروط الطاعة المكفرة ولايفوتنك ما ذكرناه حول معنى التبديل والاســتبدال فى كتابنا « الحاكمية والضــوابط المنســية » ،لتنضبط عندك المسألة بإذن الله .

ولانكتفى هنا بالنقل عن المعاصــرين فقط ، بل نحيلك أيها الأمير إلى فهم الصــحابة والســلف لمعنى الطاعة المكفرة ، وأنها طاعة من نوع خاص يصـاحبها اعتقاد قلبى ، وليســت هى الطاعة المجردة كما تتوهم أنت ومن معك . بل أحيلك أيضا إلى نصوص الأحاديث النبوية التى توضح هذا المعنى وذلك بذكر روايات

مختلفة لحديث عدى بن حاتم حول ربوبية الاحبار والرهبان ومنها : « قال عدى: يارسول الله انا لسنا نعبدهم ، فقال : أليسوا يحرمون مااحل الله فتحرمونه ؟ ويحلون ماحرم اله فتحلونه ؟ ؟ قال قلت بلى : قال : فتلك عبادتهم » .

وفى رواية قال قلت يار سول الله أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم ، قال صدقت ، ولكن كانوا يحلون ماحرم الله فيستحلونه ، ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه «انظر معى لقول الحديث « يحرمون .... فتحرمونه .... يحلون فتحلونه » وكذلك قوله « يحلون ماحرم ..فتستحلونه .ويحرمون ما أحل فتحرمونه » لتعرف أنهم لم يكفروا بمجرد التنفيذ والطاعة فى العمل وإنما لأنهم أطاعوا فى التحليل والتحريم وهذا هو تبديل وتغيير لأحكام الله واعتقاد الحرام حلالا والحلال حراما طاعة لأحبارهم ورهبانهم كما ترى فى نص الحديث ، وهذا مافهمه الصحابة ﷺ يقول حذيفة وقد سئل أكانوا يعبدونهم ؟ : « قال لا ، كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » . وقريبا من هذا ذكره الربيع بن أنس . ونص القرطبى عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة آل عمران ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال : « أى لايتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه الا فيما حلله الله تعالى وهو نظير قوله تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم فى قبول تحريمهم وتحليلهم لما يحرمه الله ولما لم يحله الله » ج٤ ص ١٠٦ ويقول ابن حزم : « فان قال قائل كيف اتخذ اليهود والنصارى اربابا وهم ينكرون ذلك ؟ قلنا ان التسمية لله عز وجل ، فلما كان اليهود والنصارى يحرمون ماحرم احبارهم ورهبانهم ويحلون مااحلوا كانت هذه ربوبية صحيحة وعبادة صحيحة قد دانوا بها وسمى الله تعالى هذا العمل اتخذ أرباب من دون الله وعبادة وهذا هو الشرك بلاخلاف » الفصل ج٣ - ٢٦٦ .

واختم هنا بما ذكره القسطلانى فى شرحه على البخارى معلقا على كتاب النبى ﷺ إلى هرقل: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، قال : فلا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ، ولانطيع الأحبار فيما أحدثوه من التحليل والتحريم لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا » ثم ذكر حديث عدى بن حاتم السابق .

هكذا تنص السنة وأقوال الصحابة والعلماء سلفا وخلفا أن الطاعة المكفرة الواردة فى هذه الآية هى الطاعة فى التحليل والتحريم وليست هى مطلق الطاعة ، ولا الطاعة فى العمل بالمعصية . ، ولكن قد يجد القارئ فى بعض ماورد عن العلماء كلمة الطاعة فى المعصية دون تفصيل ، وهذا ممايثير اللبس عند من لاعلم له بالنصوص والنقول الأخرى الواردة عن هؤلاء العلماء أوعن العلماء الآخرين والتى توضح أن الطاعة

المكفرة هى تلك الطاعة المصحوبة بالاعتقاد وليست الطاعة المجردة كما ذكرنا مرارا وتكرارا . ولقد ورد بكتاب « دعاة لاقضاة » مبحث قيم حول آية التوبة هذه فليراجعه من أراد المزيد ، ففيه بيان رائع للمسألة بإذن الله .

هذه بعض آيات احتججت بها أيها الأمير لتنصر مذهبك فى تكفيرالشعوب بمجرد طاعتهم الحكام فيما حرم الله تحت دعوى أنهم وقعوا فى شرك الطاعة ، كما وقع الحكام فى شرك التشريع ، بل وترى أنهم بمجرد سنهم القوانين المخالفة للشريعة قد جعلوا أنفسهم شركاء مع الله ، ولم تنظر إلى مافى قلوبهم ولا اعتقادهم من احتمال التأويل أو الجهل والتلبيس ، أو عدم الا ستحلال لهذا الفعل ، ولالغير ذلك من الشروط والضوابط التى تلزم للقول بتكفيرهم وردتهم، وقد رأينا كيف تعامل فقهاء وعلماء الإسلام مع مااستدللت به من الآيات وكيف فهمو ها على وجه ها الصحيح بع يدا عن الإفراط والتفريط ، وذ لك برغم إختلاف عصورهم وأمصارهم ومذاهبهم الفقهية كما سبق ، فهل تواطأ هؤلاء الأئمة على الخطأ فى الفهم ، أو اتفقوا جميعهم على التحريف والتدليس ؟ اللهم لا ، ولكن غلب الجهل والهوى على الكثير من الشباب ودعاة الغلو والتكفير فشذوا وخالفوا ، واتبعوا غير سبيل المؤمنين ، فولاهم الله ماتولوا ، فوقعوا فى ورطات الأمور ، فهل تفيق أيها الأمير وتراجع نفسك وإخوانك فيما ذهبتم إليه من تكفير الشعوب والحكام أولئك بدعوى التشريع ، وهؤلاء بزعم الطاعة ؟ ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؟

الخاتمة

وبعد

فماأعطى أحد عطاءا أفضل من فهم سديد ، وماحبا الله سبحانه وتعالى سليمان عليه السلام بشيء بعد العلم أشرف من الفهم فاستأهل بذلك أن يمدح فى القرآن بقوله ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، فالخير كل الخير فى فهم بعد علم وفقه بعد دين ففى الحديث « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ، لقد كان الفهم والفقه هما دعوة النبى ﷺ لمن يحب فسمعناه يدعو لابن عمه عبد الله بن عباس قائلا « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وبالفعل كان حبر الامة عصمة للدين من التحريف ، وحفظا للأمة من الضلال والهوى ، فعند كل ملمة يسعف الأمة بفهمه ، وينصر الحق بفقهه ، ويرشد الحيارى بحكمته ، لقد حفظ الله هذا الدين برحمة أبى بكر وعدل عمر وفقه ابن عباس ، فأولهم صديق ، والثانى الفاروق ، وثالثهم ترجمان القرآن .

لقد رحل الصديق بقلبه الكبير ، واستشهد عمر بعدله الوفير ، ومات ابن عباس بعلمه الغزير ، واستشرت الأهواء والشبهات فى قطاع كبير من الأمة ، لقد أبصر عمر الملهم انه لانجاة للأمة قادة وأفرادا الا بالفهم الصحيح عن الله وعن رسوله ﷺ فبعث بها مجلجلة تجتاز الفيافى وتقطع القفار، لتستقر فى سمع وقلب أبى عبيدة بن الجراح « فافهم اذا ادلى اليك ..... ثم الفهم الفهم فيما ادلى اليك مماورد عليك .....» ، ويعلق العلامة ابن القيم على مقولة الخليفة بقوله فى اعلام الموقعين : « صحة الفهم وحسن القصد من اعظم نعم الله التى انعم بها على عبده، بل ما أعطى عبد عطاءا بعد الإسلام افضل ولا أجل منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما، وبهما يأمن الإنسان طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم ، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت افهامهم وقصودهم ..... و صحة الفهم نور يقذفه الله فى قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد » .

ثم يقول ابن القيم : « ولايتمكن المفتى ولاالحاكم من الفتوى والحكم بالحق الا بنوعين من الفهم ، أحدهما : فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ماوقع بالقرائن والأمارات والعلامات ، حتى يحيط به علما .

والنوع الثانى : فهم الواجب فى الواقع ، وهو فهم حكم الله الذى حكم به فى كتابه أو على لسان رسوله فى هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه فى ذلك لم يعدم أجرين أو أجرا، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ...... ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم ونسبه إلى الشريعة التى بعث الله بها رسوله » .

لقد طمست أو كادت ، وحرفت أو شارفت كثيرٌ من المفاهيم الإ سلامية ، وتملك التشويش والتلبيس عقول الكثير من أبناء الأمة ، وانتقلت هذه الصورة الشائهة المحرفة عن الإسلام إلى العالم ، وتلقفها المغرضون ، وانخدع بها البسطاء والجاهلون ، وسدد الكل سهامه تجاه الإسلام وأمته ، واتسع الخرق على الرتق ، وصارت الأمة فريسة عدوين شرسين ، جهل أبنائها وكيد أعدائها ، واذا بالدماء تجرى ، والرقاب تقطع بالسكين ، والاعراض تنتهك كل حين ، والمقدرات تنهب وتستنزف ، تهان العجائز وتسترق الحرائر ، والجرحى والمشردون والمنكوبون بالملايين ، تتقرح العيون وتجف الحلوق من الصراخ :

نسبى ونطرد يا أبى ونباد — فإلى متى يتطاول الأوغاد

وإلى متى تدمى الجراح قلوبنا — وإلى متى تتقرح الأكباد؟

ووقف الكل يتحسر :

يا أمة الإسلام كم — تبكى عيون بنيك دم ؟

ولقد تفرق شملهم — وتمزقوا بين الامم

رحماك يارب بهم — رحماك فاجبر كسرهم

لكن من المسئول عن هذه المأساة وتلك الكارثة التى حلت بالأمة فى مفاهيمها ومقدراتها وابنائها ؟

ان هذه المصيبة الكبرى لايتحملها شخص أو أشخاص ، لايسأل عنها فريق أو طائفة ، لايلقى بتبعاتها على حزب أو جماعة ، لايلام عليها حاكم بمفرده ولاعالم بشخصه ، ولايحاسب بشأنها هيئة أو مؤسسة ، لم يقصر فيها الشباب فقط ولاالشيوخ ، بل جميعنا مسؤل عن هذه المصيبة ، نحن أبناء الأمة أولا مسؤلون عما نزل بنا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ ، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ نعم لقد غيرنا وتغيرنا ، فغير الله ماكنا فيه ، وتغير لنا عما كان عليه ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ، لقد تغير الحكم الراشد الرحيم إلى ملك جبرى غشوم ظلوم ، وتغير نفرمن العلماء الربانيين إلى أبواق للباطل ، أو صمتوا صمت القبور ، وتغير التعليم من الاصلاح والتربية إلى التعتيم على الإسلام ، والتفريغ لمضامينه والتعمية ، وتحول بعض الاعلام من البناء والتشييد إلى التهييج والتحريض ، وانتقل من صناعة الاجيال إلى تلميع السوقة و الجهال ودعاة الانحلال ، وانتقل الكثير من الشباب من طور التعلم والاسترشاد إلى دائرة التشدد والعناد ، وانزوت حكمة الشيوخ واكتفى البعض بالتقريع والتوبيخ ، وجاء أمراء الضلالة وأئمة الشرفساقوا الأجيال

إلى التكفير والتفجير والمخا صمة والهجر ، وعقلوا عقولهم بعقال التحزب والتعصب ، ومر سوهم على النكث والمكر الغدر، وأقنعوهم بالفتاوى الكاذبات ، ولقنوهم النصــوص المحرفات ، أثاروا مشــاعرهم بالهتافات والشعرات ، وخرجوا بهم من المساجد والمحاريب إلى المخابىء والسراديب .

لقد تحول بعض الزهاد والعباد إلى طلاب دنيا يبيعون الاديان والاوطان والإنســان ، لايحســون بوجعة قلب ولابوخزة ضــمير ، فكم جمعوا من القروش ، وكم ملأوا من الكروش ، تركوا طهارة التجرد وتقلبوا فى دنس الحشوش .

إن الكثير من المسلمين اليوم يعيش بلاهدف ، ومن عرف هدفا فهدفه و ضيع تافه حقير ، قليل من يحلق للعلا وينظر إلى النجوم .

وعندنا نوران ... قرآن وسنة ... مابالنا فى حالك الظلمات ؟

لقد عشنا زمانا قادة للأمم ، واليوم باتت أمة الإسلام حيرى ، وصارت أمتى فى شر حالة ،

فيا علماء الأمة ، وياحكام المســلمين : عودوا إلى ســابق عهدكم وســامق مجدكم ، فأنتم أولياء الأمور خذوا بزمام أنفســكم وزمام الأمة ، وعودوا بها إلى الله عودا حميدا ، واحفظوا الأمانة التى حملتموها ، وبينوا للناس معالم ومفاهيم وحقائق هذا الدين العظيم ، ربوا الأمة على الإســلام ، وخذوها تحت راية القرآن ، دعوكم من دعاوى « التجفيف والتخويف »، فلاعصــمة ولانجاة ولاســعادة ولافلاح ولا أمان ولارخاء الا بالتمسك بالإسلام الكامل الشامل الصحيح .

وياشــباب الإســلام : انتم امل الامة ومســتقبلها ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، وتواضــعوا لله ترفعوا ، وتعلموا قبل أن تسودوا ، وثقوا أن الخير موجود إلى قيام الساعة ، وأن العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه .

أيتها المرأة المسلمة : علمى أبناءك وبناتك حلم ابى بكر ، وعدل عمر ، و شجاعة على ، وامانة أبى عبيدة ، وزهد ابى ذر ، وســعى عبدالرحمن بن عوف ، ونجدة خالد ، وعلم ابن عباس ، وحياء عثمان ، وعفة أبن مسعود ، وعبادة ابن عمر ، وكرم طلحة ، وطهر عائشة ، ومواساة خديجة ، ونقاء فاطمة ، و صبر أسماء ، وبذل الخنساء ، وثبات نسيبة ، علميهم ذلك لتعيشى ملكة فى ظل اسلامك وأسلافك الأكرمين .

كم أحلم بيوم أرى للمجامع الفقهية والمؤسسات الدينية والمحافل العلمية والاعلامية أثرا وحضورا يوجه الأمة ويقودها ويجنبها الردى أكثر من ذلك ، كم أحلم أن أرى مفاهيم الإسلام الصحيحة ساطعة فى كل بيت ، راسخة فى كل عقل ، مشرقة فى كل قلب ، وأن تعيش كل نفس ويكون كل نفس بالإسلام وللاسلام ، نصلح الدنيا والاخرة بالدين ، نهتف يارسول الله بشرى :

فنحن « على سنتك نعيش»

وبعد : لقد كانت هذه الجولة الماتعة بين الشيخ والأمير فى فقه معانى بعض المصطلحات الإسلامية وتحرير مفهومها، نقلتها بكل تجرد ، وعر ضتها بكل مو ضوعية ، كما وردت عنهما ، ونقلا عن فقهاء الامة وعلمائها ، مستدلين لذلك بصحيح المنقول و صريح المعقول ، لم أتدخل برأى الا قليلا قليلا ، فقد سلمت القوس باريها ، وتركت المنبر لفارسه ، وجلست خلال هذه الرحلة الطويلة جلسة المتعلمين ، استمعت كثيرا ، فتعلمت أكثر ، وسطرت أحداثا انعقد عليها قلبى ، وامتلأ بها عقلى فلهج بها لسانى ، وخطها بنانى ، سهرت عليها الأيام والليالى ، فجاء هذا الكتاب :

« الشيخ والأمير جولات بين المفاهيم والمصطلحات » ، محاولة لتصحيح بعض المفاهيم ، و سعيا فى تحرير بعض المصطلحات ، هداية للحائر ، وارشادا للسائر ، واجابة للسائل ، وتعليما للجاهل ،وتنبيها للغافل ، تنزيها للاسلام وهو النزيه ، وتبرئة للشريعة وهى البريئة ، جمعا للشمل رأبا للصدع ، وتقريبا للشقة ، تذكرة لنفسى ، شهادة لها وعليها ، ترشدانا للصواب ، وطلبا للثواب ، اقرارا بماكان من خطأ أو تقصير ، وطمعا فى الهدى وتحصيل الخير ، ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ، ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ ، ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

كتبه

د / أحمد عبد الرحمن المتولى

«حمادة عبد الرحمن »

القاهرة -نوفمبر٢٠١٧م - ربيع الأول ١٤٣٩ هـ

م - ٠١٠٦١٠٤٨٩٩٠

قائمة المراجع

اولا : كتب التفسير وعلوم القرآن .

١ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

٢ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبى .

٣ – جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى .

٤ – أنوار التنزيل للبيضاوى .

٥ – ظلال القرآن لسيد قطب .

٦ – تيسير الكريم الرحمن للسعدى .

٧ –التحرير والتنوير للامام الطاهر بن عاشور .

٨ – التفسير القيم للامام ابن القيم .

٩ – فتح القدير للشوكانى .

١٠ – مفردات ألفاظ القرآن للأصفهانى .

١١ – روح المعانى للألوسى .

١٢ – خطأ فى التفسير لوحيد الدين خان .

١٣ – مفاتيح الغيب للرازى .

١٤ – محاسن التأويل للقاسمى .

١٥ – تفسير المنار لرشيد رضا .

ثانيا : كتب الحديث وعلومه

١ – فتح البارى لابن حجر .

٢ – شرح صحيح مسلم للنووى .

٣ – شرح رياض الصالحين لابن عثيمين .

٤ – تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

٥ – تحفة الأحوذى للمباركفورى .

٦ – نيل الأوطار للشوكانى .

٧ – جامع العلوم والحكم لابن رجب .

ثالثا : كتب اللغة

١ – لسان العرب لابن منظور .

٢ – القاموس المحيط للفيروز أبادى .

٣ – الصحاح للجوهرى .

٤ – المصباح المنير للفيومى .

٥ – مقاييسس اللغة لابن فارس.

٦ – المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية .

رابعا : كتب الفكر والفرق

١ – المصطلحات الأربعة للمودودى .

٢ – معالم فى الطريق لسيد قطب .

٣ – نحو مجتمع اسلامى لسيد قطب .

٤ – التربية الإسلامية لمحمد قطب .

٥ – واقعنا المعاصر لمحمد قطب .

٦ – نظرات فى واقعنا المعاصر لشاكر نعم الله .

٧ – نظرات فى التفكير والتكفير – د أحمد عبد الرحمن .

٨ – صناعة الأزمة –قراءة فى أوراق العنف – دأحمد عبد الرحمن .

٩ – جاهلية القرن العشرين – لمحمد قطب .

١٠ – شبهات التكفير – دعمر عبدالعزيز .

١١ – دعاة لاقضاة – المستشار حسن الهضيبى .

١٢ – ظاهرة التكفير شبهات وردود لعبد الفتاح شاهين .

١٣ – اعلان النكير على دعاة التكفير – أحمد أبو العينين .

١٤ – الغلو فى الدين – دعبدالرحمن بن معلا .

١٥ – الحكم وقضية تكفير المسلم – المستشار سالم البهنساوى .

١٦ – الحاكمية د. ناجح إبراهيم .

١٧ – الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية – لهشام جعفر .

١٨ – هذا الدين – لسيد قطب .

١٩ – منهاج الانقلاب الإسلامى – للمودودى .

٢٠ – قضية الحكم بغير ماأنزل الله – أحمد يحيى .

خامسا : كتب متنوعة :

١ – مجموع الفتاوى لابن تيمية .

٢ – العبودية – لابن تيمية .

٣ – منهاج السنة النبوية –لابن تيمية .

٤ – الصارم المسلول – لابن تيمية .

٥ – مدارج السالكين – لابن القيم .

٦ –اغاثة اللهفان – لابن القيم .

٧– طريق الهجرتين – لابن القيم .

٨– معارج القبول – لحافظ حكمى

.٩- الرد على خوارج العصر- اشراف دعلى جمعة .

١٠ – فتاوى العلامة ابن باز .

١١ – فتاوى الشيخ ابن عثيمين .

١٢ –القتال فى القرآن الامام أبوزهرة .

١٣ –الإسلام عقيدة وشريعة للامام محمود شلتوت .

١٤- مائة سؤال عن الإسلام – الشيخ محمد الغزالى .

١٥- فقه الجهاد – الدكتور يوسف القرضاوى .

١٦ – كتب ومراجع أخرى .

سادسا : مواقع أليكترونية

١ – موقع ابن باز

٢ – موقع ابن عثيمين

٣ – موقع د صبرى محمد خليل

٤ – موقع الدرر السنية

٥ – موقع الشيخ الغزالى

٦ – موقع أنا السلفى .

٧- موقع الإسلام اليوم

٨ – موقع اسلام أونلاين

٩ مواقع أخرى .

الفهارس

